to:
WWW.AL-MOSTAFA.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر :

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى .

والصلاة والسلام على سيد الخلق ، إمام الهدى ورسول الحق نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وأشهد أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، سبحانه لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه .

وأشهد أن سيدنا محمدًا ﷺ رسوله المصطفى وخليله المجتبى ، ورحمته المهداة ، ونعمته المسداة إلى الثقلين من عجم ومن عرب ، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ؛ لم يترك ﷺ عملًا يقربنا من الجنة إلا ورغّبنا فيه ، ولم يترك عملًا يقربنا من النار إلا ونهانا عنه .

أما بعد ...

فهذه طبعة جديدة من كتاب الإسراء والمعراج لشيخنا الإمام محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه ، وهي إلى جانب أنها فريدة في بابها ، فقد تميزت هذه المرة بالشرح والتحقيق والتوثيق لهذا الحدث العظيم .

ورغبت أن أستهلها بقصيدة الباكورة للشيخ الإمام ، نظمها فضيلته في الإسراء والمعراج مع مقدمة في موجز حياة النبي ﷺ وأشهر معجزاته .

كما اقتطفت من ديوان الإمام البوصيري ما قاله عن الإسراء والمعراج .

ثم اقدم بين يدى كتابنا هذا بأحاديث الإسراء والمعراج من كتابى الإمامين الجليلين : البخارى ومسلم ، اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

وأختم ذلك كله بجولة عن الإسراء والمعراج فى حدائق الأنوار ومطالع الأسرار فى سيرة النبى المختار ، وعلى آله المصطفَيْن الأخيار ، للعلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن علىّ بن محمد ، المعروف بابن الديبع الشيبانى الشافعى .

ثم نعيش فى جو الإسراء والمعراج بإسلوب شيخنا الإمام الذى تميز بسهولة العبارة ووضوح الإشارة ودقة الاستنباط .

وقد يجد القارئ الكريم فى الشرح ما يوهم بأنه تكرار ، خاصة روايات الإسراء والمعراج ، ولكن هذا ليس تكرارًا ولكنه مقصود ، فإن كل رواية وضعناها فى الشرح قد انفردت بزيادة عن الأخرى ، وكل قول لعالم نقلناه فى كتابنا هذا فيه توضيح واستجلاء لحقيقة قد تغيب فى وسط زحمة الكتب التى تحدثت عن الإسراء والمعراج ، وبخاصة تلك التى اعتمدت على الروايات الضعيفة والموضوعة بغية التشويق والإثارة .

والله سبحانه نسأل أن ينفع به قارئه وكاتبه ويجزى شيخنا الإمام عنا خير الجزاء .

خادم العلم الشريف

عبد الله حجاج

قصيدة الإسراء والمعراج

مُنَاجَاة وَاسْتِعْطَاف :

يَا لَيْلَةَ « المِعْرَاجِ » وَ « الإِسْرَاءِ » ... وَحْىَ الجَلَالِ وَفِتْنَةَ الشُّعَرَاءِ
الدَّهْرُ أَجْمَعُ أَنْتِ سِرُّ نَوَاتِهِ ... وَبِمَا أَتَاكَ اللهُ ذَاتُ رُوَاءِ[1]
فَلَكَ العُلَا دَارَتْ عَلَيْهِ شَمْسُهُ ... وَالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ مِنَ الإِنْشَاءِ[2]
مَنْ ذَا الَّذِى يَحْظَى بِمَا اسْتَعْصَى عَلَى ... « مُوسَى وَعِيسَى » صَاحِبِ الإِحْيَاءِ[3]
لِلَّهِ عَذْرَاءُ يَتِيلُ خِصْرُهَا !! ... مَنْ ذَا الَّذِى يَحْظَى بِنِى العَذْرَاءِ ؟
لَا غَرْوَ إِنْ كَانَتْ كَعَابُ « مُحَمَّدٍ » ... إِنَّ العَظِيمَ يَكُونُ لِلْعُظَمَاءِ[4]
يَا لَيْلَةً فِى الدَّهْرِ جَلَّ مَقَامُهَا ... نُورٌ عَلَيْكِ يَفُوقُ نُورَ ذُكَاءِ[5]
يَا لَيْلَةً فِيهَا الفَضَائِلُ أَيْنَعَتْ ... لِنَبِيِّنَا ذِى الرُّتْبَةِ العَلْيَاءِ
يَا لَيْلَةً صَارَتْ لِأُمَّةِ « أَحْمَدٍ » ... عِيدًا تُجَدِّدُهُ يَدُ العُظَمَاءِ
يَا لَيْلَةً قُصِّى حَدِيثًا شَائِقًا ... عَمَّا عَلِمْتِ فَأَنْتِ أَصْدَقُ رَاءِ
يَا لَيْلَةً قُصِّى حَدِيثَ « مُحَمَّدٍ » ... كَى تُبْتَرِينَ جَهَالَةَ الجُهَلَاءِ[6]
قُصِّى بِرَبِّكِ مَا عَلِمْتِ وَمَا الَّذِى ... قَدْ حَازَهُ ذُو العِزَّةِ القَعْسَاءِ ؟
قُصِّى بِرَبِّكِ لَا تَضِنِّى ... فَالبُخْلُ مَنْقُوتٌ لَدَى الكُرَمَاءِ
قُصِّى حَدِيثَ رَسُولِنَا خَيْرِ المَلَا ... قُصِّى عَلَيْنَا أَطْيَبَ الأَنْبَاءِ
هَلْ فِى سُكُوتِكِ لِى مُجِيبٌ نَاطِقٌ ... يَحْنُو عَلَى مُسْتَوْكِفِ الأَنْبَاءِ[7]

(١) الرواء : بضم الراء المشددة ، حسنت منظر . (٢) الإنشاء : بدء الخلق .
(٣) معجزة عيسى . (٤) لا غرو : لا عجب . الكعاب : الجارية الناهد .
(٥) ذكاء : اسم من أسماء الشمس .
(٦) البتر : القطع .
(٧) المستوكف : الطالب .

إِنْ كُنْتِ تَبْغِينَ الدَّلَالَ فَإِنَّنِي ... صَبٌ أَجَنَّ إِلَيْكِ كَالوَرْقَاءِ[1]
أَوْ كُنْتِ تَبْغِينَ ابْتِغَاضَ وِصَالِنَا ... أَغْلَى العُشُوقِ تَعَزُّزُ الهَيْفَاءِ ؟
فَصَلِي يَرُغْمِ الحَاسِدِينَ وَتَحْتَرِي ... فَالخَيْرُ مِثْلُكِ يُبْتَغَى كُلَّ عَنَاءِ

قِلَّةُ وَعْظِهِ :

رُبَّ وَاعِيَةٍ وَاتَحْتُ طَرْباً فِي ... قَدْ أَمْطَرْتُنِي بِوَحْرِهَا وَدَوَائِي
قَدْ أَمْطَرْتُنِي مِنْ ثَنَايَاهَا المُنَى ... قَوْلاً أَتَى كَالغَيْثِ لِلجَدْبَاءِ
قَالَتْ : وَقَدْ دَارَتْ بِكَأْسٍ شَمُولِهَا ... كَمْ النَّدَامَى فَذَلِكَ حَيْرٌ بِنَاءِ
يَا مَنْ يُنَادِي . مَا أَقُولُ وَقَدْ بَدَا ؟ ... « إِسْرَافُهُ » وَ « عِرْوَجُهِ » بِجَلَاءِ
اَلْمُكْثِرُونَ لِمَا يَقُولُ « مُحَمَّدٌ » ... لَا شَكَّ فِيهِمْ مُحْلَةُ الكُفَهَاءِ
لَكِنْ سَأَذْكُرُ لِمَنْ بَعْدَا مِمَّا جَرَى ... فَاسْمَعْ فَإِنَّ الخَيْرَ فِي الإِصْغَاءِ

مِنَّةُ اللهِ على سيدنا محمد ﷺ :

اللهُ فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ الوَرَى ... أَفْعَالُهُ خَيْرُ العُقُولِ وَالآرَاءِ
هُوَ سَيِّدُ الثَّقَلَيْنِ « مَهْ » « المُصْطَفَى » ... « يس » أَكْمَلُ مَنْ عَلَى البَطْحَاءِ[2]

نَسَبُهُ :

هُوَ شِبْلُ « عَبْدِ اللهِ » فِي أَنْوَابِهِ ... هُوَ سِبْطُ « مُطَّلِبٍ » حَبَا الصَّحْرَاءِ[3]
هُوَ زَهْرَةٌ مِنْ آلِ « هَاشِمَ » نَفْحُهَا ... نُورُ الهُدَى هُوَ ذَخْرَةُ اسْتَبْجَدَاءِ[4]
« مُضَرٌ » نَضَارَةُ حِلْقِهِ ثُمَّ اصْطَفَى ... بِهَا « كِنَانَةَ » بِلَا إِجْحَاءِ
ثُمَّ اصْطَفَى بِنْهَا « قُرَيْشاً » اصْطَفَى الـ ... هَادِي . فَأَشْرَفُ صَفْوَةُ الآبَاءِ
لَهْوَ الخِيَارُ مِنَ الخِيَارِ مِنَ الخِيَا ... رِ نَاصِي المَكَارِمِ أَيُّمَا إِقْصَاءِ

حِكْمَةُ رِسَالَتِهِ :

لَمَّا رَأَى رَبُّ الخَلَائِقِ أَنَّهُمْ ... ضَلُّوا الطَّرِيقَ أَتَى بِخَيْرِ دَوَاءِ
أَهْدَى بِكَ الدُّنْيَا لِتُصْلِحَ أَهْلَهَا ... يَا رَافِعَ الغَرَّاءِ وَالبُؤَسَاءِ

(١) الورقاء : حمامة اشتهرت بشدة الحنين إلى إلفها .
(٢) أي : الثقلان الإنس والجن .
(٣) الشبل : ابن الأسد ، السبط : ابن الابن .
(٤) استجدله : الطالب ، إشارة لقول إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ (البقرة : ١٢٩) .

أَزِلْتَ فِي الدُّنْيَا نَمِيماً صَادِقاً ... فَأَزَلْتَ دَاجِيَهَا بِخَيْرِ ضِيَاءِ
بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ يَا عَلَمَ الهُدَى ... قَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسٌ عَلَى العَرْبَاءِ

جَمْعُهُ :

قَدْ كَانَ سَيْفُ البَغْيِ سَلَّ بِهِمَّةٍ ... لَكِنَّ عَدْلَكَ فَلَّ كُلَّ تَلَاءِ
طَهَّرْتَ أَرْضَ اللهِ مِنْ أَوْضَارِهَا ... وَرَفَعْتَ بِيَمْنِهَا عَلَى الجَوْزَاءِ[1]
وَطُلْتَ إِيمَاناً بِهَا وَمَهَابَةً ... لِلَّهِ فِي قَلْبٍ وَفِي أَحْشَاءِ
لَكَ مُعْجِزَاتٌ يَا « مُحَمَّدُ » شُرِّفَتْ ... رَفَعَتْ مَقَامَكَ فَوْقَ كُلِّ لِوَاءِ

بَلَاغَتُهُ وَإِفْصَاحُهُ[2] :

رَصَعَطَكَ أَنْكَ كَامِلاً وَمُكَمَّلاً ... فَجَرَتْ كَوْنَ اللهِ بِالأَضْوَاءِ
« إِيوَانُ كِسْرَى » شُقَّ يَوْمَ تُوُرِعْتَ ... « نَارُ بَغَارِسَ » أُخْمِدَتْ لِلْرَّائِي
قَدْ خَطَّفَتْ أَصْنَامَ « مَكَّةَ » بَعْدَمَا ... كَانَتْ إِلَهَ الجَاحِدِ الشَّقَّاقِي

بِشْرُهُ :

يَغْمُ الوَجِيهُ كَأَوْلِيَاءِ بِيُشْبِهِ ... وَالِيثُمُ كَوْلَئِكَ فَاقِدَ الكُفَرَاءِ
كَلَأَتْكَ عَيْنُ اللهِ دُونَ أُلُوفِهِ ... وَأُلُوفِهِ تَحْنُو وَدُونَ ثَرَاءِ
« وَإِذَا البَشَاشَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا ... نَمْ فَالمَخَاوِفُ « عَنْكَ فِي إِغْفَاءِ

رِضَاعَتُهُ :

نَدَبُوا نِسَاءَ الحَيِّ حِينَ رِضَاعِهِ ... فَتَخَيَّرَتْ عَنْهُ بِفَارِ الأَبْسَبَهْرَاءِ
جَاءَتْ « حَلِيمَةُ » وَالعَجِيفَةُ تَحْتَطِي ... مُذْ أَرْضَعَتْ صَارَتْ مِنَ السَّعْدَاءِ
نَالَتْ جَمِيعَ الرَّضْعَاتِ نَبَالَةً ... وَقَدِ اسْتَعَارَتْ مِنْهُ كُلَّ رُوَاءِ

خَاتِمَةُ قَبْلَ البِدْءِ :

فِي عَهْدِهِ الإِيمَانُ كَانَ خَلِيلَهُ ... وَكَذَا الشَّبَابُ ذَرِيعَةُ الإِغْوَاءِ
قَدْ كَادَ وَالبِدْعُ اسْتَطَالَ شُوَاظُهَا ... يَفْدُو بِذِكْرِ اللهِ فِي « جِرَاءِ »
ظَهَرَتْ بَوَادِرُهُ أَبِيَّ غَيُورَةٍ ... كَانَتْ نَفِيسُ بِهِ عَلَى الأَعْدَاءِ
مَاضِي العَزِيمَةِ جِرْوَةٌ رَيَّعَانَةٌ ... سَاسَ المُؤَمَّلَ بَعْدَ رَعْيِ « الشَّاءِ »

(١) الأوضار : الأقذار ، الجوزاء : الأرض . (٢) الإرهاص : معجزة تأتي لتأسيس النبوة .

تنبؤ الأحبار به :

قَدْ شَاعَ فِي الأَصْقَاعِ طِيبُ ذِكْرِهِ ... وَتَضَوَّعَتْ رَيَّاهُ فِي الأَنْحَاءِ[1]
وَتَنَبَّأَ « الأَحْبَارُ » هَذَا « أَحْمَدٌ » ... يُشْرَى مِنَ « الإِنْجِيلِ » بَعْدَ بَلَاءِ

زَوَاجُهُ بِخَدِيجَةَ :

سَادَتْ نَبَالَتُهُ فَتَمَّ قِرَانُهُ ... « بِخَدِيجَةٍ » عَنْ رَغْبَةٍ وَصَفَاءِ

اصْطِفَاؤُهُ وَنُزُولُ الوَحْيِ :

لَمَّا أَتَيْتَ اللَّأْوَبَعِينَ أَتَيْتَهُمْ ... تَهْدِي قَطِينَ البَرِّ وَالدَّأْمَاءِ[2]
« جِبْرِيلُ » رُوحُ اللهِ وَحْيُ رَسُولِهِ ... أَدْلَى لَهُ فِي « الغَارِ » بِالأَنْبَاءِ
ضَمَّ النَّبِيُّ إِلَيْهِ ضَمَّةَ وَامِقٍ ... قَالَ : اقْرَأَنْ يَا سَيِّدَ القُرَّاءِ
قَدْ أَحْجَمَ « الهَادِي » فَقَالَ : مُكَرِّراً ... بِاسْمِ الإِلَهِ . اقْرَأْ . وَعَمَّ بِرِضَاءِ
قَدْ قَالَ : رُعْباً . زَمِّلُونِي ، دَثِّرُوا ... وَأَتَى ابْنُ « نَوْفَلٍ » مُؤْذِناً بِرَجَاءِ
بُشْرَى . فَهَذَا المُرْتَجَى فِي كُتْبِنَا ... وَرَسُولُنَا فِي آخِرِ الآنَاءِ

دَعْوَتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ :

وَدَعَا النَّبِيُّ إِلَى الحَقِيقَةِ مُرْهَفاً ... مَاضٍ مَضَاءَ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ[3]
قَدْ صَدَّقَ « المَحْمُودَ » قَلْبُ سَعِيدِهِمْ ... وَنَأَى وَكَذَّبَهُ ذَوُو الأَهْوَاءِ

مَوْقِفُ الأَعْرَابِ مِنْهُ :

وَتَجَهَّمَ « الأَعْرَابُ » مِمَّا قَدْ أَتَى ... وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ نُهَى الكُبَرَاءِ[4]
لَوْلَا التَّعَصُّبُ فِي القَبِيلَةِ دَبْدَنٌ ... لَشَفَوْا غَلِيلَهُمْ بِسَكْبِ دِمَاءِ

حِكْمَةُ اصْطِفَائِهِمْ لَهُ :

خَافُوا رَوَاجَ دِعَايَةٍ عَلَى ... « عُزَّاهُمُ » وَ « اللَّاتِ » أَيَّ قَضَاءِ[5]
خَافُوا كَمَاءَ مَنَاجِرٍ إِنْ أَذْعَنُوا ... وَتَمَسَّكُوا بِرَذِيلَةِ الإِيذَاءِ

(١) الأصقاع : النواحي . تضوعت : فاحت .
(٢) الدأماء : البحر . قطين : ساكن .
(٣) الصعدة السمراء : القناة الماضية .
(٤) تجهم : كشر .
(٥) العزى واللات : صنمان كان يحج إليهما في الجاهلية .

عَزِيمَةُ النَّبِيِّ :

لَمْ تَثْنِ مِنْ عَزْمِ النَّبِيِّ فِعَالُهُمْ ... أَوْ كَانَ فِي التَّسْفِيهِ ذَا اسْتِحْيَاءِ
وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَإِنْ يَكُ مُعْدَماً ... وَالزُّورُ مَقْهُورٌ عَلَى الجَوْزَاءِ[1]

دَعْوَةُ النَّبِيِّ فِي مَأْدُبَةِ عَمِّهِ :

جَمَعَتْ شَبَابَ بَنِي الجَزِيرَةِ حَفْلَةٌ ... فَدَعَا إِلَى الأُخْرَى بِخَيْرِ نِدَاءِ
يَا « قَوْمُ » إِنِّي قَدْ أَتَيْتُ بِخَيْرِي الـ ... دُّنْيَا مَعَ الأُخْرَى . بِخَيْرِ جَزَاءِ
فَأَغَاظَ جَاهِلَهُ : لِذَاكَ جَمَعْتَنَا ؟ ... تَبَّتْ يَدَاكَ . تَجِيءُ بِالنُّكَرَاءِ ؟[2]
لَمْ يَغْضَبِ « الهَادِي » فَرَدَّ إِلَهُهُ ... ﴿ تَبَّتْ يَدَآ ﴾ ذِي الفَعْلَةِ الشَّنْعَاءِ
وَإِذَا أُسِئْتَ مِنَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ ... فَاللهُ مُقْتَصٌّ مِنَ الأَعْدَاءِ

مَوْقِفُ الأَعْرَابِ إِزَاءَ عَزِيمَةِ النَّبِيِّ :

لَمَّا رَأَى « الأَعْرَابُ » أَنَّ « مُحَمَّداً » ... سَيَظَلُّ يَدْعُو رَغْمَ كُلِّ بَلَاءِ
عَرَجُوا إِلَى حَامِي النَّبِيِّ وَ « عَمِّهِ » ... نَادَاهُ : أَنْ دَعْ جَالِبَ الغَوْغَاءِ
فَأَجَابَهُ : وَاللهِ لَوْ وَهَبُوا إِلَـ ... ـيَ « النَّيِّرَيْنِ » لَمَا تَرَكْتُ دُعَائِي[3]
قَالُوا تَرُومُ « المُلْكَ » أَمْ تَبْغِي عُلاً ... فَتَسُودَ فِينَا مَالِكَ الغَبْرَاءِ
أَوْ كَانَ مَا بِكَ يَا « مُحَمَّدُ » « قَوْمِنَا » ... رِئْياً نُدَاوِيهِ بِخَيْرِ دَوَاءِ[4]
فَأَجَابَهُمْ : مَا بِي مَقَالَةُ « رَهْقِكُمْ » ... لَكِنَّهُ عَهْدٌ وَذَاكَ وَفَائِي

هِجْرَتُهُ :

وَرَأَى النَّبِيُّ بِبَطْنِ « يَثْرِبَ » أُمَّةً ... خَرَجَتْ إِلَيْهِ بِخِيرَةِ النُّصَرَاءِ[5]
فَسَرَى إِلَيْهَا مَعَ « أَبِي بَكْرٍ » سُرَى ... فِيهِ تَجَلَّتْ آيَةُ الإِيفَاءِ
قَدْ كَانَ سَاعِدَهُ وَطَوْعَ يَمِينِهِ ... وَرَفِيقَهُ فِي اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ

(١) المعنى أن الحق عالٍ ، والزور وضيع .
(٢) المنكر .
(٣) النيران : الشمس والقمر .
(٤) رئي : جنون .
(٥) يثرب : المدينة .

ترحيب المدينة بمقدمه :

قَالُواْ لَهُ : وَيْحَكَ يَا « مَرْحَباً » ... « أَهْلاً بِكُمْ » يَا « بُشْرَ » « الأُدَبَاءِ »
قَدْ أَكْثَرُوهُ بِالْتِبَاعِ شَرِيعَةٍ ... وَزَّرُوهُ فِيهِمْ أَيْمَا إِفْرَاءِ(1)
قَدْ كَانَتِ الأَنْصَارُ حِذْقَ مُهَاجِرٍ ... شُرَكَاءَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
بَسَطُواْ عَلَى الأَثَرَامِ رَايَةَ دِينِهِ ... وَاسْتَعْذَبُواْ خَطَراً بِلَا غُلُوَّاءِ(2)

كيف انتشر الإسلام :

بِالسَّيْفِ حِيناً وَالْهَوَادَةِ تَارَةً ... وَالْحِلْمِ أُخْرَى دُونَ أَيِّ رِيَاءِ
لِلَّهِ لا لِشُعُوبِهِمْ قَدْ أَخْلَصُوا ... قَدْ سَرْبَلُوا الإِسْلاَمَ بِالسِّيرَاءِ

عظمته وقلبه ينظم العالم :

أَنْتَ الْعَظِيمُ بَيْنَ الْمَنَاحِي كُلِّهَا ... يَا مُنْتَدَى الْمَعْمُورَةِ السَّجْوَاءِ(3)
(سِلْماً) وَ (حَرْباً) (حِكْمَةً وَسِيَاسَةً) ... « نُبْلاً » بِجَمْعٍ . بِانْتِهَجِ الأَرْيَاءِ
صَيَّرْتَ أَضْلاَعَ « الْجَزِيرَةِ » بَعْدَمَا ... كَانَتْ كَمَا الْجَرْدَاءِ كَالْغَثَّاءِ
جُدْتَ الْمُلُوكَ لِلْمُهَيْمِنِ غَاضِبٍ ... لَكِنْ لَهُ مُعْتَرُّ بِالإِغْضَاءِ
صَيَّرْتَ أَمْرَ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُم ... شُورَى بِلَا قَصْرٍ عَلَى الأَكْفَاءِ
وَقَلَبْتَ : فَرْدا مَا بَنِيءٍ « عَرَمْرَماً » ... فِي الأَرْضِ فَتَاكٍ وَفِي الأَجْوَاءِ(4)
يَا « أَحْمَدَ » الأَنْعَامِ إِنَّكَ مَوْطِنِي ... وَمَنَاطُ عِزِّي يَا ذُرَى الْعَلْيَاءِ

معجزة القرآن :

قَدْ أَنْزَلَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ « قُرْآنَهُ » ... تَرْمِي بِهِنَّ أَفْصَحَ الْفُصَحَاءِ
مَعْجُوزَةٌ لَهُ اللُّسُنُ الْمُقَاوِلُ بَعْدَمَا ... يَتَخَبَّطُونَ تَخَبُّطَ الْعَشْوَاءِ
تَصْبُوهُ لِلْبَشَرِ افْتِرَاءً مِنْهُمُ ... هَلْ تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ بِالأَقْذَاءِ
قَالَ الإِلَهُ ائْتُوا بِهِ مِنْ مِثْلِهِ ... فَتَقَهْقَرُوا يَطْبُورِهِمْ لِسَوْرَاءِ
قَدْ عَازَطُوهُ بِبِدْعَةٍ وَخُرَافَةٍ ... أَنَّى « الثُّرَيَّا » مِنْ ثَرَى الْغَبْرَاءِ ؟

(1) الإفراء : الأكاذيب .
(2) الغلواء : المبالغة في التكبر .
(3) السجواء : الساكنة .
(4) عرمرم : جيش لجب كثير .

معجزاته :

« الْمُعْجِزَاتُ » لَهُ طَوِيلٌ حَصْرُهَا ... وَبَعِيدَةُ الأَطْرَافِ كَالْبَيْدَاءِ(1)

معجزة الإسراء :

يَا حَبَّذَا « إِسْرَاؤُهُ » وَ « عُرُوجُهُ » ... مِنْ « مَكَّةٍ » ! « الْبَيْتِ » إِلَى « الزَّرْقَاءِ »(2)
إِشْرَاقُ « طه » « الْمُصْطَفَى » لِمَلِيكِهِ ... يَا حَبَّذَا الْمُشْرَاقُ لِلْعَلْيَاءِ
قَدْ قَالَ يَا « جِبْرِيلُ » بَلِّغْ خَالِقِي ... أَنِّي أُرِيدُ بِأَنْ أَكُونَ الرَّائِي
أَبْغِي الْمُثُولَ أَمَامَهُ حَتَّى أَرَى ... ذَاتاً فَهَيِّئْنِي تَفُزْ بِلِقَائِي
ذَهَبَ « الأَمِينُ » إِلَى الإِلَهِ مُخْبِراً ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ نَاءِ
قَالَ الإِلَهُ الضَّيْغَمُ عِنْدِي « أَحْمَدُ » ... أَخْضِرْ أَبَا « جِبْرِيلُ » بِي الأَضْوَاءِ
الأَرْضُ شَغْفَى ضِيَاءُ « مُحَمَّدٍ » ... فَامْثُلْ بِهِ حَتَّى تَزُورَ مَدَائِنِي

بدء الإسراء :

ذَهَبَ « الأَمِينُ وَمِيكَئِيلُ » صُحْبَ ... أَحْمَدَ « رَسُولَ اللَّهِ » لِلإِسْرَاءِ
قَدْ نِيمَ بِئْراً « لِزَمْزَمَ » نَائِماً ... يَتَطَهَّرَا قَلْباً لَهُ بِالْمَاءِ
ذَهَبَا فَشَقَّا صَدْرَهُ بِمُدْرِيَةٍ ... غَسَلاَهُ غَسْلَكَ أَنْظُفَ الأَشْيَاءِ
مَلآهُ إِيمَاناً وَعِلْماً رَاسِخاً ... قَدْ أَلْجَمَاهُ بِحِكْمَةِ الْحُكَمَاءِ
خَلاَهُ تَرَّاً « كَالنَّطَاسِي » بَارِعاً ... لَكِنْ مُعَافَى « نُطْقَ » بِمِصْرِ عَوَّاءِ(3)

البراق :

خَتَمَاهُ خَتْماً لِلنُّبُوَّةِ مُحْكَماً ... وَأَتَى « الْبُرَاقُ » « لأَحْمَدَ » بِوَلاَءِ
لَا بِالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ مُسْرِجٌ ... خَيْرُ الْمَطَايَا مَرْكَبُ السُّعَدَاءِ
هُوَ جَامِعٌ بَيْنَ كُلِّ حُسْنٍ خِلْقَةً ... مُتَوَسِّطٌ فِي الْخَفْضِ وَالإِعْلاَءِ
رِجْلاَهُ بَلْ وَيَدَاهُ عِنْدَ ضَرُورَةٍ ... قَصُرَتْ وَطَالَتْ سَاقُهَا بِرِضَاءِ(4)
وَخُطَاهُ فِي قَطْعِ الْفَلاَةِ كَلَحْظِهِ ... وَلِحَاظُهُ اسْتَوَلَتْ عَلَى أَرْجَاءِ

(1) الصحراء الواسعة .
(2) الزرقاء : بمعنى السماء .
(3) النطاسي : الطبيب .
(4) أن رجليه تطول ويديه تقصر صاعداً ولعكس بالعكس .

رَكِبَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ حَلَّ مَقَامُهُ ... وَمَشَى الْبُرَاقُ بِمِشْيَةِ الْخُيَلاءِ
سَارُوا إِلَى الأَقْصَى يُنَارُ بِرَكْبِهِمْ ... كَالشَّمْسِ فَوْقَ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ
قَطَعُوا الْفَيَافِي وَالْقِفَارَ كَطَرْفَةٍ ... لِلْعَيْنِ أَوْ كَإِشَارَةِ الإِيمَاءِ
رَأَوُا الْعَجَائِبَ فِي الطَّرِيقِ بِأَسْرِهَا ... صَلَّوا سَوِيّاً عِنْدَ « طُورِ سَيْنَاءِ »
« الْمَسْجِدَ الأَقْصَى » رَأَوْا فَتَهَلَّلُوا ... نَزَلَ النَّبِيُّ بِبَابِهِ بِمَضَاءِ
أَخَذَ الْبُرَاقَ الْوَحْيَ جِبْرِيلُ الْعُلاَ ... لِرِكَابِهِ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

دخول المسجد والصلاة فيه :

دَخَلَ « النَّبِيُّ الْبَيْتَ » بَدْراً سَاطِعاً ... فَأَعَارَهُ نُوراً يَرَاهُ النَّائِي
صَلَّى الْمَلاَئِكُ خَلْفَ أَحْمَدِهِمْ عَلَى ... دِينِ « الْخَلِيلِ » وَأَعْلَنُوا بِدُعَاءِ
رُسُلاً يَلِي ضَرْبَا سَقَوْهُ ظَامِئاً ... وَرَوَوْهُ مِنْ هَذَا بَدِيلِ الْمَاءِ[1]
قَدِ انْتَهَى الإِسْرَاءُ مَقْطُوعاً بِهِ ... وَعُرُوجُهُ بِالْجِسْمِ ذَاكَ الْجَائِي

معراجه :

جَاءُوا بِمِرْقَاةٍ مِنَ الذَّهَبِ الَّذِي ... هُوَ عَسْجَدٌ يُدْمِي عُيُونَ الرَّائِي
صَعِدَ « النَّبِيُّ » إِلَى السَّمَاءِ مُكَبِّراً ... « جِبْرِيلُ » « مِيكَائِيلُ » كَالْبُشَرَاءِ
سَارُوا بِقُدْرَتِهِ كَأَنَّ طَرِيقَهُمْ ... جِسْرٌ عَرِيضٌ مُرَيَّمٌ بِفَضَاءِ

وُلُوجُ السَّمَاءِ الأُولَى :

لَمَّا أَتَوْا « أُولَى » السَّمَاوَاتِ الْعُلاَ ... قَرَعَ « الأَمِينُ » لِبَابِهَا بِمَضَاءِ
قَالَ « الْمُوَكَّلُ » بِالسَّمَاءِ مُخَاطِباً ... « جِبْرِيلُ » هَذَا قَائِدُ الأَضْوَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ « مُحَمَّدٌ » ... نُورُ الْهِدَايَةِ صَادِقُ الأَنْبَاءِ
سَأَلَ « الْمُوَكَّلُ » هَلْ حَظِي بِرِسَالَةٍ ... فَأَجَابَهُ : مُهْدَى إِلَى الْغَرَّاءِ
فَتَحَ « الْمُوَكَّلُ » بِالسَّمَا فَإِذَا بِهِ ... أَصْلُ الْخَلِيقَةِ دَوْحَةُ الآنَاءِ[2]
نُورَانِ قَدْ لَمَعَا عَلَى أَرْجَائِهَا ... وَتَرَى « السَّمَاءَ » تَزَيَّنَتْ بِبَهَاءِ
وَأَرَاهُ « آدَمُ » كُلَّ شَيْءٍ فَوْقَهَا ... مُتَهَلِّلاً بِفَضِيلَةٍ شَمَّاءِ

(١) الرسل : العسل . الضر : اللبن .
(٢) الدوحة : أصل الشجرة والمراد بها أبو البشر سيدنا آدم عليه السلام .

السماء الثانية :

صَعِدَ « النَّبِيُّ » لِمَا يَلِيهَا شَاكِراً ... لِلَّهِ مِنْ نِعَمٍ وَخَيْرِ عَطَاءِ
جِبْرِيلُ يَقْرَعُ بَابَهَا مُسْتَأْذِناً ... رَدَّ الْمُوَكَّلُ سَائِلاً بِوَفَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ ... خَيْرُ الْبَرِيَّةِ « أَحْمَدُ » الْوَجْهَاءِ
فَتَحَ السَّمَاءَ مُرَحِّباً « بِمُحَمَّدٍ » ... : عِيسَى : كَذَا : يَحْيَى : مِنَ الشُّهَدَاءِ
قَدْ قَابَلاَهُ بِكُلِّ بِشْرٍ وَاضِحٍ ... « يَا مَرْحَباً » بِالْقَادِمِ الْوَضَّاءِ
دَعَيَا لَهُ بِالْخَيْرِ خَالِصَ دَعْوَةٍ ... وَكَذَا يَكُونُ الْحُبُّ لِلنُّبَهَاءِ

السماء الثالثة :

صَعِدَ « النَّبِيُّ » مَعَ الأَمِينِ إِلَى الْعُلاَ ... وَصَلاَ « الثَّالِثَةَ » بِغَيْرِ عَنَاءِ
جِبْرِيلُ يَقْرَعُ بَابَهَا لِوُلُوجِهِ ... مَرَحاً فَقَالَ « مُوَكَّلٌ » بِسَمَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : « مُحَمَّدٌ » ... قُطْبُ الْوُجُودِ وَ « أَحْمَدُ » النُّبَلاَءِ
فَتَحَ السَّمَاءَ مُرَحِّباً « بِمُحَمَّدٍ » ... فَإِذَا « بِيُوسُفَ » فَاتِنُ الْحَسْنَاءِ[1]
حَيَّاهُ خَيْرَ تَحِيَّةٍ مَمْزُوجَةٍ ... حُبّاً وَذَلِكَ أَعْظَمُ الآلاَءِ[2]

السماء الرابعة :

وَصَلاَ « لِرَابِعَةِ » السَّمَاوَاتِ الْعُلاَ ... « جِبْرِيلُ » يَقْرَعُهَا بِخَيْرِ نِدَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : « مُحَمَّدٌ » ... ضَيْفُ الْعُلاَ وَمُنَوِّرُ الأَرْجَاءِ[3]
فَتَحَ « الْمُوَكَّلُ » بِالسَّمَا . فَإِذَا بِهِ ... « إِدْرِيسُ » قَوْمٍ صَادِقُ الأَنْبَاءِ
فَدَعَا لَهُ بِالْخَيْرِ حَتَّى الْمُرْتَقَى ... صَعْداً « لِخَامِسَةٍ » بِغَيْرِ تَنَاءِ

السماء الخامسة :

قَرَعَ « الأَمِينُ » لِبَابِهَا مُسْتَأْذِناً ... قَالَ « الْمُوَكَّلُ » مَنْ بِبَابِ سَمَائِي ؟
فَأَجَابَهُ : « جِبْرِيلُ » فَافْتَحْ بَابَهَا ... سَأَلَ « الْمُوَكَّلُ » قَائِدَ النُّبَلاَءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : « مُحَمَّدٌ » ... مُسْتَأْصِلُ الإِشْرَاكِ بِاللأَبْرَاءِ
فَتَحَ « الْمُوَكَّلُ » بِالسَّمَا . فَإِذَا بِهِ ... « ذُو اللِّحْيَةِ الْبَيْضَاءِ »

(١) المراد بها امرأة العزيز .
(٢) الآلاء : النعم .
(٣) الأرجاء : الظلم .

صَعِدَا « لِسَادِسَةٍ » السَّمَوَاتِ العُلاَ وَ « مُحَمَّدٌ » هُوَ أَفْضَلُ النُّزَلاَءِ
قَرَعَ « الأَمِينُ » لِبَابِهَا مُسْتَأْذِناً سَأَلَ الَّذِي فِيهَا بِكُلِّ حَيَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : « مُحَمَّدٌ » هَادِي الْبَرَايَا أَوَّلُ الشُّفَعَاءِ
فَتَحَ الَّذِينَ بِبَابِهَا وَتَهَلَّلُوا وَإِذَا بِحَفْلٍ كَانَ كَالْجَمَّاءِ[1]
وَإِذَا « بِمُوسَى » بَيْنَهُمْ مُتَهَلِّلٌ وَ « مُحَمَّدٌ » كَالزَّهْرَةِ الْفَيْحَاءِ

السماءُ السابعةُ :

صَعِدَا « لِسَابِعَةٍ » السَّمَوَاتِ العُلاَ حَتَّى أَتَوْهَا جِيئَةَ الأَنْوَاءِ[2]
قَرَعَ « الأَمِينُ » لِبَابِهَا مُسْتَأْذِناً سَأَلَ الَّذِي فِيهَا بِكُلِّ حَيَاءِ
مَنْ مَعَكَ يَا « جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : « مُحَمَّدٌ » تَاجُ الفَخَارِ وَ « مُصْطَفَى » الأَسْمَاءِ
فَتَحَ « المُوَكَّلُ » مُسْرِعاً وَمُرَحِّباً فَإِذَا « خَلِيلُ اللَّهِ » جَا لِلِقَاءِ
وَأَرَاهُ « أُمَّتَهُ » : أَرَاهُ مَقَامَهَا فِي جَنَّةِ « الأُخْرَى » بِغَيْرِ خَفَاءِ
وَأَرَاهُ شَيْئاً غَابَ عَنِّي وَصْفُهُ وَأَرَاهُ مَأْوَى مَحْتِدِ الأَكْفَاءِ
وَرَأَى « النَّبِيُّ » عَجَائِباً فِي طَيِّهَا لِلْكَافِرِينَ بِهِ وَلِلأَعْدَاءِ

سدرة المنتهى :

وَصَلاَ إِلَى : الْمَعْمُورِ : ثُمَّ لِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عَنْ صَادِقِ الإِيحَاءِ[3]

مَوْقِفُ جِبْرِيلَ :

وَهُنَا تَرَى « جِبْرِيلَ » ذَا مُتَأَخِّراً عَنْ سَيْرِهِ قَرَنَا لَهُ بِنِدَاءِ
أَكَذَاكَ يَتْرُكُ كُلُّ خِلٍّ خِلَّهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ؟ لاَ تَكُنْ مُتَنَائِي
فَأَجَابَهُ هَذَا مَقَامِي يَا « أَخِي » وَسَأَحْرِقَنَّ إِذَا تَرَكْتُ بَقَائِي
لَكِنْ تَقَدَّمْ لِلْمَلاَ فِي مَأْمَنٍ وَاللَّهِ إِنَّكَ أَرْفَعُ الأَشْيَاءِ

طريقُ النبيِّ :

حُجُبُ « لِ طَهَ الْمُصْطَفَى » قَدْ فُتِّحَتْ فَاجْتَازَهَا فِي مَأْمَنٍ وَرَخَاءِ
قَدْ زُجَّ فِي بَحْرٍ مِنَ النُّورِ الَّذِي هُوَ نُورُ وَجْهِ اللَّهِ خَيْرُ ضِيَاءِ

(١) الجماء : بمعنى الكثير . (٢) الأنواء : الرياح الشديدة . (٣) الإيحاء : بمعنى الوحي .

رؤيته لله وكلامه :

وَرَأَى الإِلَهَ بِغَيْرِ كَيْفٍ رُؤْيَةً بِالْعَيْنِ فَاقْطَعْ مِرْيَةَ الْجُهَلاَءِ[1]
وَدَنَا مِنَ « الْمَحْمُودِ » جَلَّ جَلاَلُهُ قَالَ : التَّحِيَّةُ خَالِقَ الأَرْجَاءِ
قَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْمَلاَ أَهْلاً بِمَطْلُوبِي وَعِزِّ سَمَائِي

نعمةُ اللهِ عليه :

أَبْدَى لَهُ كُلَّ الْفَضَائِلِ سَاقِياً كَأْسَ الْمَحَبَّةِ « أَحْمَداً » بِصَفَاءِ
غَمَسَ « النَّبِيَّ » بِبَحْرِ مَاءِ جَلاَلِهِ وَوَنَارِهِ وَسَقَاهُ بِالصَّهْبَاءِ[2]

فرض الصلاة :

فَرَضَ « الإِلَهُ » عَلَى « النَّبِيِّ » لِأُمَّةٍ خَمْسِينَ فَرْضاً وَاجِبِي الأَدَاءِ

أَوْبَتُهُ :

حَظِيَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ بِإِلَهِهِ وَقَدِ انْثَنَى الْمَحْفُوفُ بِالآلاَءِ[3]
وَإِذَا بِمُوسَى قَالَ : كَمْ فَرْضاً لَكُمْ ؟ فَأَجَابَهُ : خَمْسُونَ لِلآدَاءِ
قَالَ : ارْجِعْ فَسَلْهُ كَيْ يُخَفِّفَ رَبُّكُمْ فَرْضاً فَأَنْتُمْ أَضْعَفُ الأَبْنَاءِ

تخفيف الصلاة ورجوعه :

رَجَعَ النَّبِيُّ إِلَى الإِلَهِ مُكَرَّراً بَقَتْ خَمْسٌ بِخَيْرِ جَزَاءِ
نَزَلَ النَّبِيُّ وَقَدْ تَحَلَّى بِالْعُلاَ وَأَنَى بِخَيْرِ شَرِيعَةٍ ؟ سَمْحَاءِ
وَالسِّرُّ فِي تَزْوِيدِ مُوسَى أَحْمَداً كَيْ يَسْتَرِيحَ مُحَمَّدُ النُّبَلاَءِ
رَكِبَ النَّبِيُّ مُفَاخِراً بِبُرَاقِهِ جِبْرِيلُ سَارَ بِهِ بِغَيْرِ ثَنَاءِ

وصفُ العير :

نَظَراً « لِعِيرٍ » فِي الطَّرِيقِ فَإِذْ بِهِ هُوَ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَدْرُنَا بِنِدَاءِ[4]
قَالُوا لِذَلِكَ صَوْتُ « طَهَ أَحْمَدٍ » وَاللَّهُ خَصَّصَهُمْ مِنَ الشُّهَدَاءِ
عَرَفَ « النَّبِيُّ » صِفَاتِ عِيرِهِمُ لِكَيْ يَجْلِي قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَصْدَاءِ

(١) الكيف : الهيئة والصورة . المرية : الشك .
(٢) الصهباء : اسم من أسماء الخمر .
(٣) الآلاء : النعم . المحفوف : المحاط .
(٤) العير : القافلة .

[illegible]

ذَهَبَ « النَّبِيّ » إِلَى فَقْرِ مَقَامِهِ ... وَمَكَانُهُ بِحَرَارَةِ البَرْحَاءِ[1]

لَمَّا بَدَا فَلَقُ الصَّبَاحِ بِنُورِهِ ... وَأَتَى - أَبُو جَهْلٍ أَبُو الجُهَلَاءِ

قَصَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ خَبَراً صَادِقاً ... فَأَتَاهُ بِالآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ

حَقّاً « أَبُو جَهْلٍ » لَهُ الجَهْلُ انْتَمَى ... جَهْلُ المَعَارِضِ ذَاكَ أَفْحَشُ دَاءِ

قَدْ كَذَّبُوهُ سِوَى « أَبِي بَكْرٍ » فَقَدْ ... وَافَاهُ بِالتَّصْدِيقِ وَالإِصْغَاءِ

حُجَّتُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ :

قَدْ لَقِيُوكَ « أَمِينَهُمْ » يَا مُصْطَفَى ... مُذْ كُنْتَ طِفْلاً صَادِقَ الأَنْبَاءِ

فَعَلَامَ قَامُوا يَنْقُضُونَ كَلَامَهُمْ ؟ ... عَجَباً ! يَجِيءُ البَرْءُ بِالأَشْفَاءِ ؟[2]

إِسْتِشْهَادُ النَّبِيِّ بِعِيرِهِمْ :

قَالُوا : بَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ مَقَالُهُ ... فَأَجَابَهُمْ : يَأْتِيكُمُو نُصَرَائِي

يَأْتِيكُمُو « عِيرٌ » لَكُمْ هُوَ نَاظِرِي ... فَسَلُوهُ يُخْبِرْكُمْ بِنِي الأَنْبَاءِ

تَأْخِيرُ غُرُوبِ الشَّمْسِ لِتَأَخُّرِ العِيرِ عَنْ مِيعَادِهِ :

جَلَسُوا لِمَقْدِمِ « عِيرِهِمْ » فَتَأَخَّرَتْ ... وَالشَّمْسُ قَدْ حَانَتْ إِلَى الإِخْفَاءِ

فَدَعَا « النَّبِيُّ » إِلَى « الإِلَهِ » فَرَدَّهَا ... حَتَّى أَتَى « عِيرٌ » لَهُمْ بِوَلَاءِ

قَالُوا : رَأَيْنَا رَكْبَهُ لَيْلاً سَرَى ... قَطَعُوا لِسَانَ الزُّورِ لِلجُهَلَاءِ

خَتْمُ تَعْجِيزِهِ :

قَالُوا : لَهُ صِفْ يَا « مُحَمَّدُ » مَا رَأَتْ ... عَيْنَاكَ فِي « بَيْتٍ » بِالاسْتِزْرَاءِ

خَجِلَ « النَّبِيُّ » إِذَا « بِجِبْرِيلَ » أَتَى ... بِالبَيْتِ بَيْنَ « يَدَيْهِ » كَاللَّأْلَاءِ[3]

وَصَفَ النَّبِيُّ « البَيْتَ المُقَدَّسَ » غَيْرَهُ ... عَجَباً لِمُعْجِزَةٍ ذَلِيلٍ بَرَاءِ

كَيْفَ كَانَ الإِسْرَاءُ وَالمِعْرَاجُ ؟

قَالُوا : بِأَنَّكَ كُنْتَ فِي سِنَةِ الكَرَى ... وَسَرَيْتَ ثُمَّ عَرَجْتَ فِي إِغْفَاءِ[4]

قَدْ كُنْتَ يَقْظَانَاً بِجِسْمِكَ سَارِياً ... لَكِنْ رَجَعْتَ بِسُرْعَةِ الوَجْنَاءِ[5]

(١) البرحاء : المبارحة . (٢) الأشفاء : الأهلاك . (٣) النور الساطع .
(٤) النوم الخفيف . (٥) الناقة السريعة .

رد على معجز :

إِنْ كَانَ هَذَا يَسْتَحِيلُ وُجُودُهُ ... فَلِغَيْرِ « أَحْمَدَ » سَيِّدِ الغَبْرَاءِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ « إِسْرَاؤُهُ » وَ « عُرُوجُهُ » ... مِنْهُنَّ رِيباً مَا حَظِّي بِبَهَاءِ

فَاذْعَنْ بِمُعْجِزَةٍ تَخُصُّ « بِأَحْمَدَ » ... نُورِ البَسِيطَةِ دَوْحَةِ الزَّهْرَاءِ

وَقَدِ انْتَهَى « مِعْرَاجُهُ » فَلْتُؤْمِنُوا ... وَلْتُقَلِّلُوهُ مُرَتِّباً بِبِنَائِي

تَضَرُّعِي وَتَوَسُّلِي :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي ضَرِيحَ وَسِيلَتِي ... وَمَحَطَّ آمَالِي وَنَجْمَ عُلَائِي

« بَاكُورَةً » مِنِّي وَلَمَّا تَكْتَمِلْ ... عَنْ دَرْكِ هِمَّتِهِ خَبَا إِطْرَائِي

هِيَ مِنْ عَوَاطِفِ وَامِقٍ مُتَوَسِّلٍ ... نَاءَ فَجَاءَ بِهَا كَمَا التَّأْسَاءِ

مِنِّي إِلَى « رُوحِ النَّبِيِّ » تَحِيَّةٌ ... فِي مِدْحَةٍ هِيَ مِنْ ذَلِيلٍ وَلَائِي

لَا عَيْبَ إِنْ نَدَّ الفَصِيحُ فَكَوْنُهَا ... فِي المُصْطَفَى قَدْ زَادَ مِنْ خُيَلَائِي[1]

سَمَاحاً وَعُذْراً :

« مَوْلَايَ » عُذْراً فِي سَمَاحٍ إِنَّنِي ... لَكَ جَدُّ مُشْتَاقٍ وَتِلْكَ عَزَائِي

مَالِي وَمَدْحُ « أَبِي المَكَارِمِ » كُلِّهَا ... مِنْ أَلِفِهَا حَتَّى انْتِهَاءِ البَاءِ[2]

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ صُحْبَةَ آلِهِ ... وَالصَّحْبِ وَالأَحْبَابِ وَالخُلَصَاءِ

مَا أَشْرَقَتْ شَمْسٌ وَمَا قَالَ الفَتَى ... « يَا لَيْلَةَ المِعْرَاجِ وَالإِسْرَاءِ »

(١) ند : شرد .
(٢) المعنى أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمكرمة لم يأت بها النبي ﷺ كما لا يمكن أن يزيد على أحرف الهجاء .

الإسراء في شعر « البوصيري »

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي حَدِيثِ « الإِسْرَاءِ » قَوْلُ « صَاحِبِ الْبُرْدَةِ » :

« يَا خَيْرَ مَنْ يَسَّمَ[1] الْعَافُونَ[2] سَاحَتَهُ
سَعْياً وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ[3]

وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ
وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ
كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ[4] لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تَرَمِ

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا
وَالرُّسْلُ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ
فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ

حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ
مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ[5]

خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ
نُودِيتَ بِالرَّفْعِ[6] مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

---

(١) « يَسَّمَ » : « قَصَدَ » .

(٢) « الْعَافُونَ » : جمع عافٍ ، وهو طالب الرزق .

(٣) « الأَيْنُقِ الرُّسُمِ » : النياق التي ترسم الأرض أي تعلمها .

(٤) اقتباس من الآية الكريمة : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] .

(٥) « الْمُسْتَنِمُ » : طالب الرفعة إلى السنام ، وهو أعلى الشيء .

(٦) بالإضافة إلى مقامك . و « الرَّفْعُ » : : « الارتفاع » . وفيه تورية برفع الإعراب عند النحاة.

كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَيَّ مُسْتَبِرٍ
عَنِ الْعُيُونِ وَسِرٍّ أَيَّ مُكْتَتِمِ

فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ
وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحِمِ

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ
وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا
مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ

لَمَّا دَعَا اللهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ
بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ » [1]

---

(١) ديوان البوصيري [٢٤٥ – ٢٤٦] .

١ – عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[١].

٢ – زاد فى رواية : « لما كذبنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس .. » نحوه[٢] .

٣ – وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : « أتى رسول الله ﷺ ليلة أسرى به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن ، فنظر إليهما ، فأخذ اللبن ، قال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك »[٣].

---

(١) أخرجه البخارى [٣٨٨٦، ٤٧١٠] وأخرجه مسلم [٢٧٦/١٦٩] .
والترمذى رقم [٣١٣٣] ، والنسائى فى الكبرى[١١٢٨٢] من طريق الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله به .
ومعنى « جلى الله لى بيت المقدس » كشف الحجب بينى وبينه حتى رأيته .
قال أبو محمد بن أبى حمزة : الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء : إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده ؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك ، فلما أخبرهم بها حصل لتحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس فى ليلة ، وإذا صح خبره فى ذلك لزم تصديقه فى بقية ماذكره فكان ذلك زيادة فى إيمان المؤمن ، وزيادة فى شقاء الجاحد والمعاند انتهى ملخصا . كتاب « بهجة النفوس » لابن أبى جمرة [٥١٢/٣] . فتح البارى [٩٩/٧-٦٠٠] بتصرف .
(٢) أخرجه البخارى [٤٧١٠] ، وأخرجه أحمد فى المسند [٣٧٧/٣] .
(٣) أخرجه البخارى [٤٧٠٩] . –

٤ - وعن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة رضى الله تعالى عنه أن نبى الله ﷺ حدثه عن ليلة أسرى به قال : « بينما أنا فى الحطيم - وربما قال فى الحجر - مضطجعًا ، إذ أتانى آت فقدّ - قال : وسمعته يقول : فشق - ما بين هذه إلى هذه - فقلت للجارود وهو إلى جنبى : ما يعنى به ؟ قال : من ثغرة نحره إلى شعرته - وسمعته يقول : من قصه إلى شعرته - فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا ، فغسل قلبى ، ثم حشي ، ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض - فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم ، يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحملت عليه .

فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح . فلما خلصت ، فإذا فيها آدم . فقال : هذا

= وقال القرطبى : يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ، ويشق أمعاءه ، والسر فى ميل النبى ﷺ إليه دون غيره ؛ لكونه كان مألوفًا له ولأنه لا ينشأ عن جسمه مفسدة . اهـ . فتح البارى [٧/٦١٧] .

وقال ابن حجر : والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عُرج به رأى فى تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد ، والراكع فلا يسجد ، والساجد فلا يقعد ؛ فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها فى كل ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص ، أشار إلى ذلك ابن أبى جمرة ، اهـ

فتح البارى [٧/٦١٩] .

قلت : وما أشار إليه ابن أبى جمرة من عبادة الملائكة أخرجه ابن نصر فى « الصلاة » [٢٦٠] من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝ ﴾ [الصافات] وذكره الألبانى فى الصحيحة رقم [١٠٥٦] وقال : إسناده حسن فى الشواهد .

أبوك آدم ، فسلّم عليه . فسلمت عليه ، فرد السلام ثم قال : مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح . قيل : من هذا؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا خالة . قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما . فسلمت ، فردا ، ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح . فلما خلصت إذا يوسف . قال : هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت فإذا إدريس قال : هذا إدريس فسلم عليه . فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة ، فاستفتح . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد ﷺ . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء . فلما خلصت ، فإذا هارون . قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قال : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا موسى . قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح . فلما

تجاوزت بكى ، قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلامًا بعث بعدى ، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى .

ثم صعد بى إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم .

قال : مرحبًا به ، ونعم المجيء جاء . فلما خلصت ، فإذا إبراهيم . قال : هذا أبوك فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ، فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

ثم رفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن ، فقال : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك .

ثم فرضت علىَّ الصلاة : خمسين صلاة كل يوم .

فرجعت ، فمررت على موسى ، فقال : بم أُمرت ؟ قال : أُمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين كل يوم ، وإنى واللَّه قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت ، فوضع عنى عشرًا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت ، فوضع عنى عشرًا . فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أُمرت ؟ قلت : بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإنى قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله

التخفيف لأمتك ، قال : سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم ، قال : فلما جاوزت ، نادى مناد : أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادي »[1].

٥ – وفى رواية : « بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان – وذكر ، يعنى رجلاً بين الرجلين – فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيمانًا ، فشق من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم ، ثم ملئ حكمة وإيمانًا... » ثم ساق نحوه . وحين ذكر البيت المعمور قال : « فسألت جبريل فقال : يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها كأنه قلال هجر ، وورقها كأنه آذان الفيلة... » قال فى آخره : « فنودى : إنى قد أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى ، وأجزى الحسنة عشراً »[2].

٦ – وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] قال : هى رؤيا عين ، أُريها رسول اللَّه

---

(١) أخرجه البخارى [٣٨٨٧] ، ومسلم [٢٦٥/١٦٤] ، والترمذى [٣٣٤٦] . والنسائى فى الكبرى [٣١٣] من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة به . شرح الغريب : ١ من قصه إلى شعرته « قَصَه : بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة : أى رأس صدره ، « شعرته » بكسر الشين المعجمة أى شعر العانة .

« فغسل قلبي » فى رواية مسلم « فاستخرج قلبى فغسل بماء زمزم » وفيه فضيلة ماء زمزم على جميع المياه ، قال ابن أبى جمرة : وإنما لم يغسل بماء الجنة لما اجتمع فى ماء زمزم من كون أصل مائها من الجنة ثم استقر فى الأرض فأريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ فى الأرض . اهـ .

فتح البارى (٧/٦٠٤) بتصرف .

قلت : ولست أدرى على أى شيء استند ابن أبى جمرة فيما قال من أن ماء زمزم أصلها من الجنة !!

(٢) أخرجه البخارى [٣٢٠٧] .

[illegible] إلى بيت المقدس . قال : والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم[1].

٧ – وعن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا ، فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح . قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل . قال هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد ﷺ فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم فلمّا فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا رجل قاعد ، على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكى ، فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح ،

---

(١) أخرجه البخاري [٤٧١٦] . وقال ابن حجر : زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث : « وليست رؤيا منام » .

وقال : واستدل به على إطلاق لفظ الرؤيا على ما يرى بالعين في اليقظة وقد أنكره الحريري تبعًا لغيره وقالوا : إنما يقال رؤيا في المنام ، وأما التي في اليقظة فيقال : رؤية . وممن استعمل الرؤيا في اليقظة المتنبي في قوله : « ورؤياك أحلى في العيون من الغمض » وهذا التفسير يرد على من خطأه . ا.هـ . فتح الباري [٨/٢٥٠] .

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري [٨/١٠٣] : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسري به . قال : وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك ، وإياه عنى الله عز وجل بها ، فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام ، وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس ، إلا فتنة للناس ، يقول : إلا بلاءً للناس الذين ارتدوا عن الإسلام ، لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا لسماعهم ذلك من رسول الله ﷺ تماديًا في غيهم ، وكفرًا إلى كفرهم. ا.هـ .

قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى .

حتى عرج بي إلى السماء الثانية ، فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنها مثل ما قال الأول . ففتح . قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ، ولم يثبت « يعني أباذر » كيف منازلهم . غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السادسة .

قال أنس : فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال : « مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس ، ثم مررت بموسى فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى ثم مررت بعيسى فقال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم عليه السلام » .

قال ابن شهاب : فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان : قال النبي ﷺ : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » . قال ابن حزم وأنس ابن مالك : قال النبي ﷺ : « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ، فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة ، قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعني ، فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى ، قلت : وضع شطرها . فقال : ارجع إلى ربك ؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعت ؛ فوضع شطرها . فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته . فقال : هي خمس وهي خمسون ، لا يبدل القول لديّ ، فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك ، فقلت : استحييت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة

المسهى ، وغشيها ألوان لا أدرى ما هى ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك »[1] .

٨ – وعن شريك بن عبد الله أنه قال : سمعت ابن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة ، أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة . فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى ، فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه ، حتى احتملوه ،فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق ما بين نحره إلى لبته ،حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده ،حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب ،فيه تور من ذهب ، محشوا إيمانا وحكمة ، فحشا به صدره ولغاديده – يعنى عروق حلقه – ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا .

فضرب بابا من أبوابها ،فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : معى محمد ، قال : وقد بعث ؟ قال : نعم.قالوا : فمرحبا به وأهلا ، فيستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض

(١) أخرجه البخارى [٣٤٩،٣٤٢] ، وأخرجه مسلم [٢٦٣/١٦٣] ، وأخرجه النسائى فى الكبرى [٣١٤] عن الزهرى عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : .... فذكره .
شرح الغريب : « فقرج صدري » هو بفتح الفاء والجيم أى شقه .
« ثم جاء بطست » بفتح الطاء وبكسرها إناء معروف : وخص بذلك لأنه آلة الغسل غرفا وكان من ذهب لأنه أعلى أوانى الجنة . راجع الفتح : [٥٤٩/١] .
« فوضع شطرها » المراد به هنا البعض وذلك ليتناسب مع سائر الروايات .

حتى يعلمهم ، فوجد فى السماء الدنيا آدم ،فقال له جبريل : هذا أبوك ، فسلم عليه ، فسلم عليه : ورد عليه آدم ، وقال : مرحبا وأهلا بابنى ، نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان . فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات عنصرهما .

ثم مضى به فى السماء ، فإذا هو بنهر آخر ، عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده ،فإذا هو مسك أذفر ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك[1] .

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝ ﴾ [الكوثر] .
عن أنس ؛ قال : بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة . ثم رفع رأسه مبتسما . فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ! قال : « أنزلت على آنفا سورة » فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝ ﴾ ثم قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ » فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل . عليه خير كثير . هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة . آنيته عدد النجوم . فيختلج العبد منهم . فأقول : رب ! إنه من أمتى . فيقول : ما تدرى ما أحدثت بعدك » . أخرجه مسلم [٤٠٠/٥٣] .
وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : لما عُرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال : « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوّفه ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : « هذا الكوثر » . أخرجه البخارى [٤٩٦٤] .
وعن أبى عبيدة عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قالت نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه درٌ مجوّف آنيته كعدد النجوم » .
أخرجه البخارى [٤٩٦٥] .
ولمزيد من الاستفادة انظر : « مرويات الصحابة فى الحوض والكوثر » وتشتمل على ثلاث رسائل :
١ – ما روى فى الحوض والكوثر ، جمعها الإمام بقى بن مخلد القرطبى .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى . من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحبا به وأهلا.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، وقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى الرابعة ، فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فقالوا مثل ذلك . ثم عرج به إلى السماء السادسة ، فقالوا له مثل ذلك ، ثم عُرج به إلى السماء السابعة ، فقالوا له مثل ذلك . كل سماء فيها أنبياء قد سماهم ، فوعيت منهم : إدريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بفضل كلامه لله . فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحداً (١) .

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى : خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .ثم هبط حتى بلغ موسى ، فاحتبسه

= ٢ – الذيل على جزء بقي بن مخلد في الحوض والكوثر ، للحافظ أبي القاسم ابن بشكوال .

٣ – المستدرك في أحاديث الحوض والكوثر ، جمعها عبد القادر بن محمد عطا صوفي .

(١) قال الحافظ في قوله : « نقال موسى ربي لم أظن أن ترفع على أحدًا » كذا للأكثر بفتح المثناة في ترفع واحدًا بالنصب ، وفي رواية الكشميهني « أن يرفع » بضم التحتانية أوله وأحد بالرفع .

قال ابن بطال : فهم موسى من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر لقوله : ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] . إن المراد بالناس هنا البشر كلهم وأنه استحق بذلك أن لا يرفع أحد عليه ، فلما فضّل الله محمدًا عليه ، عليهما الصلاة والسلام ؛ لما أعطاه من المقام المحمود وغيره ، ارتفع على موسى وغيره بذلك .

فتح الباري [١٥/٤٥٤] .

موسى ، فقال : يامحمد ،ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع ، فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل ، كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار إليه جبريل : أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار ، فقال وهو مكانه : يا رب ، خفف عنا ، فإن أمتي لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ، ثم رجع إلى موسى ، فاحتبسه ، فلم يزل يردده موسى إلى ربه ، حتى صارت إلى خمس صلوات .

ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد ، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا ،فتركوه ،فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا ،فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل . فرفعه عند الخامسة ، فقال : يا رب إن أمتي ،ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم ، فخفف عنا ، فقال الجبار : يا محمد . قال : لبيك وسعديك ، قال : إنه لا يبدل القول لديَّ ، كما فرضت عليك في أم الكتاب.قال : فكل حسنة بعشر أمثالها ،فهي خمسون في أم الكتاب ،وهي خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت؟ فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : يا موسى ، قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه ، قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام(١).

(١) أخرجه البخاري [٧٥١٧] .

قال ابن كثير : هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي ﷺ عن سليمان بن بلال ، ورواه مسلم عن سليمان فزاد ونقص وقدّم وأخر ، وقال مسلم : فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه ، ثم قال : ومنهم من يجعل هذا مما توطأ له وقع بعد ذلك .

تفسير ابن كثير [٤/٣] . =

= وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل يعني قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ الجبار رب العزة ﴿ فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨،٩] .

قال : وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل أصح . وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق ؛ فإن أبا ذر قال يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال : « نور أنى أراه » . وفي رواية : « رأيت نورا » . رواه مسلم [١٧٨/٢٩١] . ا.هـ

وقال الخطابي : ليس في هذا الكتاب – يعني صحيح البخاري – حديث أشنع ظاهرا ولا أشنع ملتقا من هذا الفصل ، فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما ، هذا إلى ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من فوق إلى أسفل ، فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعا من غيره ولم يعتبره بأول القصة وآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه ، وكان قصاره : إما رد الحديث من أصله ، وإما الوقوع في التشبيه ، وهما خطتان مرغوب عنهما ، وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال فإنه يصرح فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله : « وهو نائم » . وفي آخره : « استيقظ » . وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معنى التعبير في مثله ، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك ، بل يأتي كالمشاهدة .

قلت : وهو كما قال ، ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقول في الحديث الصحيح : إن رؤيا الأنبياء وحي ، فلا يحتاج إلى تعبير ؛ لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل ، فقد تقدم في « كتاب التعبير » أن بعض مرأى الأنبياء يقبل التعبير ، وتقدم من أمثلة ذلك قول الصحابة له ﷺ في رؤية القميص فما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين ، وفي رؤية اللبن : قال : العلم ، إلى غير ذلك لكن جزم الخطابي بأنه كان في المنام متعقب بما تقدم تقريره قبل . ثم قال الخطابي مشيرا إلى رفع الحديث من أصله بأن القصة إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه لم يعزها إلى النبي ﷺ ولا نقلها عنه ولا أضافها إلى قوله ، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي إما من أنس وإما من شريك ، فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة . انتهى . =

= وما تناه من أن أنسا لم يسنده هذه القصة إلى النبي ﷺ لا تأثير له ، فأدنى أمره فيه أن يكون مرسل صحابي ، فإما أن يكون تلقاها عن النبي ﷺ أو عن صاحبي تلقاها عنه ، ومثل ما اشتملت عليه لا يقال بالرأي فيكون لها حكم الرفع ، ولو كان لما ذكره تأثير لم يحمل حديث أحد روى مثل ذلك على الرفع أصلا .

ثم قال الخطابي : والذي وقع في هذه الرواية من نسبة التدلي للجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير من تقدم منهم ومن تأخر . ا.هـ .

قال : والذي قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه دنا جبريل من محمد ﷺ فتدلى أي تقرب منه ، وقيل : هو على التقديم والتأخير : أي تدلى فدلانا ، لأن التدلي بسبب الدنو .

الثاني : تدلى له جبريل بعد الانتصاب والارتفاع حتى رآه متدليا كما رآه مرتفعا ، وذلك من آيات الله حيث أقدره على أن يتدلى في الهواء من غير اعتماد على شيء ولا تمسك بشيء .

الثالث : دنا جبريل فتدلى محمد ﷺ ساجدا لربه تعالى شكرا على ما أعطاه .

قال وقد روى هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك فلم يذكر فيه هذه الألفاظ الشنيعة ، وذلك مما يقوي الظن أنها صادرة من جهة شريك . انتهى .

وقد أخرج الأموي في مغازيه ومن طريقه البيهقي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] قال : دنا منه ربه . وهذا سند حسن وهو شاهد قوي لرواية شريك .

ثم قال الخطابي : وفي هذا الحديث لفظة أخرى تفرد بها شريك أيضا لم يذكرها غيره وهي قوله : فعلا به – يعني جبريل – إلى الجبار تعالى فقال وهو مكانه : يا رب ، خفف عنا . قال : والمكان لا يضاف إلى الله تعالى إنما هو مكان النبي ﷺ في مقامه الذي قام فيه قبل هبوطه . انتهى .

وهذا الأخير متعين وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلى الله تعالى ، وأما ما جزم به من مخالفة السلف والخلف لرواية شريك عن أنس في التدلي ففيه نظر ، فقد ذكرت من وافقه ، وقد نقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال : « دنا الله سبحانه وتعالى » . =

قال : والمعنى دنا أمره وحكمه ، وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه ، قال : وقيل : تدلى الرفرف لمحمد ﷺ حتى جلس عليه ، ثم دنا محمد من ربه . انتهى .

فتح الباري [١٥/٤٥٥].

وقال ابن حجر في الفتح [١٣/٤٨٧] قال الأئمة : هذه الآية يعني قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] أقوى ما ورد في الرد على المعتزلة ، قال النحاس : أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا فإذا قال : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التي تعقل .. ثم قال : وهو لرفع المجاز عن النسبة ؛ لأنه قد نسب الكلام فيها إلى الله فهو المتكلم حقيقة ويؤكده قوله في سورة الأعراف : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وأجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن « كلم » هنا من الكلام . ا.هـ

شرح الغريب :

قوله : « فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته » اللبة بفتح اللام وتشديد الموحدة : موضع القلادة من الصدر .

فتح الباري [١٥/٤٥٦،٤٥٣] .

وقوله : « لغاديده » بغين معجمة قال أهل اللغة : هي اللحمات التي بين الحنك وصفحة العنق أحدها لغدود ولغديد ، ويقال له أيضًا : لغد ، وجمعه : ألغاد .

عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين . ثم خرجت . فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل : قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا . فإذا أنا بآدم . فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثانية . فاستفتح جبريل عليه السلام . فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء – عليهما السلام – فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطي شطر الحسن ، أي نصفه : ومن الناس من يعطى عشره أو دونه ، أو فوقه ، قال : فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير . قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله . فإذا أنا بهارون – عليه السلام– فرحب بي ودعا لي بخير ،ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ... فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج إلى السماء السابعة ... فذكر مثله فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال : فلما غشيها من

أمر الله ما غشي تغيرت أي : تلونت بألوان مختلفة – فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها . قال : فأوحى الله إليّ ما أوحى . ففرض عليّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك . فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب،خفف على أمتي.فحط عني خمسا ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمسا. قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ،قال : فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال : يا محمد ! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة . لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة . ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كُتبت له عشرًا. ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا وفي رواية : كتبت حسنة فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله ﷺ فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه »[1].

(١) أخرجه مسلم [٢٥٩/١٦٢] واللفظ له . والبخاري [٣٨٨٧] .

قال ابن الدُبَيْثي الشيباني : وفي قوله : بالحلقة التي يربط به الأنبياء إشارة إلى أن ركوب البراق في الإسراء غير مختص بمحمد ﷺ ويشير إلى ذلك قوله في الرواية الآتية : « فما ركبك عبد أكرم على الله من محمد » . لكن في ظاهر قول : أهل كل سماء : « وقد بعث إليه ؟ » إشكال لعدم علمهم ببعثه إلا بعد مضي هذه المدة مع كثرة تردد جبريل فيها وانتشارها عند أهل الأرض ، فضلا عن أهل السماء ، وأجاب بعضهم : بأنه سؤال عن البعث إليه للعروج متوقع عندهم لقوله : « إليه » وهو جواب حسن ، وإنما لم يفتح له قبل مجيئه ليعلم أنما فتح من أجله كما في قوله ﷺ : « أنا أول من يقرع باب الجنة »[1] .

والحكمة في الإسراء به إلى بيت المقدس ما ذكره كعب الأحبار أن باب السماء الذي يسمى مصعد الملائكة يقابله بيت المقدس ، كما أن البيت المعمور مقابل الكعبة أيضا ؛ ليحوز ﷺ فضيلة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة[2] .

وقوله : « يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » ،يحتمل أنهم أيضا لايخرجون منه ،فيكون في ذلك دلالة على سعته ،وعلى كثرة جنود الله تعالى . والله أعلم بالصواب .

وعندهما أن كل نَبِيٍّ قال : « مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ،إلا آدم وإبراهيم – عليهما السلام – فقالا له : والابن الصالح » .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٣١/١٩٦] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه .
(٢) إشارة لقوله ﷺ : « لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ ، والمسجد الأقصى » . أخرجه البخاري [١١٨٩] واللفظ له ، ومسلم [٥١١/١٣٩٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

والظاهر أيضا أن اختصاص من لقيه فى كل سماء ، وهم : آدم ، وعيسى ، ويوسف وإدريس ، وهارون ، وموسى ، وإبراهيم ، بحسب تفاوتهم فى الدرجات .

فآدم فى سماء الدنيا ؛ لأنه أول الأنبياء ، ثم عيسى فى الثانية ، لأنه أقرب الأنبياء عهدا بمحمد ، ويوسف فى الثالثة ؛ لأن أمة محمد يدخلون على صورته ، وإدريس فى الرابعة ؛ لأنها الوسطى وقد رفعه الله مكانا عليا . وهارون فى الخامسة ؛ لقربه من أخيه موسى ، وموسى فى السادسة ؛ لفضله بالتكليم ، وإبراهيم فى السابعة ؛ لأنه أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ ، وعليهم أجمعين .

والظاهر من اختصاص مراجعة موسى كونه أشبه الرسل به فى كثرة الأتباع ، وشرف الكتاب ، والله أعلم .

عند سدرة المنتهى :

وفى رواية : « فغشيها ألوان لا أدرى ما هى ؟ ثم أدخلت الجنة » .

قال الله تعالى : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ ﴾ [النجم] .

وفى أخرى : « وانتهى بى إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها وإليها ينتهى ، ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال تعالى : ، ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ . قال : فراش من ذهب » .

وفى ثالثة : « هذه السدرة المنتهى ينتهى إليها كل أحد من أمتك ، خلا على سبيلك ، وهى السدرة المنتهى » .

وفى رابعة : « يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى[1] ،

(١) إشارة لقوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ١٥] .

وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما ، وأن ورقة منها مُطِلَّةٌ الخلق ، فغشيها نور ، وغشيتها الملائكة » .

وفى خامسة : « ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » .

وفى سادسة : أن جبريل لما جاء بالبراق فذهب ليركب ، فاستعصت عليه ، فقال لها جبريل : اسكتى ، فوالله ! ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد ﷺ فركبها حتى أتى بها الحجاب الذى يلى عرش الرحمن . فبينما هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب ، فقال النبى ﷺ « من هذا يا جبريل ؟! قال : والذى بعثك بالحق نبيا ، إنى لأقرب الخلق مكانا ، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه ، فأذن الملك وأقام ، وأخذ بيد محمد ﷺ فقدمه فصلى بأهل السماء ، وفيهم أرواح الأنبياء عليهم السلام ثم قال محمد : « يا رب ! إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته مُلْكًا عظيما ، وكلَّمت موسى تكليما . وآتيت داود الملك والحكمة ، وألَنْتَ له الحديد ، وسخَّرت له الجبال يسبحن معه والطير ، ووهبت سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخرت له الريح بأمره رخاء أي : لينة حيث أصاب « أي : قصد » ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ ﴾ [سورة ص] « الأصفاد أى : القيود » وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك ، فقال الله تعالى : يا محمد ! قد اتخذتك خليلا وحبيبا ، فهو مكتوب فى التوراة : « محمد ، حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون بعثا والسابقون يوم القيامة ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك فاتحا وخاتما ، وأعطيتك

السبع المثاني ، أي : الفاتحة وخواتم سورة البقرة ، من كنز تحت عرشي ، ولم أعط ذلك أحدا من خلقي » .

والحكمة في ركوب البراق مع قدرة الله تعالى على تقريب المسافة له إكرامه بما جرت به العادة مع خرقها ، إذ الملوك يعتون لمن استدعوه بمركوب .

وجزم جماعة من المحققين بأنه لم يجاوز سدرة المنتهى أحد إلا محمد ﷺ ويؤيده قوله : « فأتيت بإناء من لبن وإناء من خمر .

زاد في الصحيحين : « وإناء من عسل » . وفي آخر للبزار : « وإناء من ماء » .

قلت : وبتمام الأربعة يعلم أنه أتى من كل نهر بإناء من الأنهار التي تخرج من أصل سدرة المنتهى المذكورة في الحديث السابق ، ثم في قوله تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ... ﴾ [محمد : ١٥] ، والله أعلم .

وفي الصحيحين[1] عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لما عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى ودنا الجبار – رب العزة – فتدلى ، حتى كنت منه قاب قوسين أو أدنى ، قاب أي : قدر – فأوحى إليَّ بما شاء » .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال : « فارقني جبريل فانقطعت عني الأصوات ، فسمعت كلام ربي جل وعلا يقول : ليبلغ روعك ، أي : ليسكن خوفك ، ادنُ يا محمد ! ادن » .

وفي البخاري[2] عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لما عرج بي إلى السماء بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوَّف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟! » قال : « هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه مسك أذفر » .

(١) أخرجه البخاري [٧٥١٧] .

(٢) أخرجه البخاري [٤٩٦٤] .

وفي حق بني عاوية من بني سعد بن . رسول الله ﷺ : « ما خرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟! قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » .

وروى الترمذي في جامعه[2] ، وقال : حديث حسن.عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم –عليه السلام– ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد ! أقرئ أمتك مني السلام – عليه وعلى نبينا السلام – وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غِراسَها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وروى الطبراني بإسناد حسن ،والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين . عن النبي ﷺ قال : « لما دخلت الجنة أتيت على قصر من ذهب مربع مشرف ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب »[3] .

ثم قال رسول الله ﷺ : من قرأ بعد كل صلاة مكتوبة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إحدى عشرة مرة بنى الله له قصرا في الجنة . ومن قرأها عشرين بنى الله له قصرين في الجنة ، فقال عمر بن الخطاب : إذن نكثر قصورنا يا رسول الله ! . قال : « فضل الله أوسع من ذلك »[4].

(١) أخرجه أبو داود [٤٨٧٨] ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٤٠٨٢] .

(٢) أخرجه الترمذي [٣٤٦٢] وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي [٢٧٥٥] .

(٣) أخرجه مسلم [٢٣٩٤] عن جابر بلفظ : « دخلت الجنة فرأيت فيها دارًا أو قصرًا ، فقلت لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب فأردت أن أدخل ، فذكرت غيرتك » فبكى عمر وقال : أي رسول الله أَوَ عليك يُغار ؟!

(٤) أخرجه أحمد في المسند [٤٣٧/٣] عن أنس الجهني بلفظ : « من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة » . فقال عمر بن الخطاب : إذن نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكثر وأطيب » وأخرجه =

في الصحيحين ... حدثني قريش فمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

وفي رواية : « ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها ، ثم أصبحت فأخبرت قريشًا : فلقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من وصف بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثله قط ، فجلى الله لي بيت المقدس ... » إلى آخره .

وفي رواية للإمام أحمد[2] : « فجيء بالمسجد الأقصى وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل فَتَتَهُ ، وأنا أنظر إليه » .

قال العلماء : وهذا أبلغ من كشف الحجب التي بين الحرم والقدس ؛ لأنه نظير إحضار عرش بلقيس لسليمان في طرفة عين .

قلت : وذلك بطريق انزواء الأرض بأن تنقبض أجزاؤها حتى يصير الموضع الذي فيه بيت المقدس بمكة؛ ومن ذلك قوله ﷺ : « زويت لي الأرض »[3].

وفي رواية : [4] فقيل لأبي بكر : إن محمدًا يزعم أنه بلغ بيت المقدس ، ورجع ، فقال : « إنا نصدقه في نزول الوحي في طرفة عين ، فأنزل الله في أبي بكر : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] » .

- الدارمي [٢٤٢٤] ، وقال الهيثمي في المجمع [١٤٨/٧] : رواه الطبراني وأحمد ، وفي إسنادهما رشدين بن سعد وزبان وكلاهما ضعيف وفيهما توثيق لين .

(١) أخرجه البخاري [٤٧١٠] ، ومسلم [١٧٠] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

(٢) أخرجه أحمد في المسند [٣٠١/١] عن ابن عباس ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٨٢٠] .

(٣) أخرجه مسلم [٢٨٨٩] عن ثوبان بلفظ : « إن الله زوى لي الأرض ... » الحديث .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك [٦٦/٣] عن عائشة بلفظ : لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة =

وأنزل سبحانه في تصديق نبيه ﷺ وتنزيهه عما نسبوه إليه في ذلك من الغي والضلال والهوى قوله : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم] فأقسم تعالى بالنجم وهو « الثريا » ﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ « أي : سقط للغروب » على نفي الضلال عنه ﷺ والغي المستلزم ؛ لإثبات الهدى ، والرشد ، وعلى صدقه فيما أخبر ، ونفى النطق عن الهوى ، وأن ذلك وحيًا يوحى إليه من الله سبحانه ، علمه إياه جبريل شديد القوى .

ثم لما كان ما أوحي إليه في تلك الليلة من عظيم ملكوته لا تحيط به العبارة ومز إليه بالإشارة فقال : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] .

ثم أخبر عن تصديق فؤاده - وهو قلبه - بما رأى بصره من آيات ربه الكبرى بقوله : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] أي : بما رآه البصر .

وعن حسن أدبه ، وعدم التفات قلبه إلى غير ربه بقوله : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، فقد استقلت هذه الآيات الكريمة على تزكية لسانه ﷺ وبصره وفؤاده ؛ وبقوله : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ .

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أنه قال : رأى محمد ربه بعينيْ رأسه وكلَّمه من غير حجاب .

قال العلماء : ولا يقول ذلك ابن عباس إلا بتوقيف ، فسبيله سبيل المرفوع ، إذ ليس للرأي في هذا مدخل .

= إلى بيت المقدس ؟ قال : أَوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا : أَوَ تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي في التلخيص : صحيح .

وعن كعب الأحبار : أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليهما السلام – ، وكلّمه موسى من وراء الحجاب ، بغير وساطة مرتين ، ورآه محمد بعينيّ رأسه مرتين ، نقله الماوردى عنه [1] .

وقال كثير من العلماء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى : ٥١] : أى من غير واسطة ولا حجاب ، بل مع المشاهدة ، وذلك لمحمد ﷺ خاصة ليلة الإسراء ، قالوا بدليل قوله : ﴿ أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ ؛ كمناجاته لموسى عليه السلام ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ وهو جبريل فيوحى بإذنه إلى رسله ما يشاء ، كأكثر أحوال محمد وموسى عليهما السلام ولسائر أحوال غيرهما من النبيين عليهم السلام أجمعين [2] .

(١) انظر تفسير الماوردى [٥/٣٩٥] .

(٢) قال ابن كثير : هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل كما جاء فى صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »(*) .

وقوله تعالى : ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى عليه السلام فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحُجب عنها . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لجابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما : « ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب وإنه =

(١) ذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٢٠٨٥] وقال صحيح ، وفى تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالى قال : حديث صحيح جاء من طرق : الأول عن ابن مسعود أخرجه الحاكم [٤/٢] . والثانى : عن ابن أبى أمامه . أخرجه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى حلية الأولياء [١٠/٢٢٨] . الثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما فى الترغيب [٣/٧] والهيثمى فى مجمع الزوائد [٤/٧١] فهذه طرق يقوى بعضها بعضا ، ولهذا – والله أعلم – جزم ابن القيم فى « زاد المعاد » بنسبة الحديث إليه ﷺ .

وقال الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى –رحمه الله– : كل آية أوتيها نبى ، فقد أوتى نبينا مثلها وخصه الله بالرؤية ،قال : محمد رأى ربه بعينى رأسه. قال ابن عطاء : أى شرح الله صدره للرؤية كما شرح صدر موسى للتكليم .

قال العلماء : ولا يقدح فى ذلك إنكار عائشة –رضى الله عنها– لذلك؛ لأنها لم تقله إلاعن رأيها ،وأما احتجاجها بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، فقال ابن عباس معناه : لا تحيط به . ولو قيل بإطلاقها لزم منه امتناع رؤيته سبحانه وتعالى فى الآخرة أيضا للإيراد فى دار القرار ، وهو خلاف ما أجمع عليه أهل السنة .

قال العلماء : والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى – عليه السلام– لها ؛ إذ يستحيل أن يجهل نبى ما يجوز على الله ، وما لا يجوز عليه ، ومعنى : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] : لن تطيق رؤيتى ، كما لا يطيق الجبل .

= كلم أباك كفاحًا »(١) كما جاء الحديث وكان قد قُتل يوم أُحد ولكن هذا فى عالم البرزخ ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿ أو يُرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

تفسير ابن كثير [٤/١٢٣،١٢٤] .

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذى [٣٠١٠] بلفظ : « ما كلّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلّمه كفاحًا ... » وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه [١٩٠] ، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٠٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا
مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ
آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾

حدث الإسراء والمعراج واهميته

إن حدث « الإسراء[1] والمعراج » يعتبر حدثاً ضخماً من أحداث الدعوة الإسلامية ، سبقته البعثة ، وجاءت بعده الهجرة ، والأحداث الثلاثة التى تعرضت لها الدعوة الإسلامية هى :

١ – حدث بعثة النبى ﷺ .

٢ – حدث الإسراء .

٣ – حدث الهجرة .

ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ بُعث على فترة من الرسل ، وبُعث بدين خاتم ، وبدين جامع ، يشمل الزمان كله والمكان كله ؛ لأن الرسالات التى سبقته كانت محدودة الزمان ومحدودة المكان ، ولكن الرسالة الإسلامية جاءت عالمية للناس فى كل زمان ، وفى كل مكان .

(١) يقول الراغب الأصفهانى : « سرى » السُرى سير الليل ، يقال : سرى وأسرى . قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ... ﴾ [الإسراء : ١] ، وقيل : إن « أسرى » ليست من لفظة سَرَى يسرى ، وإنما هى من الشراة وهى أرض واسعة ، وأصله من الواو .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ : أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وسراةُ كل شئ أعلاه ، ومنه سراة النهار : أى ارتفاعه .

أما « عرج » : العروج ذهاب فى صعود . قال : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ [الحجر : ١٤] .

وليلة المعراج : سُمّيت لصعود الدعاء فيها إشارةً إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] وعرج عروجاً وتعرّجاناً : مشى مشى العارج ؛ أى الذاهب فى صعود .

مفردات ألفاظ القرآن [٣٤١،٣٢٧] .

واختار الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين أول بيت وضع للناس ليكون هو المكان الذى تنبعث منه الدعوة الإسلامية ، وكما نعرف أن مكة قد أخذت على كل القرى فى الجزيرة العربية مكان الصدارة ومكان السيادة[1] ،

(١) يقول أبو حيان : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران : ٩٦]
روى عن مجاهد . أنه تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ؛ لأنها مهاجر الأنبياء ، وفى الأرض المقدسة .
وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فنزلت . ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة وهو : أنه لما أمر تعالى باتباع ملة إبراهيم ، وكان حج البيت من أعظم شعائر ملة إبراهيم ، ومن خصوصيات دينه ، أخذ فى ذكر البيت وفضائله ليبنى الحج ووجوبه . وأيضا فإن اليهود حين حُوِّلت القبلة إلى الكعبة ، طعنوا فى نبوة رسول الله ﷺ ، وقالوا : بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال ؛ لأنه وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحشر ، وقبلة جميع الأنبياء ، فأكذبهم الله فى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ كما أكذبهم فى دعواهم قبل ، إنما حرم عليهم ما كان محرما على يعقوب من قبل أن تنزل التوراة ، وأيضا فإن كل فرقة من اليهود والنصارى زعمت أنها على ملة إبراهيم ، ومن شعائر ملته حج الكعبة ، وهم لا يحجونها ، فأكذبهم الله فى دعواهم تلك ، والأول هو الفرد السابق غيره . وتقدم الكلام على لفظ أول فى قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾[1] [البقرة : ٤١] ووضع جملة فى موضع الصفة . واختلف فى معنى كونه أول بيت وضع للناس :
فقيل : هو أول بيت ظهر على وجه الماء حين خلقت السموات والأرض ، خلقه قبل الأرض بألفى عام ، وكان زبدة بيضاء على الماء ، فدُحيت الأرض تحته .
وقيل : هو أول بيت بناه آدم فى الأرض .
وقيل : لما أُهبط آدم قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت ، فلقد طفنا قبلك بألفى عام ، وكان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له : الضراح ، فرفع فى الطوفان إلى السماء الرابعة يطوف به ملائكة السموات . =

(١) انظر البحر المحيط [٢٨٦/١] .

= وذكر الشريف أبو البركات أسعد بن على بن أبى الغنائم الحسينى الجوانى الشافعى : أن شيث بن آدم هو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة ، على موضع الخيمة التى كان الله وضعها لآدم من الجنة ، فعلى هذه الأقاويل يكون أول بيت وضع للناس على ظاهره ، وروى عن ابن عباس أنه أول بيت حج بعد الطوفان ، فتكون الأولية باعتبار هذا الوصف من الحج ، إذ كان قبله بيوت ، وروى عن على أنه سأله رجل : أهو أول بيت ؟ فقال على : لا قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة ، فأحد الأولوية بقيد هذه الحال .
وقيل : أول من بناه إبراهيم ، ثم قوم من العرب من جرهم ، ثم هدم فبنته العمالقة ، ثم هدم فبنته قريش . وقال أبو ذر : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت ؛ ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم كان بينهما ؟ قال : « أربعون سنة »[1] وظاهر هذا الحديث أنه من وضع إبراهيم ، وهو معارض لما ذكر فى الأقوال السابقة : إلا أن حمل الوضع على التجديد ، فيمكن الجمع بينهما . وظاهر حديث أبى ذر يضعف قول الزجاج : أن بيت المقدس هو من بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، بل يظهر منه أنه من وضع إبراهيم ، فكما وضع الكعبة وضع بيت المقدس . وقد بين الله أن بين الوضعين أربعين سنة ، وأين زمان إبراهيم من زمان سليمان ؟! ومعنى ﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ : أى متعبداً يستوى فى التعبد فيه الناس ، إذ غيره من البيوت يختص بأصحابها ، والمشترك فيه الناس هو محل طاعتهم ، وعبادتهم ، وقبلتهم .
البحر المحيط [٢٦٧/٣-٢٦٨] .
وأخرج ابن أبى حاتم بسند حسن عن السدى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] أما أول بيت ، فإنه يوم كانت =

(١) أخرجه البخارى [٣٣٦٦] بزيادة : « ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّه ، فإن الفضل فيه » فى آخره ، وأخرجه مسلم [٥٢٠/١] .

وبالتالى فقد أخذ سكانها من قريش مكان السيادة ، والعزة ، والجاه . وكانت هذه السيادة ، ولعزة ، والجاه هى التى تجعل لقريش المهابة فى الجزيرة العربية كلها ؛ لذلك أمِنت رحلاتهم فى الشتاء وفى الصيف أن تتعرض لأية غارة من أية قبيلة من القبائل ، ولأن كل قبيلة من القبائل كانت عرضة أن تفد على مكة المكرمة فى موسم الحج ، فهى إذاً لابد أن تسالم القبيلة التى تسكن هذا البلد ، وأن ترعى تجارتها وألا تتعرض لها بسوء[1] .

= الأرض زبدة على البحر ، فلما خلق الله الأرض خلق البيت معها ، فهو أول بيت وضع فى الأرض . تفسير ابن أبى حاتم [٢/٤٠٢] .

أما لم سميت ١ بكة » ؟ فقد روى عن سعيد بن جبير أنه قال : لأن الرجال يتباكون - أى يزدحمون - فيها والنساء جميعًا . وبنحو المعنى عن مجاهد . ورواه سعيد ابن منصور [٣/١٠٧٠، ١٠٧٣] . بإسناد حسن .

وروى ابن أبى حاتم [٢/٤٠٧] عن محمد بن زيد بن مهاجر بسند صحيح رجاله ثقات أنه قال : « ... إنما سميت بكة لأنها كانت تبك الظلمة » .

وفى النهاية لابن الأثير : [١/١٥٠] « سميت بكة أنها تبك أعناق الجبابرة ، أى تدقها . وقيل : لأن الناس يبك بعضهم بعضًا فى الطواف ، أى يزحم ويدفع .

(١) يقول البغوى : وسموا قريشاً من القرش ، والتقرش : هو التكسب والجمع ، يقال : فلان يقترش لعياله ، ويقترش أى يكتسب ، وهم كانوا تجاراً حرّاصا على جمع المال والإنضمال .

وقال أبو ريحانة [1] : سأل معاويةُ عبدَ الله بن عباس : لم سميت قريش قريشاً ؟ قال : لدابة تكون فى البحر من أعظم دوابه ، يقال لها القرش ، لا تمر بشئ من الغث والسمين إلا أكلته ، وهى تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، قال : وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم ، فأنشده شعر الجمحى : =

(١) انظر : البداية والنهاية [٢/١٨٧-١٨٨] .

هذه السيادة التى أخذتها قريش قد جعلت كلمتها نافذة ، وسلطانها قاهرا على الجزيرة كلها ، وشاء الله سبحانه وتعالى أن تكون بداية الدعوة الإسلامية منطلقة من مكة المكرمة ؛ حتى تكون الدعوة فى أذن هؤلاء السادة ، الذين لهم الجاه ، ولهم العظمة ، ولهم السيطرة ، ولا يمكن لأحد أن يقف أمام جاههم ونفوذهم وسيطرتهم ، فحين تجيء الدعوة الإسلامية من هذه المنطقة ، وحين تواجه الدعوة الإسلامية بهؤلاء القوم الذين لهم هذه المهابة المطلقة ، يكون الله سبحانه وتعالى قد اختار قمة المبادين لهذه الدعوة .

وأما الرسول ﷺ حينما بُعث مرّ بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : أن يعلم هو بأنه رسول .

= وقريش هى التى تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا
سلطت بالعلو فى لجة البحر ... على سائر البحور جيوشا
تأكل الغث والسمين ولا تترك ... فيه لذى الجناحين ريشا

وكانت لهم رحلتان فى كل عام للتجارة ، إحداهما فى الشتاء إلى اليمن ؛ لأنها أدفأ ، والأخرى فى الصيف إلى الشام .

وكان الحرم واديا جدبا لا زرع فيه ولا ضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء ، كانوا يقولون : قريش سكان حرم الله وولاة بيته ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم بمكة مقام ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف ، وشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام ، فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن ، فحملوا الطعام إلى مكة ، أهل الساحل من البحر على السفن ، وأهل البر على الإبل والحمير ، فألفى أهل الساحل بجدة ، وأهل البر بالمحصب ، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألفوا بالأبطح ، فامتاروا من قريب ، وكفاهم الله مؤنة الرحلتين .

تفسير البغوى [٨/٥٤٦، ٥٤٧] .

المرحلة الثانية : أن ينذر من حوله من عشيرته الأقربين .

المرحلة الثالثة : أن ينذر المحيط كله .

وقد هيأ الله سبحانه وتعالى له النجاح فى هذه المراحل ، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب ، وخالق المسببات ، فهو يجعل للأشياء أسباباً فى عرف البشر ، تكون مقدمات لما يريدون من النتائج ، وهذه الأسباب لله سبحانه وتعالى فى غنى عنها ، ومن الممكن أن ينصر دينه بدون أن يجعل له من أسباب البشر ، ولا من مادیات الحياة مقدمات ، ولكن الرسول ﷺ جاء أسوة لأمته ، والأمة المؤمنة كلها مطالبة بامتداد رسالته ﷺ ؛ حتى يجتهد كل مؤمن انقطع عنه وحى السماء فى أن يعدّ أسباب الأرض وأسباب المادة ؛ ليصل إلى منطلقه فيما يريده الله سبحانه وتعالى من تبليغ الدعوة والثبات عليها .

فالحق سبحانه وتعالى حينما أمر محمداً ﷺ أن يجهر بدعوته عاداه القوم عداء بلا حدود [1] ، إلا أن هذا العداء لم يمنع تسرّب هدى الإيمان إلى نفوس

(١) يقول ابن جرير الطبرى فى معنى قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ٱدْعُ ﴾ يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يقول : إلى شريعة ربك التى شرعها لخلقه ، وهو الإسلام ، ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ يقول : بوحى الله الذى يوحيه إليك ، وكتابه الذى ينزله عليك ، ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ يقول : وبالعبر الجميلة التى جعلها الله حجة عليهم فى كتابه ، وذكّرهم بها فى تنزيله ، كالتى عدد عليهم فى هذه السورة من حججه ، وذكّرهم نبأها ما ذكّرهم من آلائه ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يقول : وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى ، ولا تعجله فى القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك . تفسير الطبرى [٤١/١٩٥] .

كثير من الناس من عشيرته ﷺ الأقربين ، ومن قومه الذين يعلمون صدقه فيما جاء به ، وأنه لم يكذب عليهم حتى فى أمور بينهم .. فكيف يكذب على الله سبحانه وتعالى ؟

وكان النبى محمد ﷺ فى حاجة مادية إلى أن يُحمى حمايتين :

الحماية الأولى : من الكفار فى الخارج .

الحماية الثانية : فى ساعة راحته وسكونه وهدوئه فى البيت .

كان أبو طالب يحميه فى الخارج من أذى الكفار وأذى المشركين ، وكان كفر أبى طالب سبباً من الأسباب التى جعلت الكفار يجاملونه بعض المجاملة .

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها فى البيت هى السكن الذى يلجأ إليه الرسول ﷺ ، فنمسح بيدى الحنان ، وبيدى العطف ، وبيدى الرعاية ، وبيدى العناية على متاعبه من حركة الحياة التى يحياها عليه الصلاة والسلام »[1] .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد هيأ لحمايته ﷺ ولنصرته ولمؤازرته مصدراً إيمانياً فى البيت كان من خديجة ، ومصدراً كفرياً فى الخارج كان من عمه أبى طالب .

فحين يكون هذان المصدران بجوار رسول الله ﷺ يكون فى الخارج مكفول الحماية ؛ بسبب عمه أبى طالب ، وفى الداخل مكفول الأمن

(١) يقول عمر رضا كحالة : ولما بعث النبى ﷺ كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدّق محمدا ﷺ فيما جاء عن ربه ، وآزره على أمره ، فكان ﷺ لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردّ عليه ، وتكذيب له إلا فرج الله عنه بخديجة التى كانت تثبته على دعوته ، وتخفف عنه ، وتهوّن عليه ما يلقى من قومه . أعلام النساء [٣٢٨] .

والاطمئنان والاستقرار والهدوء بواسطة زوجته . ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن تتوفى زوجته خديجة بنت خويلد فى العام الذى توفى فيه عمه أبو طالب[1] .

وبذلك فقد رسول الله ﷺ السكن الذى كان يأوى إلى حنانه وعطفه ، كما فقد الحماية الخارجية ، ومع أن رسول الله ﷺ كان يعلم تماماً أن الله

(١) يقول الدكتور أكرم ضياء العمرى فى وفاة أبى طالب ، وخديجة رضى الله عنها :
إن أبا طالب يحوط النبى ويغضب له وينصره وكانت قريش تحترمه ، وقد جاء زعماؤها حين حضرته الوفاة ، فحرضوا أبا طالب على الاستمساك بدينه وعدم الدخول فى الإسلام قائلين : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وعرض عليه رسول الله الإسلام قائلاً : قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة . فقال أبو طالب : لولا أن تعيرنى بها قريش ! يقولون إنما حمله عليها الجزع ، لأقررت بها عينك ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1] [القصص : ٥٦] .
أما خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقد توفيت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين فى نفس عام وفاة أبى طالب .
السيرة النبوية الصحيحة [١/١٨٣-١٨٥] .

(١) عن سعيد بن المسيب عن أبيه ، قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عمّ ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبوطالب آخر ما كلّمهم : على ملّة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله .
قال : فقال رسول الله ﷺ : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ١١٣] وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .
أخرجه البخارى [٤٧٧٢] .

سبحانه وتعالى لا يُسلمه ، إلا أنه مع ذلك أخذ يعمل فكره ، ويُعمل بصيرته ، ويخطط لينطلق بالدعوة بالأسباب البشرية التى يقدر عليها .

وما كان منه فى هذا الجو الخانق فى مكة إلا أن يلتمس منطلقاً للدعوة ، لعله يجد نصيراً خارجياً ، فقام برحلته إلى الطائف .

ولكنه وجد خلاف ما اعتقد ، وحدث أن آذوه بالقول ، وآذوه بالفعل ، واضطهدوه وسلطوا عليه سفهاءهم حتى أدموا عقبيه ، فوقف موقف الضارع إلى الله سبحانه وتعالى بعد أن فقد أسباب البشر[1] .

(١) عن عروة بن الزبير ، أن عائشة زوج النبى ﷺ حدثته : أنها قالت لرسول الله ﷺ : « هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال[1] ، فلم يجبنى إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[2] ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وماردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .
قال : فناداني ملك الجبال وسلّم علىّ ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[3] .
فقال له رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » . أخرجه البخارى [٣٢٣١] ، ومسلم [١١١/١٧٩٥] واللفظ له .

(١) من أكابر أهل الطائف من ثقيف .
(٢) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد تلقاء مكة ، على بعد من مكة .
(٣) الأخشبين : هما جبلا مكة : أبو قبيس ، والجبل الذى يقابله . والمراد إطباقهما : أن يلتقيا على من بمكة ، ويُحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقًا واحدًا .

هنا نقف وقفة .. فالإنسان الذى يمدّه الله سبحانه وتعالى بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب ، وأن يجتهد وسعه فى أن يستخدمها فى الوصول إلى أغراضه ، وحين يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ومعه الأسباب ، يردّ الله سبحانه وتعالى رجاءه ؛ لأنه لا تزال معه الأسباب ، ولكن إذا ما أصبح مضطراً ، وقد أعيته الأسباب فوقف موقفه الضارع إلى الله سبحانه وتعالى ، وقال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي : إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

(١) يقول الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة : وفى هذه الغمرة من الأسى والحزن ، والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء الذى يفيض إيماناً ويقيناً ، ورضى بما ناله فى الله ، واسترضاء لله ، والذى لم أقف على مثيل له فيما قرأت . السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة [٤٠٢/١] .

ويقول الدكتور أكرم العمري : والحديث أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح : لكنه مرسل محمد بن كعب القرظى ، والمرسل من أنواع الضعيف لا يُحتج به إلا مع قرائن . السيرة النبوية الصحيحة [١٨٦/١] .

ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٥٣/٦] وقال : رواه الطبرانى ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلّس ، وبقية رجاله ثقات .

دعاء فيه كل مقومات الإيمان واليقين ؛ لأن رسول الله ﷺ يعلم أن الله لن يخذله . دعاؤه معناه أنه قد استنفد كل الأسباب ، وأنه لم يجد إلا عداءً وبُعدًا ، فلابد إذن من عناية الله ورحمايته سبحانه وتعالى .

سمع الله سبحانه وتعالى ضراعة رسوله ﷺ ، وكانت مشيئته تعالى أن تبين له جفاء أهل الأرض ، ولكن لا يعنى ذلك أنه سبحانه قد تركه ، فالله سبحانه وتعالى سيعوّضه عن جفاء الناس فى الأرض ، بحفاوة الملأ الأعلى ، وسيريه من آياته الكبرى ما يُثبّت به فؤاده ، ويعينه على أداء رسالته .

وأن الله سبحانه وتعالى الذى أراه هذه الآيات قادر على أن ينصره ، ولن يتركه ، لكن الله سبحانه وتعالى تركه للأسباب أولاً ؛ ليجتهد فيها حتى يكون أسوة لأمته فى ألا تدع الأسباب .

إذن .. فقد كانت ليلة عظيمة الشأن ، وكان حدث الإسراء وحدث المعراج بعد جفوة أهل الأرض لرسول الله ﷺ ، وبعد فقْد التصير والحامى[1] . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل لرسوله ﷺ هذه الرحلة العلوية ؛ حتى يثبت له تكريمه ، وحتى يثبت له أن فى عناية الله سبحانه وتعالى ، عوضاً عن كل مفقود ، وأن الملكوت سيحتفى به حفاوة تُذهب عنه عناء كل هذه المتاعب ، وسيعطيه دفعة قوية ؛ لتكون أداته فى منطلقه الجديد بإذن ربه سبحانه وتعالى .

○ ○ ○

(١) بعد موت زوجته السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ، وموت عمه أبى طالب .

يقول ربنا جل في علاه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] [الإسراء : ١] فالإسراء حدث لرسول الله ﷺ ؛ تسلية

(١) يقول القرطبي : فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر ، وهو غير متمكن ؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ولم يجر منه فعل ، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين ، تقول : سبحت تسبيحا وسبحانا ، مثل : كفرت اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره ؛ فأما قول الشاعر :

أقول لما جاءني فخره سُبْحَانَ مِن عَلْقَمَةَ الفاجِرِ[1]

فإنما ذكره على طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض - أحد العشرة - أنه قال للنبي ﷺ : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : « تنزيه الله من كل سوء »[2] . =

(١) البيت للأعشى ، من قصيدة رائية له ، من بحر السريع ، وهي بعنوان « حكمتموني » . قالها في مدح عامر بن الطفيل وهجاء علقمه بن علاثة ، والبيت ورد في الديوان بلفظ :

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاجر

ديوان الأعشى [٤٤ م] .

(٢) أخرجه البزار في مسنده [٩٥٠] ، والطبراني في كتاب الدعاء [١٧٥١، ١٧٥٢] ، والحاكم في المستدرك [١/٥٠٢] وصححه ، وتعقبه الذهبي بقوله : بل لم يصح ، فإن طلحة : منكر الحديث - قاله البخاري ، وحفص : واهي الحديث . وعبد الرحمن قال أبو حاتم : منكر الحديث . وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات [ص ٣٧] ، وأورده الهيثمي في المجمع [١٠/٩٧، ٩٨] وقال : رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي ، وهو ضعيف بسبب هذا وغيره .

= والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه : إذ لم يجر من لفظه فعل ، وذلك مثل قعد القُرفُصاء ، واشتمل الصَّماء[1] ؛ فالتقدير عنده : أُنزِّه الله تنزيها ؛ فرفع « سبحان الله » مكان قولك تنزيها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيه لغتان : سرى وأسرى ؛ كسقى وأسقى ، كما تقدم . قال :

أسرت عليه من الجوزاء سارية تُزجي الشَّمال عليه جامد البرد[2]

وقال آخر :

حيّ النُّضيرة ربة الخيدر أسْرت إليّ ولم تكن تُسْرى[3] =

(١) القرفصاء : جلسة المحتبي بيديه ، والصماء : ضرب من الاشتمال ، واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ، وهو أن يرفع الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ، ثم يرفعه ثانية من تحته على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن ، فيغطيهما جميعا .

(٢) البيت من قصيدة دالية للنابغة الذبياني ، بعنوان : « يا دار مية » ، وهي من بحر البسيط ، وتعد هذه القصيدة من أشهر اعتذاريات النابغة التي بعثها التبريزي من القصائد العشر . وقد تصرف فيها النابغة بفنون مختلفة ، فبدأها بوصف الأطلال ، ثم انتقل إلى وصف الناقة ووصف المراك بين الثور الوحشي والكلاب ، وأخيراً يتخلص إلى مدح النعمان . وللبيت رواية أخرى بالديوان ؛ هي :

سرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد

ديوان النابغة الذبياني [٣٩، ٣٥] .

(٣) البيت من قصيدة رائية لحسان بن ثابت ، بعنوان : « جودي فالجود مكرمة » ، وهي من « بحر الكامل » ، يقول في مطلعها :

إن النُّضيرة ربة الخيدر أسْرت إليّ ولم تكن تُسْرى

والنضيرة : امرأة ، وسرى وأسرى : لغتان بمعنى سار ليلاً .

ديوان حسان بن ثابت [١٥٨] .

= فجمع بين اللغتين في البيتين . والإسراء : سير الليل ؛ يقال : سَرَيْتُ مَسْرًى وسُرًى ، وأسريت إسراء ؛ قال الشاعر :

وليلة ذات ندًى سريتُ ... ولم يَلِتْني من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أول الليل ، وسرى سار من آخره ؛ والأول أعرف .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ قال العلماء : لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية . وفي معناه أنشدوا :

يا قوم قلبي عند زهراء ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

قال القشيري : لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعا للأمة .

الرابعة : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبراق – وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه – قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس . قال : فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء . قال : ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل اخترت الفطرة . قال : ثم عرج بنا إلى السماء .. . » وذكر الحديث[1] .

ومما ليس في الصحيحين ما خرجه الآجري والسمرقندي ، قال الآجري عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسري به ، قال النبي ﷺ : « أتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل =

(1) أخرجه البخاري [٣٨٨٧] ، ومسلم [١٦٢/٢٥٩] واللفظ له .

= له أذنان يضطربان ، وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته ، فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداءً عن يميني يا محمد على رسلك حتى أسألك ، فمضيت ولم أعرج عليه ، ثم سمعت نداءً عن يساري يا محمد على رسلك ، فمضيت ولم أعرج عليه ، ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها ، تقول : على رسلك حتى أسألك ، فمضيت ولم أعرج ، ثم أتيت بيت المقدس الأقصى لنزلت عن الدابة ، فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها ، ثم دخلت المسجد وصليت فيه ، فقال لي جبريل عليه السلام : ما سمعت يا محمد ؟ فقلت سمعت نداءً عن يميني يامحمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج ، فقال : ذلك داعي اليهود ، ولو وقفت لتهوّدت أمتك . قال : سمعت نداءً عن يساري : على رسلك فمضيت ولم أعرج عليه ، فقال : ذلك داعي النصارى ، أما إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك . قال : ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا ، رافعة يديها تقول : على رسلك فمضيتُ ولم أعرج عليها ، فقال : تلك الدنيا ، لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة . قال : ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لبن ، والآخر فيه خمر ، فقيل لي : خذ فاشرب أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته ، فقال لي جبريل : أصبت الفطرة ، ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك ، ثم جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم ، فإذا هو أحسن ما رأيت ، أو لم تروا إلى الميت كيف يحد بصره إليه ؟ فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، ففتحوا لي ، وسلّموا علي ، وإذا ملك يحرس السماء يقال له : إسماعيل معه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك مائة ألف . قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] وذكر الحديث إلى أن قال : « ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحبّ في قومه ، وحوله تبع كثير من أمته ، فوصفه النبي ﷺ وقال : طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سرته ، ثم =

مضينا إلى السماء السادسة ، فإذا أنا بموسى فسلَّم عليّ ، ورحب بي - فوصفه النبي ﷺ - فقال : رجل كثير الشعر ، ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما .. » الحديث . وروى البزار : أن رسول الله ﷺ أتى بفرس فحمل عليه ، كل خطوة منه أقصى بصره .. وذكر الحديث .

وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم في الحجر إذا أتاني آت ، فحركني برجله ، فاتبعت الشخص ، فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل ، وفوق الحمار ، وجهها وجه إنسان ، وخدها خد حافر ، وذنبها ذنب ثور ، وعرفها عرف الفرس ، فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ، ونفشت عرفها ، فمسحها جبريل عليه السلام ، وقال : يا بوراق لا تنفري من محمد ، فوالله ما ركبك ملك مقرب . ولا نبي مرسل أفضل من محمد ﷺ ، ولا أكرم على الله منه ، قالت : فذ علمت أنه كذلك ، وأنه صاحب الشفاعة ، وإني أحب أن أكون في شفاعته ، فقلت : أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى .. » الحديث .

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما مر النبي ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحبا بالأخ الصالح ، والنبي الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة ، قال : فإذا فيها مريم بنت عمران ، لها سبعون قصرا من لؤلؤ ، ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ ، أبوابها وأسرتها من عرق واحد . فلما خرج المعراج إلى السماء الخامسة ، وتسبيح أهلها سبحان من جمع بين الثلج والنار ، من قالها مرة واحدة كان له مثل ثوابهم ، استفتح الباب جبريل عليه السلام ، ففتح له ، فإذا هو بكهيل لم يُرَ قطُّ كهيلٌ أجمل منه ، عظيم العينين ، تضرب لحيته قريبا من سرته ، قد كاد أن تكون شمطة[1] ، وحوله قوم جلوس يقص عليهم ، فقلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هارون المحبَّب في قومه .. » وذكر الحديث . =

(١) الشمط في الشعر : اختلافه بلونين من سواد وبياض .

= فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين ، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سبع بكمالها في كتاب « شفاء الصدور » له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت على النبي ﷺ بمكة ، في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا في تاريخ الإسراء ، وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراء بروحه أو بجسده ؟ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية ، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها ، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء ، واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى .

فأما المسألة الأولى : وهي هل كان إسراء بروحه أو بجسده ؟

اختلف في ذلك السلف والخلف ، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، ولم يفارق شخصه مضجعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الأنبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة ، وحكي عن الحسن ، وابن إسحاق .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : لو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فإنه كان يكون أبلغ في المدح ، وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد ، وفي اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس ، وصلى فيه ثم أعرج بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها ، والآية .

وليس في الإسراء بجسده ومحال يقظته استحالة ، ولا يعدل عن الظاهر ، والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، ولو كان مناما لقال : « بروح عبده » ولم يقل : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] يدل على ذلك . ولو كان مناما لَمَا كانت فيه آية ولا معجزة ، ولَمَا قالت له أم هانئ : لا تحدِّث الناس فيكذبوك ، ولا فُضِّل أبو بكر بالتصديق ، ولَمَا أمكن قريشا التشنيع والتكذيب ، =

= وقد كذّبه قريش فيما أخبر به ، حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا به ، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر ، وقد قال له المشركون : إن كنت صادقا ، فخبرنا عن عيرنا أين لقيتها ؟ قال : « بمكان كذا ، وكذا ، مررت عليها فنفرتْ فلان ، فقيل له : ما رأيت يا فلان ؟ قال : مارأيت شيئا ! غير أن الإبل قد نفرت ، قالوا : فأخبرنا متى تأتينا العير ؟ قال : « تأتيكم يوم كذا وكذا » . قالوا : أية ساعة ؟ قال : « ما أدرى ، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العير من ها هنا ؟ » . فقال رجل : ذلك اليوم ؟ هذه الشمس قد طلعت ، وقال رجل : هذه عيركم قد طلعت .

واستخبروا النبى ﷺ عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ، ولم يكن رآه قبل ذلك . روى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد رأيتنى فى الحجر ، وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها [1] ، فكربت كربا ما كربت مثله قط . قال : فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شئ إلا أنبأتهم به .. . »[2] الحديث .

وقد اعترض على قول عائشة ومعاوية : « إنما أسرى بنفس رسول الله ﷺ » بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ، ولا حدّثت عن النبى ﷺ . وأما معاوية فكان كافرا فى ذلك الوقت ، غير مشاهد للحال ، ولم يُحدّث عن النبى ﷺ . ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على « كتاب الشفاء » للقاضى عياض يجد من ذلك الشفاء .

وقد احتج لعائشة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ فسماها رؤيا . وهذا يرد قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ ولا يقال فى النوم أسرى . وأيضا فقد يقال لرؤية العين : رؤيا ، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة . وفى نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن ، وإذا ورد الخبر بشئ هو مجوز فى العقل فى قدرة الله تعالى ، فلا طريق إلى الإنكار ، =

(١) أى لم أعرفها حقًا ، يقال : أثبت الشئ وأثبته إذا عرفه حق المعرفة .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٧٢] .

= لا سيما فى زمن خرق العوائد ، وقد كان للنبى ﷺ معارج ، فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا ، وعليه يحمل قوله عليه السلام فى الصحيح : « بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان .. . » الحديث[1] . ويحتمل أن يرد من الإسراء إلى نوم .

والله أعلم .

المسألة الثانية : فى تاريخ الإسراء : وقد اختلف العلماء فى ذلك أيضا ، واختلف فى ذلك على بن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرى به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنه يونس ، عن عروة ، عن عائشة قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبى ﷺ بسبعة أعوام . وروى عنه الواقدى : قال : أسرى به بعد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهاب : وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحرمت الخمر بعد أحد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة فى القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلت خديجة مع النبى ﷺ . وسيأتى . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل : بثلاث ، وقيل : بأربع .

وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم . وقال الحربى : أسرى به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن على بن القاسم الذهبى فى تاريخه : أُسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، وعُرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبى ، ولم يسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٠٧] ، ومسلم [١٦٤/٢٦٤] .

= المسألة الثالثة : وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء ، حين عرج به إلى السماء ، وذلك منصوص في الصحيح وغيره . وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأقرت صلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ، ومحمد بن إسحاق . قال الشعبي : إلا المغرب . قال يونس ابن بكير : وقال ابن إسحاق : ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين فرضت عليه الصلاة – يعني في الإسراء – فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ، ومحمد ينظر عليهما السلام فوضأ وجهه ، واستنشق ، وتمضمض ، ومسح برأسه ، وأذنيه ، ورجليه إلى الكعبين ، ونضح فرجه ، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات ، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه ، وطابت نفسه ، وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى ، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء . وروى عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين . وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري ، وهو قول ابن جريج ، وروى عن النبي ﷺ ما يوافق ذلك . ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال ، فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها . وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر ، قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : كان أول الصلاة مثنى ، ثم صلى رسول الله ﷺ أربعا فصارت سُنة ، وأقرت الصلاة للمسافر وهي تمام . قال أبو عمر : وهذا إسناد لا يحتج بمثله ، وقوله : « فصارت سنة » قول منكر ، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ، ولم يذكر الصبح قول لا معنى له . وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ، ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا ، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها . =

= الخامسة : قد مضى الكلام في الأذان في « المائدة »[1] والحمد لله . ومضى في « آل عمران »[2] أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام ، ثم المسجد الأقصى . وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبي ذر[3] ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك .

وتذكر هنا قوله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام ، وإلى مسجدي هذا ، وإلى مسجد إيلياء – أو بيت المقدس » . أخرجه مالك من حديث أبي هريرة[4] . وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد ؛ لهذا قال العلماء : من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل ، ويصلي في مسجده ، إلا في ثلاثة المساجد المذكورة ، فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا في ثغر بعينه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البختري في هذا الحديث مسجد الخندق ، ولا يصح وهو موضوع .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ سمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض بعظم بالزيارة ، ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ قيل : بالثمار ، وبمجاورة الأنهار . وقيل : بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وبهذا جعله مقدسا . وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : يا شام أنت صفوتي من بلادي ، وأنا سائق إليك =

(١) راجع تفسير القرطبي [٦/٢٢٤] .

(٢) راجع تفسير القرطبي [٤/١٣٧] .

(٣) أخرجه البخاري [٣٣٦٦] عن أبي ذر رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم [١/٥٢٠] .

(٤) أخرجه البخاري [١١٨٩] عن أبي هريرة بلفظ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى » . وأخرجه مسلم [٥١١/١٣٩٧] ، وأبو داود [٢٠٣٣] ، والنسائي في المجتبى [٢/٣٧] .

له عما لقيه من الإيذاء من القوم الذين صدوا عنه ، وكلفوا السفهاء أن يؤذوه بالقول وبالفعل ، وحين ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، توجه إلى الطائف ، فلقى ما لقى من العنت والإيذاء ، ثم رجع إلى مكة فلم يجد من يجيره إلا المُطعم بن عدى[1] . وهو رجل كافر ، ولكن رقّ قلبه للرسول ﷺ .

كانت قسوة من أهل الأرض ما أبشعها ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلى رسوله ﷺ ، بأنه إن كان هذا جفاء أهل الأرض ، فانظر حفاوة أهل السماء ، فجاء حدث الإسراء والمعراج .

= صفوتى من عبادى » « أصله سام نعرب » ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس ، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا ، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره[1] .

تفسير القرطبى [١٠/٢٠٤-٢١٢] .

(١) يقول المؤرخ الأديب الحسن بن عمر بن حبيب تحت عنوان : خروج النبى ﷺ إلى الطائف سنة عشر من النبوة : لما مات عمه أبو طالب وزوجته خديجة ، وذويت من شجرة إعانتهما له أوراقها البهيجة ، لزم البيت وأقل الخروج ، وأسف عليهما أسفاً يضطرب بحره ويموج ، ونالت منه قريش ، وقابلوه بالخفة والطيش .

فخرج معه زيد بن حارثة إلى الطائف ، وصدع بالدعوة غير وجل ولا خائف ، فلم يجبه منهم أحد ، وأغروا به سفهاء البلد ، وتشاءموا بقدوم طائره الميمون ، فانقلب راجعاً إلى مكة وهو محزون .

---

(١) انظر الأحاديث فى صحيح البخارى [٣٢٣٩، ٣٣٩٦، ٣٤٣٧] وصحيح مسلم [١٦٥/ ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٦٨/١٦٦، ١٦٧، ١٦٨] ، وسنن الترمذى [٣٦٤٩، ٣١٣٠] ، وابن ماجه [٢٨٩١] .

إن حدث الإسراء جاء أولا ، ثم جاءه بعده بنص الحديث الجامع لهما حدث المعراج ، والإسراء آية أرضية من المسجد الحرام ، وهو معلوم للقوم ، إلى المسجد الأقصى وهو معلوم أيضا للقوم . والمسافة بينهما أربعون يوما بسير الإبل ، فكون الرسول ﷺ ، يحدث أنه أتاه فى ليلة ، فتلك معجزة فى قطع المسافات . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقربها لأذهان الخلق ، فقال لا تقيسوا فعل الله بفعلكم ؛ لأن فعلكم يقتضى علاجا ويقتضى دوابّ ، ويقتضى مسافة ، وقطع المسافة بحسب الجهد والقوة . ولكن نزّهوا الله فى فعله أن يحتاج إلى زمن . فصدّرها بقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ أى تنزيها لذاته ، وتنزيها لصفاته ، وتنزيها لفعله .

= فلما نزل نخلة [1] قام يصلى من الليل ، وسبب التأييد يتحدر عليه كالسيل ، وانصرف إليه سبعة من الجن يستمعون القرآن ، فلما فرغ ولوا يدعون قومهم إلى الإيمان ، ثم دخل مكة فى جوار مطعم بن عدى[2] .

وفى مطعم يقول حسان بن ثابت من أبيات :

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عيبدك ما لبى مهل وأحرما

فلو كان مجداً يخلد الدهر واحداً ... من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

انتقى من سيرة المصطفى [٦٨] .

---

(١) نخلة : هى واد على بعد ليلة من مكة وكانت عكاظ بينه وبين الطائف .

(٢) مطعم بن عدى من أشراف قريش ، وكان كافًا عن أذى رسول الله ﷺ .

وقال رسول الله ﷺ فى أسارى بدر : « لو كان مُطعم بن عدى حيًا ، ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له »[1] . وذلك لأيد كانت لمطعم عند رسول الله ﷺ ، كان أجاره حين رجع من الطائف ، وتام فى نقض الصحيفة . التى كتبت قريش على بنى هاشم ، حين حصروا =

---

(١) أخرجه البخارى [٣١٣٩، ٤٠٢٤] عن محمد بن جبير عن أبيه رضى الله تعالى عنه بلفظ : أن النبى ﷺ قال فى أسارى بدر : « لو كان المطعم بن عدى حيًا ، ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له » .

والنص القرآني هو عمدتنا في توثيق هذا الحدث[1] ، وحين يجيء النص القرآني بحدث فليس لنا إلا أن نؤمن به ؛ لأنه ورد من الله سبحانه وتعالى ، وليس لعقولنا [2] القاصرة أن تبحث البحث الجاري في قوانين الأرض ، وقوانين البشر ؛ لنحاول أن نفهم قوانين الله سبحانه وتعالى ، ولكن ما دام الله

(١) والأصل فيه من القرآن قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم] ، إلى قوله : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم] .

ولا خلاف بين أئمة المسلمين ، وعلماء الدين في صحة الإسراء به ﷺ إذ هو نص القرآن العظيم ورواه جماعة من الصحابة ، كما أخرجه الحافظ في أصول الإسلام ، المشهورة ، ولكن أكملها ترتيباً ووصفاً ما رواه مسلم في صحيحه .

حدائق الأنوار [٣٨٢/١، ٣٨٣] .

(٢) يؤكد الدكتور « توماس بوبل » في كتابه « بزوغ العقل البشري » ، وهو حائز على دكتوراه في العلوم ، يقول : إن كافة العقول البشرية محدودة مهما كانت قدرتها على أن تعمل بهذه الطريقة أو بتلك ، أي أنها تؤمن بكثير من الأمور ، ولكن لا تستطيع أن تتصورها ؛ لأنها أشياء فوق قدرة العقل .

= في الشعب ، وكان مبقيًا على نفسه ، لم يكن يشرف لعداوة رسول الله ﷺ ، ولا يؤذيه ، ولا يؤذى أحدًا من المسلمين ، كما كان يفعل غيره ، ومنعه أبو طالب في قصيدة له قالها ، وتوفي مطعم ابن عدي بمكة ، بعد هجرة رسول الله ﷺ بسنة ، ودفن بالحجون ، مقبرة أهل مكة ، وكان يوم توفي ابن بضع وتسعين سنة ، وكان يكنى أبا وهب .

سبحانه وتعالى هو الذي قال ؛ فالأمر الذي يجب على المؤمن هو أن يُسلِّم به ، وبعد ذلك على عقله أن يبحث في قياسات هذا التسليم ، أو في مبررات هذا التسليم ، فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولاً بالله سبحانه وتعالى .

إن الإنسان أول ما يدخل في الدين يؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك يتلقى عن الله سبحانه وتعالى .

إذن .. فتلقيه عن الله سبحانه وتعالى ، مشروط بأنه آمن به سبحانه وتعالى ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يُوثِّق الكلام .. أصدر من الله ، أم لم يصدر ؟ فعِلّة إيمان المؤمن بأي حُكم ، أو بأي حدث صادر عن الله سبحانه وتعالى هو توثيق صدوره من الله سبحانه وتعالى ، وبعد أن يوثق صدوره عن الله سبحانه وتعالى ما عليه إلا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته ؛حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون وليس مُحالاً .

إن هذا الحدث استهلّه الله سبحانه وتعالى بكلمة : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ ، ومعنى كلمة : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ أول ما تقع على الذهن تعطي الإنسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبهة مقارنة ، والتي تأتي بين قانون المادة الأرضية الإنسانية ، وبين قانون الله سبحانه وتعالى .

وإن معنى « سبحان الله » : أن الله سبحانه وتعالى منزّه في ذاته ، وفي صفاته وفي أفعاله ، فإذا صدر فعل ، وقال الله سبحانه وتعالى أنه صدر منه ، فيجب أن أنزّهه أنا عن قوانين البشرية ، وألا أُخضع فعل الله سبحانه وتعالى إلى قانون فعلي .

ولهذا فقد استهلّ الله سبحانه وتعالى الحدث بقوله : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ حتى يكون أول ما يقرع الإنسان لذلك الحدث العجيب الغريب ، الذي قد تقف فيه العقول .

و « سبحان الله » أى تنزيهه ، إذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ معنى ذلك : تنزيهه لفعله عن أفعال البشر ، ولبيان أن قانون الله سبحانه وتعالى ليس كقانون البشر فى الفعل .

وقوله : ﴿ أَلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذى أسرى ومحمد ﷺ هو الذى أُسرى به . ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لفظاً يعطى حيثية تلك التجربة ، واللفظ هو : ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ .

وبعد ذلك بداية الإسراء : ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، ونهايته : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ، ثم قال العلة : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ ، ثم بعد ذلك قال العلة الدافعة بكل هذا .. لماذا نريه من آياتنا ؟ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

سميع لماذا ؟ وبصير بماذا ؟[1] .

فقد كان من الممكن أن يقول على نسق أساليب البشر بعد أن يريه الآيات :

- إن الله على كل شىء قدير .
- إن الله وهّاب .

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه وصف نفسه فى هذه الحال بالسميع والبصير ، وإن كانتا من صفاته اللازمة لذاته فى الأحوال كلها ؛ لأنه حفظ رسوله عند إسرائه فى ظلمة الليل ، فلا يضر ألا يبصر فيها ، وسمع دعاءة فأجابه إلى ما سأل ؛ فلهذين وصف الله نفسه بالسميع البصير .

الثانى : أن نومه كذبوه عن آخرهم بإسرائه ، فقال : ﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾ يعني : لما يقولونه من تصديق أو تكذيب ، ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾ لما يفعله من الإسراء والمعراج .

تفسير الماوردى [٣/٢٢٧] .

أما أن يأتى بقوله : بأنه ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ؛ فهذا يحتاج على بعده الحقيقية ، والتى استوجبت أن يسرى الله سبحانه وتعالى برسوله محمد ﷺ ، فقد سمع الله سبحانه وتعالى دعاء رسوله بعد الإيذاء الذى أوذى به ، وقد رأى سبحانه ما تعرض له رسوله من الجفاء والاستهزاء ، ومن السخرية ومن الإهانة ، كل ذلك بمرأى ومسمع من الله سبحانه وتعالى ، فحين رأى الله سبحانه وتعالى ذلك وسمع ، أراد بمشيته أن يريه الآيات فأسرى به [1] .

○○○

(١) يقول صفى الرحمن المباركفورى : اختلف فى وقت الإسراء والمعراج ، فقيل : فى السنة التى بعث فيها النبى ﷺ ، وقيل سنة خمس من النبوة ، وقيل : فى ٢٧ رجب سنة عشر من النبوة ، وقيل : فى ١٧ رمضان سنة اثنى عشرة من النبوة ، وقيل : فى المحرم ، وقيل : فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

الرحيق المختوم [٧٨] .

وقال الشيخ محمد بن رزق بن طرهونى أن الإسراء كان فى العام التاسع من البعثة وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول .

صحيح السيرة النبوية [٢/١٦٢] .

المعجزة فى الإسراء والمعراج[1]

إذا جئنا لنأخذ عنصر الفعل من أى فاعل ، فنجد أن عنصر الفعل فى أى فاعل ملحوظ فى ذات الفعل ، فإذا قيل مثلاً :

« خطب فلان » فسنأخذ الخطبة بمعيار فاعلية الخطيب الذى نعرفه .

« وخطب فلان » فسنأخذ الخطبة بمعيار هذا الخطيب .

---

(١) يقول صاحب اللسان : معنى الإعجاز الفوت والسبق ، يقال : أعجزنى فلان أى فاتنى ، ومنه قول الأعشى :

فذاك ولم يُعجز من الموت ربه ولكن أتاه الموت لا بتأنّيْ [1]

وقال الليث : أعجزنى فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه .

وقال ابن عرفة فى قوله تعالى : ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ [سبأ : ٥] أى يعاجزون الأنبياء وأولياء الله ، أى يقاتلونهم ويحاثمونهم ؛ ليصيّروهم إلى العجز عن أمر الله ، وليس يعجز الله جل ثناؤه ، خلق فى السماء ولا فى الأرض ، ولا منجأ منه إلا إليه ؛ وقال أبو جندب الهذلى :

جعلتُ عُزّان خَلْفهم دليلاً ونادَوا فى الحجاز ليُفجِزُونى

وقد يكون أيضاً من العجز . ويقال : عجز يعجز عن الأمر إذا قصر عنه . وعاجز إلى ثقة : مال إليه . وعاجز القوم : تركوا شيئاً وأخذوا فى غيره . ويقال : فلان يعاجز عن الحق إلى الباطل ، أى : يلجأ إليه . ويقال : هو يُكارِزُ إلى ثقة مُكَارزة ، إذا مال إليه . والمعجزة : واحدة معجزات الأنبياء ، عليهم السلام . وأعجاز الأمور : أواخرها . وعجز الشىء وعِجزُه وعُجزُه وعَجُزُه : آخره . لسان العرب [٥/٣٧٠] .

---

(١) البيت للأعشى ، من قصيدة له بعنوان « مدح المحلّق » ، وهى من بحر الطويل ، وهى من قصائده المشهورة لما كان لها من تأثير فى العرب .

ويتأبى : يستتر ، يتحقى .

ديوان الأعشى [١٧٩] .

وإذا قيل : « حفل فلان بقوله ، وحفل بصنيعه ، وحفل بمن ... » فسنأخذ الحفل بمعيار الذى حفل ؛ فإذا حفل إنسان عادى ، فيكون له قوة محدودة ، وإذا حفل بطل وله رقم قياسى ، فيكون له أيضاً قوة .

إذن .. فكل فعل من الأفعال يجب أن يقارن بفاعله هو ، فلا تأخذ الفعل من فاعل ، ونعطى قانون غير الفاعل .. كيف ؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ أى : إن الذى أسرى هو الله سبحانه وتعالى ، إذن .. فالفعل وقع من الله سبحانه وتعالى ، فلا يصح أن نؤاخذ محمدًا ﷺ بفعل فعله الله سبحانه وتعالى به .

وما دام الله سبحانه وتعالى قد فعل ، فلماذا نتعجب من محمد أن يقوله ؟!

محمد لم يقل : « أنا سريت » ؛ حتى نردّ محمدًا ﷺ إلى قانون ، ونقول له كما قال الكفار : « تضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ »[1] من الذى قال : إنه أتاها ليلة بقدرته وحده ؟ لم يأتها ، وإنما أُوتى به ، وأنتم تقولون : « نضرب إليها أكباد الإبل » أنتم تضربون أكباد الإبل ، فإذا كنتم صادقين فى المقارنة والمفاضلة العقلية ، والتناقض العقلى عندكم ، وتريدون أن تستشكلوا عليه ، كان يجب أن تقارنوا فعلاً منكم بفعل منه ، أما أن تقارنوا فعلاً منكم ، بشىء لم يدّع هو أنه فعله ، فهذه استحالة فى المناقشة .

---

(١) ذكر البيهقى فى حديث الإسراء الطويل :

« ... ثم أصبح بمكة يخبرهم بالعجائب : أنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى إلى السماء ، ورأيت كذا ورأيت كذا ، فقال أبو جهل بن هشام : ألا تعجبون مما يقول محمد ! يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ، ثم أصبح فينا ، وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا ومنقلبة شهرًا ، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة ؟! » .

دلائل النبوة [٢/٣١٥] ، وانظر سيرة ابن هشام [٢/٦] .

إذن .. كان من الممكن أن يُصعّدوا المسألة فى القياس ، يُصعّدونها إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا يقولون له : « كيف تدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل فى خلال شهر ، لأن محمدًا ﷺ قال : « أنا لم أسر بل وإنما أُسرى لى » .

ولكن نحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ وذلك لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ، ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟! تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » ، فهل سيكذبه أحد .

إذن .. لقد كذبه العرب ؛ لأنهم فهموا أنه سرى بمعنى كامل الإسراء بالجسد والروح معا . بدليل أنهم قارنوا فعلا بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق .

إذن .. إن محمدًا ﷺ محمول على نطاق قوة أخرى جبّارة لا حساب لها .كيف ؟

لو افترضنا أنى صعدت بابنى الرضيع قمة جبال « هيمالايا » ، أيقول مجنون لى : كيف يصعد ابنك الرضيع قمة جبال « هيمالايا ؟ » لا يقول لى أحد هذا ، والذى يقول هذا لابد وأن يكون عقله مختلاً ، إنما يقول لى : كيف صعدت أنت ؟ والمسألة فى الإسراء والمعراج لم يردوها إلى الله سبحانه وتعالى ، وإنما ردوها إلى محمد ﷺ .

إذن .. فالفعل من الله سبحانه وتعالى ، وحين يوجد الفعل من الله سبحانه وتعالى يجب أن يُلغى قانون البشر .. هنا قانون البشر غير موجود .. لماذا ؟ لأن كل فعل يختلف باختلاف فاعله ، ويختلف بقوة ذلك الفاعل .. وهكذا .

فمثلاً الذى يسرى من مكان ما إلى مكان آخر فى سيارة عادية ، غير الذى يسرى فى طائرة ، أو فى صاروخ ، ومن يدرى .. قد يكون هناك آلة أسرع من الصاروخ !!

إذن .. لابد أن ننسب الزمن إلى قوة العمل ، فما دامت المسألة من الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى أسرى ، ومحمد ﷺ مصاحب ، ومحمول فانون ضعفه البشرى على قانون قوة ربه ، فلابد لنا أن نقيس المسافة وزمانها بنسبة القوة التى فعلت .

وكما يقولون : « إن المسافة تتناسب مع القوة تناسباً عكسياً » ، فكلما ازدادت القوة قصرت المسافة ، والقوة التى فعلت هى قوة الله سبحانه وتعالى ، فنجد عندئذ أن النتيجة لا زمن .

قد يأتى شخص ما ويقول لك : ما دام ليس هناك زمن .. فلماذا أخذ ليلة ؟

نقول له :

هناك فرق بين حدث الإسراء فى ذاته باعتباره نقلة ، وبين مرائى تعرّض لها الرسول ﷺ . فالرسول عليه الصلاة والسلام حينما تعرض لمرائى رآها هو بشريته وبقانونه ، فالمرائى التى تعرض لها هى التى احتاجت للزمن ، أما النقلة فى ذاتها فلم تحتج إلى زمن ؛ لأنها محمولة على قانون : خالق الزمن .

إذن .. فأولئك الذين ناقشوا رسول الله ﷺ وجادلوه فى حادثى الإسراء والمعراج ، هم جماعة قد برهنوا لنا على أنهم قارنوا مقارنة غير موضوعية .

وقد يسأل سائل : كيف يذهب ، وكيف يعود ؟ وربما كان الإسراء بالروح فقط ، وربما كان بالجسد والروح معاً ؟

هنا نناقشهم ، فنقول :

إن المسألة ليست حدثاً من محمد ﷺ ، إذن .. فاستبعدوا قوانين بشريتكم ، استبعدوا قانون أرضيتكم ، وصعِّدوا هذه المسألة بالنسبة إلى الله عز وجل ، فنقول :

١ ـ هل يقدر الله سبحانه وتعالى على هذه المسألة ، أم لا يقدر ؟

٢ ـ هل قوته سبحانه وتعالى تحتاج إلى زمن ،أم لا تحتاج إلى زمن لهذه المسألة ؟

ولكي تعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قد هيأ لدين الإسلام جنوداً حتى من الكافرين ؛ وذلك ليعاونوا محمداً ﷺ على نصر دعوته ، كيف ؟

نقول : لو لم يقف كفار قريش من رسول الله ﷺ موقفهم هذا ليقولوا له : أتدّعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ ربما قال قائل بعد ذلك : كان منامياً ، والمنام لا يُمارى فيه ، والحكم عليه لا يمارى فيه أيضاً ، فإذا رأيت أني قد ذهبت إلى لندن هذه الليلة ، فلا يمكن أن يناقشني أحد ؛ لأن المسألة رؤية لا أكثر .

إذن .. فموقفهم هذا الذي وقفوه قديماً أمام رسول الله ﷺ حينما قالوا له : أتدّعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ تأكيدٌ على أنهم أدركوا أنها لم تكن مناماً ، ولا روحاً ، بل كانت يقظةً بروحه وبجسده ، وإلا لما صدر هذا الاعتراض .

وبذلك يتبين لنا أن الكافرين بعنتهم أمام رسول الله ﷺ قد أسدوا إلينا خدمة كبيرة تبينت لنا بعد ذلك .

وهنا نقول : لو كانت رؤيا منامية لما ناقش فيها أحد ؛ لأن أي واحد يقص عليك رؤية يدل ذلك على أن قانون المرائي فوق قانون المادة واليقظة ، وبما

أنهم قد ناقشوا هذه المسألة ، ووقفوا هذه الوقفة ، فهم إذن قد أدركوا أنها يقظة ، وبالجسم والروح معاً .

وإن الذي يقول هذا الكلام يحاول أن يسنده بشيء ، فيبحث حتى يجد نصاً قرآنياً ، وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾[1] [الإسراء : ٦٠] وعندهم أن كلمة ﴿ ٱلرُّءْيَا ﴾ لا تأتي مصدراً

(١) يقول صديق خان : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ لما بيّن سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ، ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهي المذكورة في صدر السورة ، وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل ، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا ، وقد قدمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا [٢] ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به .

وقيل : كانت رؤيا نوم ، وأن النبي ﷺ رأى أنه يدخل مكة هو وأصحابه ،وهو بوعك بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فرده المشركون فقال ناس : قد زُد وقد كان حدثنا أنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم ، فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الفتح : ٢٧] . وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وأجيب بأنه لا يبعد أنه ﷺ رأى ذلك بمكة ثم كان حقيقة بالمدينة وفيه تكلف .

وقال الخفاجي : بعيد لقلة جدواه ، قيل إن هذه الرؤيا هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فقيل له ما هو : هي الدنيا أعطوها ، فسري عنه ، وفيه ضعف جداً فإنه لا حجة للناس في هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده ، ويراد بالفتنة ما حصل من الإساءة لرسول الله ﷺ أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا . =

(١) انظر فتح البيان [٧/٣٥١] .

= والعبد لغةً : الإنسان مطلقًا ، والمملوك والعبودية : الذل والخضوع ، والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودية .

قال ابن القيم : في « طريق الهجرتين » : أكمل الخلق أكملهم عبودية ، وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ : « أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك » .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله ومنزلة ، وأعظمهم عليه جاهًا ، وأرفعهم عنده منزلة ؛ لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي . إنما أنا عبد . وكان يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله »[1] . وذكره سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته : مقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدي .

فقال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن : ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] وفي حديث الشفاعة : أن المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعني مسجد مكة المكرمة . سمي حرامًا كبلده ؛ لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولاكلئه . وقوله سبحانه : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان ؛ لأنه الذي بناه وشيده . و ﴿ ٱلْأَقْصَا ﴾ بمعنى الأبعد . سمي بذلك لبعده عن مكة . =

(١) أخرجه البخاري [٣٤٤٥] بلفظ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله » .

= وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي حوالية ببركات الدين والدنيا ؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ؛ لكونه في أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . ولمساجد بيوت الله . ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم وبمنهم أيضًا .

وقد قيل في خصائص ﴿ ٱلْأَقْصَا ﴾ : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجه إلى السموات العلى والمشهد الأسمى ، بيت نوه الله به في الآيات المتصلة ، ونليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويغرب . وهو قبلة الصلاة في الملتين ، وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين . لا تشد الرحال[1] بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد[2] والنسائي والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

وسأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد – يعني بيت المقدس – خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه . =

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ﷺ ، ومسجد الأقصى » . أخرجه البخاري [١١٨٩] واللفظ له ، ومسلم [٥١١/١٣٩٧] .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند [١٧٦/٢] ، والنسائي في الكبرى [٧٧٢] ، والحاكم في المستدرك [٣١٤٣٠/١] وصححه : ووافقه الذهبي .

= قال النبي ﷺ : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تحريمًا لقصد الصلاة .

وقال الشيرازي في « عرائس البيان » : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى ؛ لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طور سينا وطور زيتا ، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال ، مواضع كشوف الحق . لذلك قال ﴿ بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ . انتهى .

والالتفات في ﴿ بَٰرَكْنَا ﴾ لتعظيم ما ذكر ؛ لأن فعل العظيم يكون عظيمًا . لاسيما إذا عبر عنه بصيغة التعظيم . والنكتة العامة تنشيط السامعين .

وقوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ إشارة إلى حكمة الإسراء . أي لكي نُرِي محمدًا ﷺ من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل ، مسيرة شهر ، ومشاهدة بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه ﷺ من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر في قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان . وقد تعترض الشبهة والوساوس في العقليات . لأنه لا يشك أحد في نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يرى رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كما يستفاد من « التأويلات » لأبي منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق[1] : كان في مسراه ﷺ وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ؛ فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ماعاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . انتهى . =

(١) انظر سيرة ابن هشام [٢/٣] .

= وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليلا . وأما العروج إلى السموات ، وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه . ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثاني : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله : الزهري وابن سعد وغيرهما ، وبه جزم النووي وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه ، وقال : كان في رجب سنة اثنى عشرة من النبوة .

وفي « إنسان العيون » : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة . وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل : سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبدالغني المقدسي قال . وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : في « زاد المعاد » لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة منامًا ، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » ، وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك : « وذلك قبل أن يوحى إليه » ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث ، ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده .

وكل هذا خبط ، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات ، جعلوه مرة أخرى . فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع ، والصواب الذي عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويا عجبًا لهؤلاء الذين زعموا أنه =

= كان مرارًا ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسًا ، ثم يقول : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى . ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشرًا عشرًا ؟!

الرابع : قال القاضى عياض – عليه الرحمة – فى « الشفا » : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هذا ذهب معاوية . وحكى عن الحسن « والمشهور عنه خلافه » وإليه أشار محمد بن إسحاق . وحجتهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ ﴾ وما حكوا عن عائشة : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، وقوله : « بينا أنا نائم » . وقول أنس : « وهو نائم فى المسجد الحرام » وذكر القصة . ثم قال فى آخرها : « فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام » .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهذا قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى حبة البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج . وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبري ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ الآية . فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بشريف النبى وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح . =

= ثم اختلفت هاتان الفرقتان : هل صلى بيت المقدس أم لا ؟ ففى حديث أنس وغيره صلاته فيه ، وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضى عياض : والحق فى هذا . والصحيح – إن شاء الله – أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها . وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة . إذ لو كان منامًا لقال : « بروح عبده » ولم يقل : ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، وقوله : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذكر فى الحديث ، من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس فى رواية أنس : « أو فى السماء » على ما روى غيره . وذكر مجىء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء ، فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به ، وشأنه فى فرض الصلاة ومراجعته مع موسى فى ذلك .

وفى بعض هذه الأخبار : « فأخذ – يعنى جبريل – بيدى ، فعرج بى إلى السماء » إلى قوله : « ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس : هى رؤيا عين رآها النبى ﷺ ، لا رؤيا منام .

وعن الحسن فيه : بينا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل فهمزنى بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئا . فعدت لمضجعى . ذكر ذلك ثلاثا ، فقال فى الثالثة : فأخذ بعضدى فجرنى إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانىء : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ . فلما صلى =

= الصبح وصلينا ، قال : يا أم هانيء ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا يبين فى أنه بجسمه .

وعن أبى بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبى ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يا رسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة . وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدى فعرج بى .

وعن أنس : أتيت فانطلقوا بى إلى زمزم .

وعن أبى هريرة : لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى . فسألتنى عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كربًا ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه . وبنحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها[1] . =

(١) لم نجد هذا الحديث فيما عندنا مراجع ، ومن المعلوم أن أمنا خديجة رضى الله عنها قد انتقلت إلى جوار ربها قبل الإسراء ، إلا إذا صحّ رواية من قال بإسراء قبل الإسراء المشهور . وفى الدر المنثور [٢١٨/٥] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لما أسرى بى إلى السماء ، أُدخلت الجنة ، فوقعت على شجرة من أشجار الجنة ، لم أر فى الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقًا ولا أطيب ثمرة ، فتناولت ثمرة من ثمارها فأكلتها فصارت نطفة فى صلبى ، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة رضى الله تعالى عنها ، فإذا أنا اشتقت إلى ريح الجنة شممت ريح فاطمة » . =

= ثم قال القاضى عياض « فى إبطال حجج من قال : إنها نوم احتجوا بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ﴾ فسماها « رؤيا » .

قلنا : قوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يرده لأنه لا يقال فى النوم ﴿ أَسْرَىٰ ﴾ .

وقوله : ﴿ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس فى الحلم فتنة ولايكذب به أحد ؛ لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية :

فذهب بعضهم إلى أنها نزلت فى قصة الحديبية ، وما وقع فى نفوس الناس من ذلك ، وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سماها فى الحديث منامًا ، وقوله فى حديث آخر : « بين النائم واليقظان » وقوله أيضا : « وهو نائم » . وقوله : « ثم استيقظت » فلا حجة فيه ؛ إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلها إلا ما يدل عليه : « ثم =

= ذكره الهيثمى فى المجمع [٢٠٢/٩] وقال : وفيه أبو قتادة الحرانى وثقه أحمد وضعفه البخارى وقال بعضهم : متروك ، وفيه من لم أعرفه أيضًا ، وقد ذكر هذا الحديث فى ترجمته فى الميزان .

قلت : عن عبدالله بن واقد الحرانى قال الحافظ فى التقريب : « متروك » .

وقال ابن حجر : « هذا مستحيل بأن فاطمة ولدت قبل الإسراء بلا خلاف » .

وأخرج الحاكم فى المستدرك [٧٥١/٣] عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ « أتانى جبريل عليه السلام بسفرجلة ، فأكلتها ليلة أسرى بى ، فعلقت خديجة بفاطمة ، فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رقبة فاطمة » .

وقال : هذا حديث غريب الإسناد والمتن .

وقال الذهبى : من وضع مسلم بن عيسى الصفار على الحريرى عن شهاب .

قال الحاكم : وباقى رواته ثقات . قال الذهبى : هذا كذب جلى ؛ لأن فاطمة ولدت قبل النبوة فضلاً عن الإسراء

= استيقظت وأنا فى المسجد الحرام » لعل قوله : « استيقظت » بمعنى أصبحت . أواستيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان فى بعضه ، وقد يكون قوله : « استيقظت وأنا فى المسجد الحرام » لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض وخامر بعضه من مشاهدة الملأ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى ، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلاوهو بالمسجد الحرام .

ووجه ثالث : أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه ، ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق ، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا .

قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون فى وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له فى هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع : وهو أن يعبر بالنوم هاهنا عن هيئة النائم من الاضطجاع ، ونحوه قوله فى رواية عبد بن حميد عن همام : « بينا أنا نائم وربما قال : مضطجع » وهى رواية هدبة عنه : « بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع » وقوله فى الرواية الأخرى : « بين النائم واليقظان »فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالبا .

وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ونحو الرئب ، الواقعة فى هذا الحديث ، إنما هى من رواية شريك عن أنس ، فهى منكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال فى الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم فى « زاد المعاد » ستة :

١ - بروحه وجسده وهو الذى صححوه .

٢ - وقيل : كان ذلك منامًا .

٣ - وقيل : بل أسرى به ، ولا يقال : يقظة ولا منامًا . =

٤ - وقيل : كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة ، وإلى السماء منامًا .

٥ - وقيل : كان الإسراء مرتين مرة يقظة ومرة منامًا .

٦ - وقيل : بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق : وأما ما وقع فى حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل : هو غلط .

وقيل : الوحى هنا مقيد وليس بالوحى المطلق الذى هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه فى شأن الإسراء ، فأسرى به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام ،وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة ، إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصرى نحو ذلك . ولكن ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء منامًا وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا : كان منامًا ، وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن مايراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا : عرج برسول الله ﷺ طائفتان :

طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه .

وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان منامًا ، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدى الله عز وجل ، فتأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذى كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ فى مقام =

= خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ، ومن سواه ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة ؟ فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان ، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت في[1] الرفيق الأعلى ، مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به .

بحيث يرد السلام على من سلم عليه ، وبهذا التعلق رأى موسى قائما يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . ورآه يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة . كما أنه ﷺ في أرفع مكان في[2] الرفيق الأعلى مستقرا هناك .

وبدنه في ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا ، فلينظر إلى الشمس في علق محلها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هذا وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن . ولهذه النار تكون في محلها ، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم ، فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

تقل للعيون الرمد إياك أن ترى سنا الشمس فاستغشي ظلام الليالي

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة السعدي في « حواشي البيضاوي » : والمعراج بروحه في اليقظة - وهو الذي أشار إليه ابن القيم - خارق أيضا للعادة . انتهى . =

(١) (٢) هكذا بالأصل ولعلها [عند] ، وحرفت من الناسخ أو الطابع .

= وتعقب العلامة القنوجي له : بأنه نوع مراقبة وانسلاخ ، والذي ذهب إليه الصوفية سابقا ؛ لأنه فوقه بكثير . بل غيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذي فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيم من أنه إسراء بالروح ، فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمرًا إعجازيًا ، والحقيقة أنه كشف روحاني وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم : أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده ﷺ ممكن ، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه . وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك .

وفي : « العقائد النسفية وحواشيها » : الخرق والالتئام على السموات جائز . لأن الأجسام كلها متماثلة في تركبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كل ما يصح على الآخر ، فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام ، وكذا الأجسام الفلكية . والله تعالى قادر على الممكنات كلها ، فيكون قادرًا على الخرق في السموات ؛ لأنه ممكن فيها ، وفي الرازي براهين أخر فانظرها .

جاء في كتاب « إظهار الحق » : أن بعض أهل الكتاب مازى في المعراج ، فيحكى بأن صعود الجسم العنصري إلى الأفلاك صرحت به التوراة الموجودة لديهم في « أخنوخ » . وأنه نقل حيا إلى السماء بدلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرحت في صعود « إليا » في الفصل الثاني من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر ، التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوه به في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] وإيليا نبي أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سبسطية : =

من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع فى مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء. جانب نهر الأردن فى بطاح أريحا . شاهده خليفته اليشاع النبى بعده . كذا فى تاريخ الكتاب المقدس ، و « إيليا » هو إلياس ، و « اليشاع » هو اليسع المذكور فى القرآن المجيد .

وقد نوه بالأول فى سورة الصافات بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ الآيات . [الصافات] .

السادس : قيل : إن المسجد الأقصى فى زمن الإسراء كان خرابًا . بشهادة التاريخ. وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عنادًا لليهود . وبقى كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس . انظر « تاريخ أبى الفدا » وغيره .

فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد فى حال هدمه يسمى مسجدًا . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجدًا . وإنما كان بيتًا للأصنام .

لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها . سمى مسجدًا بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما ، وهو كونهما مسجدين للمسلمين.

السابع : فى التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقى الدين أحمد ابن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل ، فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، إن أراد به أن تكون الليلة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل =

= لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه فى ليلة القدر ، فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها . فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولاعشرها ولا على عينها ؟ بل النقول فى ذلك متقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التى يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] .

وفى الصحيحين عنه : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان »[2] . وقد أخبر سبحانه : أنها خير من ألف شهر . فإنه نزل فيها القرآن .

وإن أراد أن الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ ، وحصل له فيها مالم يحصل له فى غيرها من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح . وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة فى مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء ، كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التى أنعم عليه .

والكلام فى مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم ، التى لا تعرف إلا بوحى . ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم .

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها . لاسيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها . ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت . وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ ، ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٠١٤] ، ومسلم [١٧٥/٧٦٠] .

(٢) أخرجه البخارى [٢٠٢٠] ، ومسلم [٢١٩/١١٦٩] .

= بل غار حراء الذى ابتدئ فيه بنزول الوحى ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذى أنزل فيه الوحى بعبادة ولا غيرها . ولا خص المكان الذى ابتدئ فيه الوحى ولا الزمان بشيء . وترك خصّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات . كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله . وقد رأى عمر ابن الخطاب جماعة يتبادرون مكانًا يصلون فيه .فقال : ماهذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء نبى حتى النبى ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء .فهذه الليلة فى حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء فى حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى . نقله الشمس ابن القيم « فى زاد المعاد » .

الثامن : قال الشمس ابن القيم فى « زاد المعاد » اختلف الصحابة : هل رأى النبى ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ نصح عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك .

وقالا : إن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ ﴾ [النجم] إنما هو جبريل . وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنّى أراه » . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال فى لفظ آخر : رأيت نورًا . وقد حكى عثمان بن سعيد الدرامى اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضًا لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه .

= وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقًا . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بدّ . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعينى رأسه ، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه : أنه رآه بعينى رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك ، وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل . رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد فى قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

التاسع : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه « التنوير فى مولد السراج المنير » – بعد ذكره حديث الإسراء من طرق أنس – وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلى ،وابن مسعود ، وأبى ذرّ ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وابن عباس ، وشدّاد ابن أوس ، وأبىّ بن كعب ، وعبد الرحمن بن قُرْط ، وأبى حبّة ، وأبى ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ،وأبى أيوب ، وأبى أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبى الحمراء ، وصهيب الرومىّ ، وأم هانئ ، وعائشة ، وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ماوقع فى المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازىّ عن بعض المعتزلة رده الجمل فيه – ساقها – صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها فى الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . ولقد فاتهم بسبب ذلك خير كثير . =

= وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المعقول أو الواقع ، بوجه ما ، يعلم ذلك الراسخون ، ووفوق كل ذي علم عليم .

وقد يقى ممن رواه من لصحابة ، غير من تقدم ، سهل بن سعد ، وعبد الله بن حوالة الأزدي ، وعبد الله بن أسعد بن زرارة ، وأبو الدرداء ، وعبد الله بن عمر .

وأما من رواه من التابعين مرسلاً فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام ، وكعب ومحمد بن الحنفية ، وعروة وسفيان الثوري ، والوليد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة « الدر المنثور » للحافظ السيوطي .

وأما طرقه في الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة ، وليس في أحاديث المعراج أصح منه . ورواه الزهري عنه عن أبي ذر . ورواه شريك ابن أبي نمر ، وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة . وفي سياق كل منهم عنه ، ما ليس عند الآخر . أ هـ .

تفسير القاسمي [١٠/٣٨٨٣ - ٣٨٩٩] .

وقال صديق خان : وقد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط ؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول ، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم ، منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن إسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان .

وذهبت طائفة إلى التفصيل ، فقالوا : كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ فجعله غاية للإسراء بذته ﷺ ، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره .

والذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة ، هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف ، من الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات =

ومن ثم لتقدم إلى اللغة قبل أن نعود إلى الكلام ، نقول : لا تأخذ بالشائع على ألسنة الناس ، إنما خذ بالتحقيق اللغوي الموجود في القواميس ، عد إلى اللسان الجاهلي قبل أن يتزل القرآن ستجد أن كلمة الرؤيا وردت أيضاً للبصرية ، فالراعي النميري أعرابي شاعر يقول في قصيدة له :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده ... وبشر نفساً كان قبل يلومها

= من غير حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني ، وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى مايخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد ، وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم ، من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء .

ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط ، وأن رؤيا الأنبياء حق ، لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك ، حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدرًا ، فإن الإنسان قد يرى في نومه ماهو مستبعد ، بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد .

وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء ، فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ ، والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة ، بأنه أسرى به لا يتصور عن الاستدلال به على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين ، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا .

وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا ، مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ ركب البراق ؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب ؟ وهكذا كيف يصح حمل الإسراء على الرؤيا ، مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسري به بين النائم واليقظان ؟ فالأولى ما ذهب إليه الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم .

فتح البيان [٧/٣٥١، ٣٥٢] .

يقول :

مضى الليل والفضل الذى لك لا يمضى ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض[1]

إذن .. فقد استعملت كلمة : « الرؤية » بمعنى « البصرية » و« الرؤيا » بمعنى « المنامية »[2] ، ولكن عادة يستعملون كلمة : ﴿ ٱلرُّءْيَا ﴾ فى البصرية ، فى الأشياء الغريبة العجيبة ، كأنها من الأشياء التى لا تحصل إلا مناماً ، كما تقول أنت : أنا رأيت ذلك فى الحلم ، فإذا رأيت رؤية فهذه من الأمور المعتادة ، إنما إذا رأيت رؤيا ، وقد رأيت ببصرك ، فمعنى ذلك أنها أمر عجيب ، مما لا يمكن أن يدرك إلا فى الأحلام ، فهى كأنها رؤية ، وإلا لو كانت منامية لما كانت فتنة للناس ، ولما اختلف الناس فيها .. فهل وجدتم قوماً قد اختلفوا مع أحد من الناس رأى رؤيا منامية ، فى أنه رأى الرؤيا ، وبأى شكل رآها ، وعلى أية صورة ،وبأية سرعة ، وفى أى منظر ؟! أبداً ، لم يوجد شخص ناقش هذه المسألة .

إذن .. ما دامت رؤيا الرسول ﷺ جعلت فتنة ، فهذا دليل على أنها لم تكن رؤيا منامية .

ثم نحن نريد أن نناقش الذين يقولون هذا الكلام مناقشة لُغوية ، كما يناقشونها لغوياً ، فنقول لهم :

كيف تستعمل كلمة « جعل » فى اللغة ؟

(١) انظر ديوان المتنبى [ص ١٥٧] .

(٢) الرؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد ، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين . وقال ابن سيده : الرؤية النظر بالعين والقلب . والرؤيا : ما رأيته فى منامك .

لسان العرب [١٤/٢٩١،٢٩٧] .

نحن نرى فى اللغة أن كلمة « جعل » هذه لو استعملت فى شىء كان معدوماً فيوجد ؛ فتكون بمعنى : « خلق » .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] أى : وخلق منها زوجها ، كان معدوماً فوجد ، لكن إذا استعملت « جعل » فى شىء موجود تحول إلى شىء آخر فيكون عندنا أمران اثنان :

١ - مجعول .

٢ - مجعول منه .

جعلت الطين إبريقاً .. جعلت الخشب مكتباً .

إذن .. كان هناك خشب قبل أن يكون هناك مكتب ، ثم حوّلته وجعلته مكتباً .

إذن .. فهناك فرق بين « جعل » التى تتعدى إلى مفعول واحد ، وهذه إيجاد من عدم ، وبين « جعل » التى تتعدى إلى مفعولين ، المجعول منه كان موجوداً ثم صار إلى شىء آخر .

واقرأ قول الله تعالى لخليله : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] فأنت إذن موجود ، أما « الإمامية » فهى شىء آخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ ماذا جعلناها ؟ ﴿ فِتْنَةً ﴾ !! وكيف تصير الرؤيا فتنة ؟ لابد أن تنقلب هذه الرؤيا حقيقة . لا مانع أن يكون رسول الله ﷺ قد رأى الإسراء « رؤيا » ، ثم رآه « يقظة » .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

رآه فى الرؤيا ثم صار حقيقة وواقعاً . فما الذى يمنع أن يكون رسول الله ﷺ أنس الله سبحانه وتعالى روحه ، فرأى مناماً هذه المشاهد ، وبعد ذلك رآها

يقول :

مضى الليل والفضل الذى لك لا يمضى ... ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض[1]

إذن .. فقد استعملت كلمة : « الرؤية » بمعنى « البصرية » و« الرؤيا » بمعنى « المنامية »[2] ، ولكن عادة يستعملون كلمة : ﴿ ٱلرُّءْيَا ﴾ فى البصرية ، فى الأشياء الغريبة العجيبة ، كأنها من الأشياء التى لا تحصل إلا مناماً ، كما تقول أنت : أنا رأيت ذلك فى الحلم ، فإذا رأيت رؤية فهذه من الأمور المعتادة ، إنما إذا رأيت رؤيا ، وقد رأيت ببصرك ، فمعنى ذلك أنها أمر عجيب ، مما لا يمكن أن يدرك إلا فى الأحلام ، فهى كأنها رؤية ، وإلا لو كانت منامية لما كانت فتنة للناس ، ولما اختلف الناس فيها .. فهل وجدتم قوماً قد اختلفوا مع أحد من الناس رأى رؤيا منامية ، فى أنه رأى الرؤيا ، وبأى شكل رآها ، وعلى أية صورة ،وبأية سرعة ، وفى أى منظر ؟! أبداً ، لم يوجد شخص ناقش هذه المسألة .

إذن .. ما دامت رؤيا الرسول ﷺ جعلت فتنة ، فهذا دليل على أنها لم تكن رؤيا منامية .

ثم نحن نريد أن نناقش الذين يقولون هذا الكلام مناقشة لُغوية ، كما يناقشونها لغوياً ، فنقول لهم :

كيف نستعمل كلمة « جعل » فى اللغة ؟

---

(١) انظر ديوان المتنبى [ص ١٥٧] .

(٢) الرؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد ، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين . وقال ابن سيده : الرؤية النظر بالعين والقلب . والرؤيا : ما رأيته فى منامك .

لسان العرب [١٤/٢٩١،٢٩٧] .

نحن نرى فى اللغة أن كلمة « جعل » هذه لو استعملت فى شىء كان معدوماً فيوجد ؛ فتكون بمعنى : « خلق » .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] أى : وخلق منها زوجها ، كان معدوماً فوجد ، لكن إذا استعملت « جعل » فى شىء موجود تحول إلى شىء آخر فيكون عندنا أمران اثنان :

١ – مجعول .

٢ – مجعول منه .

جعلت الطين إبريقاً .. جعلت الخشب مكتباً .

إذن .. كان هناك خشب قبل أن يكون هناك مكتب ، ثم حوّلته وجعلته مكتباً .

إذن .. فهناك فرق بين « جعل » التى تتعدى إلى مفعول واحد ، وهذه إيجاد من عدم ، وبين « جعل » التى تتعدى إلى مفعولين ، المجعول منه كان موجوداً ثم صار إلى شىء آخر .

واقرأ قول الله تعالى لخليله : ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] فأنت إذن موجود ، أما « الإمامية » فهى شىء آخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنَاكَ ﴾ ماذا جعلناها ؟ ﴿ فِتْنَةً ﴾ !! وكيف تصير الرؤيا فتنة ؟ لابد أن تنقلب هذه الرؤيا حقيقة . لا مانع أن يكون رسول الله ﷺ قد رأى الإسراء « رؤيا » ، ثم رآه « يقظة » .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

رآه فى الرؤيا ثم صار حقيقة وواقعاً . فما الذى يمنع أن يكون رسول الله ﷺ آنس الله سبحانه وتعالى روحه ، فرأى مناماً هذه المشاهد ، وبعد ذلك رآها

حقيقة ، كما رأى أنه دخل المسجد الحرام رؤية ، وأصحابه محلّقين ومقصّرين ، وبعد ذلك رآها حقيقة ؟ ويكون بذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ﴾ التى رآها رسول الله ﷺ فى المنام إلا فتنة ، أى : واقعاً يفتن الناس فيه ، فيعلم أن كانت كذا ، صارت إلى كذا .

إذن .. فلا مانع أن يكون الرسول ﷺ قد تعرض لحدث الإسراء أولاً منامياً ، ثم تعرض له روحاً ، ثم تعرض له يقظة ، وها هى السيدة عائشة تحدثنا فتقول : « إنه ما رأى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح »[1] .

بعد ذلك ننتقل إلى نقطة أخرى ، فبعد أن تكلمنا عن أن الإمكان العقلى موجود بإسناد الفعل إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإبعاد محمد ﷺ عن مدار النقاش ، فيكون محمد ﷺ « مصاحباً » لا علاقة له بالفعل .

بعد ذلك نأتى بالحيثية : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، لم يقل برسوله أو بمحمد ، بل أتى بصفة العبودية لله سبحانه وتعالى ، التى هى باب العطاء من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن كل الرسالات جاءت لكى تصحح العبودية لله تعالى ، وكل رسول من الرسل لابد وأن يكون قدوة ، ولابد أن يكون قدوة فى العبودية .

العبودية لمن ؟ وما العبودية بحد ذاتها إلا كلمة مُرّة ، كلمة صعبة ، كلمة يمقتها الناس حقاً ، ولكن .. لماذا العبودية ممقوتة ؟ إن العبودية ممقوتة حينما تكون من خلق لخلق ، أن يكون الخلق عبداً لخلق .. لماذا ؟ لأن عبودية الخلق تعطى خير العبد لسيده ، يمتص خيره ، يأمره بأعمال قد لا يطيقها إطلاقاً ،

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣] عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وأخرجه مسلم [٢٥٢/١٦٠] .

أما عبودية الخلق للحق سبحانه وتعالى ، فهى تعطى صورة عكسية تماماً ، تعطى خير السيد للعبد ، وخيرات لا حدود لها [1] .

(١) يقول الشيخ حافظ الحكمى : العبد إن أريد به المعبَّد أى المذلَّل المسخَّر دخل فيه جميع المخلوقات من جميع العالم العلوى والسفلى ، من عاقل وغيره ، ومن رطب ويابس ، ومتحرك وساكن ، وظاهر وكامن ، ومؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، وغير ذلك ،الكل مخلوق لله عز وجل ، مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ، ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهى إليه ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يس : ٤٠] كل يجرى لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة ، ذلك تقدير العليم ، وتدبير العدل الحكيم .

وإن أريد به العابد خصّ ذلك بالمؤمنين ، وإن كان أكثر المشركين يعبدون الله عز وجل ، ويتقرّبون إليه بكثير من العبادات ، لكن لما عبدوا مع الله غيره ، وأشركوه معه فى إلهيته ، كانت أعمالهم هباء منثوراً : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، و ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٣٩] ، ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] . ذلك : ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٣٠] ، و ﴿ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٨] ، وتولوا الطاغوت فأخرجوهم من النور إلى الظلمات ، وعبدوا الشيطان ، وقد عهد الله إليهم أن لا يعبدوه ، وبين لهم عداوته وقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] . وقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .=

= فخالفوا أمر الله وتولّوا أعداءه ، وكذّبوا رسله وأنبياءه ، وحاربوا حزبه وأولياءه ، وأرادوا تشييد الكفر وإعلاءه ورد الحق وإبائه . فأبى الله عز وجل إلا أن يتم نوره ، ويظهر دينه ، ويعلى كلمته ، وينصر أولياءه ، ويحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ويجعل حزبه هم الغالبين ، ويجعل العاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . لكن المؤمنين هم عباده حقاً الذين أفردوه بإلهيته ، وربوبيته وأسمائه ، وصفاته ، ولم يشبّهوه بشئ من خلقه ، ولم يسووا شيئاً من خلقه به، أولئك الذين تضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، كما قال تعالى فى الأولى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وقال فى الثانية : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] وقال فى الثالثة : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۗ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] تولّوا الله فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمات الضلال إلى نور الهدي ، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الغى إلى نور الرشاد . ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] ملأ الله قلوبهم بنور معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه ، فلم تتسع لغيره ، دنا الشيطان من قلوبهم ، فاحترق بنور إيمانهم ، فتكمن على عقبه خاسئاً حسيراً ،وأبس منهم أن يطيعوه فانقلب مذموماً مدحوراً .فعند ذلك عزّى نفسه اللعين ، وقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٤٠] وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] حفظوا الله فحفظهم ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فلم ينكثوا أيمانهم ، تعرّفوا إلى الله فى الرخاء بالعبادة ، فعرفهم فى الشدة بالفرج ، صدقوا رسله وآمنوا بكتابه ، وانقادوا لأمره ، وانكفوا عما نهى عنه ، ثم تجردوا لنصرة دينه ، وجاهدوا بأموالهم ، =

= وأنفسهم فى سبيله ، ودخل الناس بذلك فى دين الله أفواجاً طوعا وكرهاً ، وقادوهم إلى الجنة بالسلاسل ، نصروا الله فنصرهم ، وشكروه فشكرهم ، وذكروه فذكرهم ، عرفوا ما خلقوا له فأقبلوا عليه ، ورأوا ما سواه مما لا يعنيهم فلم يلتفتوا إليه ، وأثروا ما يبقى على ما يفنى ، وتعلقت أرواحهم بالرفيق الأعلى ، أولئك هم خاصة الله من خلقه والمصطفون من عباده ، أولئك هم أولياؤه المتقون وحزبه الغالبون ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

ثم العبادة هى اسم جامع لكل ما يرضى الإله السامع

« ثم العبادة » التى خلق الله لها الخلق ، وأخذ بها عليهم الميثاق ، وأرسل بها رسله وأنزل كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار « هى اسم جامع لكل ما يحب ويرضى » مبنى للمعروف فاعله « الإله السامع » وهو الله عز وجل : من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ونصر المظلوم وتعليم الناس الخير ، والدعوة إلى الله عز وجل ؛ وغير ذلك .

والباطنة كالإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وخشية الله ، وخوفه ، ورجائه ، والتوكل عليه ، والرغبة والرهبة إليه ، والاستعانة به ، والحب والبغض فى الله ، والموالاة والمعاداة فيه ، وغير ذلك .

ثم اعلم أنها لا تقبل الأعمال الظاهرة ما لم يساعدها عمل القلب . ومناط العبادة هى غاية الحب مع غاية الذل ، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر ، ولذا قال من قال من السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد .

معارج القبول [٢/٤٣٥-٤٣٧] .

إذن .. فإن العبودية هنا شرف ، فكلما ازدادت العبودية ، كلما ازدادت من العطاء من الله سبحانه وتعالى ، تُخلص في العبودية ، فيفيض عليك أكثر عطائه سبحانه .

إذن .. فإن الحق سبحانه وتعالى حين قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ ﴾ ، أعطانا شبه الحيثية ، وكلمة ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ أيضاً حتى يمكن الرد على الذين قالوا : إنه أُسري به بالروح ، لأن كلمة « العبد » لا تطلق إلا على الروح والجسد ، هل يقال على الروح وحدها « عبد » ؟ ، لا يمكن ذلك ، ولا حتى على الجسد وحده ، وإنما يطلق على النفس حينما يوجد فيها المادة والروح .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ ابتدائية هنا ، في المسجد الحرام ، وبالطبع فإن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس ، ونحن نعرف قصته ، وقصة إبراهيم عليه السلام ، وما دام أول بيت وضع للناس ، وهو منطلق الدعوة ، ومحل الإقامة لرسول الله ﷺ .

إذن .. الإسراء منه إلى أين ؟ ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ أيضاً مشهد « مقدّس » من مشاهد الله في الأرض .

وقد يسأل سائل : هل كان المسجد الأقصى « بالمناسبة » مسجداً ، مع أنه لم يكن قد صلّى فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن مسجداً بالمعنى المفهوم ؟

أقول : ما معنى كلمة « مسجد » ؟ كلمة مسجد اسم مكان « لمكان السجود »[1] ، وإن كلمة السجود جاءت في كل الرسالات ، وهناك فرق

(١) يقول العلامة الراغب الأصفهاني : سجد : السجود أصله التطامن والذلل ، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته ، وهو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات ، وذلك ضربان : سجود باختيار ، وليس ذلك إلا للإنسان ، وبه يستحق الثواب =

بين الشيء حينما يستعمل وصفاً اشتقاقياً ، وبين أن يستعمل علماً ، هي بقيت علماً عندنا على المكان الخاص به ، إنما « المسجد » هو كل مكان يسجد فيه لله سبحانه وتعالى ، وهم اتخذوه أيضاً مسجداً لله سبحانه وتعالى ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قال لمريم : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝ ﴾ [آل عمران] فكأن « المسجد » موجود في كل الرسالات ،

= نحو قوله : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم : ٦٢] أي تذللوا له ، وسجود تسخير : وهو للإنسان والحيوانات والنبات وعلى ذلك قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد : ١٥] ، وقوله : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل : ٤٨] فهذا سجود تسخير ، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المتبعة على كونها مخلوقة ، وأنها خلق فاعل حكيم ، وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٩] ينطوي على النوعين من السجود ، والتسخير ، والاختيار ، وقوله : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : ٦] فذلك على سبيل التسخير ، وقوله : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، قيل : أمروا بأن يتخذوه قبلة ، وقيل : أمروا بالتذلل له ، والقيام بمصالحه ومصالح أولاده ، فأمروا إلا إبليس ، وقوله : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [البقرة : ٥٨] أي متذللين متقادين ، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة ، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشكر ، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق : ٤٠] أي أدبار الصلاة ، ويُسمّون صلاة الضُّحى : سُبْحَة الضُّحى ، وسجود الضُّحى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [ق : ٣٩] قيل أريد به الصلاة ، والمسجد موضع الصلاة اعتبارا بالسجود وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] قيل عنى به الأرض ، إذ قد جعلت الأرض كلها مسجدا وطهورا ، كما روى في =

وبينما يقص سبحانه وتعالى علينا قصة أهل الكهف فيقول : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] ، فكأن كلمة « المسجد » لم تأت مع الإسلام ، وإنما شاع استعمالها فى هذه الأماكن مع الإسلام ، وإلا فكل مكان يُسجد فيه لله سبحانه وتعالى يكون « مسجداً » .

ونأتى لقوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [الإسراء : ١] قلنا : إن المسجد الحرام هذا هو أول بيت وضع للناس ، ولكن يجب أن ندرك ذلك ، فإن بعض الناس تساءلوا : هل الذى بناه هو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ ونقول لهم : لا ، هو موضوع للناس ، إذن ، ما دام هو موضوع للناس ، فيكون واضعه غير الناس ، وما دام وجد ناس وآدم عليه السلام من الناس ، فلابد أن يكون هناك بيت لله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يكون هذا موضوعًا قبل وجود آدم عليه السلام .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ٩٦] وآدم من الناس ، وبنوه من الناس ، فيكون البيت قد وضع لهم ، وإنما إبراهيم فقط رفع القواعد من البيت .

= الخبر[1] ، وقيل المساجد مواضع السجود الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان ، وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ [النمل : ٢٥] أى يا قوم اسجدوا ، وقوله : ﴿ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : ١٠٠] أى متذللين ، وقيل : كان السجود على سبيل الخدمة فى ذلك الوقت سائغا . مفردات ألفاظ القرآن [٢٢٩] .

(١) عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « أُعطيت خمسًا لم يُعطهُنَّ أحد قبلى : نصرت بالرُّعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليُصلِّ ، وأُحلَّت لى الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلى ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصَّة ، وبُعثت للناس عامة .

أخرجه البخارى [٣٣٥ ، ٤٣٨] واللفظ له ، ومسلم [٥٢١] .

وإن إسماعيل عليه السلام قد ساعد أباه إبراهيم عليه السلام فى رفع قواعد البيت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

إذن .. لقد كان إسماعيل فى حال يعين فيها أباه على البناء ، لكن الحق سبحانه وتعالى يقص علينا فى سورة أخرى قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

فساعة الإسكان كانت هاجر وابنها الرضيع ، ولم تكن قواعد البيت الحرام رفعت بعد .

إذن .. ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ معلومة قبل أن يرفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت ، فيكون البيت ليس من وضع إبراهيم عليه السلام ، ولا من تأسيس إبراهيم عليه السلام ، فالبيت وضع من قبل إبراهيم عليه السلام ، وإبراهيم عليه السلام هو الذى رفع القواعد فقط ، ولأن الله قد قال له : اذهب عند البيت المحرم . قبل أن يكون البيت المحرم والذى رفع قواعده لما كبر إسماعيل[1] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ؛ يأتى شخص ليسأل : لماذا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؟ نقول : لأن الكعبة كانت قد انضمرت كبيت من بيوت الله سبحانه وتعالى ، ولم يعد لها هذا المظهر ، وسميت بعد ذلك « بيت العرب » وشحنت بالأصنام . هذا شىء .

(١) قال ابن كثير فى قصة بناء البيت العتيق :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ ﴾ [الحج] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] =

= وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة] . بذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم ، أنه بنى البيت العتيق ، الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس ؛ يعبدون الله فيه .

وبوأه الله مكانه ، أى أرشده إليه ودله عليه . وقد روينا عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب وغيره : أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل . وقد قدمنا فى صفة خلق السموات ، أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، بحيث أنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع ، كما قال بعض السلف : إن فى كل سماء بيتا ؛ يكون لأهل الأرض كذلك المعابد للملائكة السموات ، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك ، منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت فى الصحيحين[1] ، =

(١) عن أبى شريح أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبى ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى حين تكلم به : حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله =

= أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، ولم يجئ فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله ، المقرر فى قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم . وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ، ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تُصدق ولا تُكذب ، فلا يحتج بها . فأما إن ردها الحق فهى مردودة . وقد قال الله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] أى : أول بيت وضع لعموم الناس ؛ للبركة والهدى ، البيت الذى ببكة . قيل : مكة وقيل : محل الكعبة ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٩٧] أى : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده ، وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ؛ ولهذا قال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أى : الحجر الذى كان يقف عليه قائما ؛ لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة ، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأخره عن البيت قليلا ؛ لئلا يشغل المصلين عنده الطائفون بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا ، فإنه قد وافقه ربه فى أشياء ، منها فى قوله لرسول ﷺ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله : =

= ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب ، فقيل لأبى شريح : ما قال عمرو ؟ قال : أنا أعلم منك يا أبا شريح ، إن مكة لا تُعيذ عاصيا ولا فارا بدم ، ولا فارا بخربة .

أخرجه البخارى [٤٢٩٥،١٨٣٢،١١٢،١٠٤] واللفظ له ، ومسلم [١٣٥٣،١٣٥٤، ١٣٥٥] .

= ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] [البقرة : ١٢٥] ، وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام ، وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

ونور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... ورواق البر في حراء ونازل[2]

وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة ، فصارت على قدر قدمه حافية لا متعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ أي في حال قيامهما : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع ، في واد غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار =

(١) عن أنس قال : قال عمر : « وافقت ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ، وآية الحجاب ، قلت يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] نزلت هذه الآية » .

أخرجه البخاري [٤٠٢، ٤٤٨٣] واللفظ له ، وأخرجه مسلم [٢٣٩٩] مختصرا .

(٢) ثبير : الجبل الذي في الغار .

= والزروع والثمار ، وأن يجعله حرما محرما وأمنا محتما ، فاستجاب الله - وله الحمد - له مسألته ، ولبى دعوته وأتاه طلبته ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا ﴾ [القصص : ٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم ، أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة التصحيحة ؛ لتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له ، فبعث فيهم رسولا - وأي رسول - ختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم وصفاتهم ، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار ، إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ؛ لشرفه في نفسه وكمال من أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته ، وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده [1] ، وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده ؛ ولهذا استجاب إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض ، أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات ، ورفيع الدرجات عند البيت المعمور ، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المزور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه . ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور ، وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية ، فمن أراده فليراجعه ثم[2] ، ولله الحمد . فمن ذلك ما قال السدي : لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ، ثم لم يدريا أين مكانه ، حتى بعث الله ريحا يقال له : الخجوج ، لها جناحان ورأس في صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، واتبعاها بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساس =

(١) محتده : نسبه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير [١/٧٦١-٧٧١] .

= وذلك حين يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] قلما بلغا القواعد ، بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل : يابنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة ، كان آدم هبط به من الجنة ، فاسودّ من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند

الركن . فقال : يا أبتى من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك ، فبينا وهما يدعوان الله : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل ، وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه ، فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم : الله أمرنا به ، فقال : وما يدريني مما تقول ؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك ، فآمن وصدق .

وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت ، وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش ، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه اليوم .

وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد ابن أبى بكر أخبر ابن عمر عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك »[1] وفى رواية : « لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية »[2] وقال : « بكفر » لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ، =

(١) أخرجه البخارى [١٥٨٣] بلفظ : « ألم ترى أنّ قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم ؟ » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » وأخرجه مسلم [١٣٣٣/٣٩٩] .

(٢) أخرجه البخارى [١٥٨٦] عن عائشة بلفظ : « يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهُدم ، فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلتُ له بابين بابًا شرقيًا ، وبابًا غربيًا فبلغتُ به أساس إبراهيم » . ومسلم [١٣٣٣/٤٠١] .

وأما بيت المقدس فله قدسية مع موسى وعيسى وأنبياء بنى إسرائيل ، ورسول الله ﷺ لم يُبعث لقومه فقط ، أى : لم يخص العرب فقط ، كما يريدون هم أن يقولوا ، لا .. إن محمدًا ﷺ قد جاء برسالة عالمية ، فإسراؤه من مكة إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس فى المقدسات الإسلامية ، وهذه العملية توضح بأن الإسلام مهيمن على كل الدنيا ، وكل مقدسات الدنيا ، وكذلك أيضاً اتجهنا إليه أولاً ، فلا يأتى أحد ويقول : أنتم لكم دينكم ، ونحن لنا ديننا . لا ، من الصحيح أن ديننا قد جاء فى مكة ، ولكنه مهيمن على سائر الأرض ، وهذه المقدسات داخلة أيضاً فى مقدساتنا ، وأصبح بيت المقدس من مقدساتنا ؛ لأنه صار منتهى مسرى النبى ﷺ ، وبداية معراجه ﷺ .

كما إن حادثة الإسراء ، حادثة « أرضية » ومعنى أرضية :

أولاً : أنه كان هناك أناس فى بيت المقدس .

= وجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر . وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه ، على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين ، كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى ، وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدّوا الحائط ورددوا الأحجار فى جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرقي ، وسدّوا الغربى بالكلية ، كما هو مشاهد إلى اليوم ، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين تدموا على ما فعلوا وتأسّفوا ، أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك . ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير ، فقال له : إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة ، يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد ، فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

البداية والنهاية [١٥٣/١-١٥٥] .

ثانياً :-وأناس ذهبوا إلى بيت المقدس .

ثالثاً : وأناس رأوا بيت المقدس .

رابعاً : وأناس يعرفون الطريق إلى بيت المقدس .

وهكذا بقيت المسألة هى الإعجاز فى اختصار الزمن ، ولكن من الممكن أن يقام الدليل المادى للناس على صدقه فى هذا ؛ حين قالوا له : صف المسجد فوصف المسجد[1] !

(١) كانت حادثة الإسراء والمعراج فتنة كبيرة لكثير من الناس خاصة ضعاف الإيمان يقول ابن هشام : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر ، فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة!! قال : فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، هاهو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : « نعم » قال : يا نبى بالله ، صفه لى ، فإنى قد جئته ، قال الحسن : فقال رسول الله ﷺ : « فرُفع لى حتى نظرت إليه » فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى إذا انتهى ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « أنت يا أبا بكر الصديق » فيومئذ سماه الصِّدّيق .

سيرة ابن هشام [٢/٦-٧] .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذّبنى قريش فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه » .

أخرجه البخارى [٣٨٨٦] .

إن طلبهم لوصف المسجد من رسول الله ﷺ هو شهادة منهم بأنهم يعلمون جيداً بأنه ﷺ لم يذهب إلى هناك فى رحلاته ، ولو كانت عندهم شبهة فى أنه قد ذهب لما سألوه أى سؤال ؛ فمعنى طلبهم وصف المسجد أنهم متأكدون من عدم ذهابه إليه قبل ذلك ، فوصف لهم المسجد ، والذين يسمعونه قوم رأوا المسجد ، فقد وجدوا أن الوصف مطابق لما قال .

بعد ذلك يأتى أحدهم ليقول : ربما كان هناك إنسان « حاذق » قد وصف المسجد لرسول الله ﷺ ، ورسول الله نقل وصف المسجد عنه !

ولكنى أقول : لا ؛ وذلك لأن الأمر المادى ارتبط بتوقيت زمنى ، يستحيل فيه أن يكون ذلك ، كيف ؟ إن الطريق الذى يعود منه رسول الله ﷺ إلى مكة حدثت فيه أحداث ، والأحداث رآها رسول الله ، وحدّث بها القوم ، رأى جماعة ومعهم جمل وصفه كذا ، وتحدّث لهم عن كذا ، وكذا ، وقال لهم :حين يقبلون عليكم اليوم اسألوهم عما حدث[1] .

(١) عن شداد بن أوس قال : قلت يارسول الله كيف أسرى بك ليلة أسرى بك ؟ قال : « صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتما ، فأتانى جبريل ﷺ بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل ، فقال : اركب فاستصعب علىّ فداراها بأذنها ، ثم حملنى عليها ، فانطلقت تهوى بنا ، يقع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضًا ذات نخل ، فقال : انزل ، فنزلت ، ثم قال : صلّ فصليت ، ثم ركبنا ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ قالت : الله أعلم ، قال : صليت يثرب ، صليت بطيبة ، ثم انطلقت تهوى بنا ، يقع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضًا بيضاء ، فقال : انزل ، فنزلت ، ثم قال : صلّ ، فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدرى أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بمدين ، صليت عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوى بنا ، يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضًا بدت لنا قصورها ، فقال : انزل فنزلت ، ثم قال : صلّ فصليت ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، =

بالقوافل التي ستحضر ، فيجدون كما قال رسول الله ﷺ في الطريق .

إذن .. من الممكن أن يقام الدليل المادي الذي يقنع العقل ، على أن رسول الله ﷺ قد ذهب إلى بيت المقدس .

- قال : صليت بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام المسيح ابن مريم ، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني ، فأتى قبلة المسجد ،فربط دابته ، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس ، فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأتيت بإناءين ، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل ، أرسل إلي بهما جميعا ، فعدلت بينهما ، ثم هداني الله عز وجل ، فأخذت اللبن ، فشربت حتى قرعت به جبيني ، وبين يدي شيخ منكئ على مثراة له ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة ، إنه ليهدي ، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي في المدينة ، إذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي ، ، فقلنا : يا رسول الله كيف وجدتها ؟ فقال : ، مثل الحمة السخنة ، ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش ، بمكان كذا وكذا نفر أحلوا بعيرا لهم قد جمعهم فلان ،فسلمت عليهم ، فقال بعضهم : هذا صوت محمد ﷺ ،ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة ، فأتاني أبو بكر رضي الله عنه ، فقال : يارسول الله أين كنت الليلة ؟ فقد التمستك في مكانك ، فقال : أعلمت أني أتيت مسجد بيت المقدس الليلة ؟ فقال : يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي ، فتح لي مرآة كأني أنظر إليه لا يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم عنه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله ، وقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ، فقال : إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف القوم ينظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبل القوم يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ .

أخرجه الطبراني في الكبير [٧/٧١٤٢] ، والبيهقي في الدلائل [٢/٣٥٥] .

وبذلك فقد قام ﷺ الدليل في المكان الموصوف . وفي الطريق تكلم عن أمارات فيه ، لم توجد إلا في الوقت الذي مر فيه ، وما هذا إلا دليل على أنه صادق فيما قال ، وما دام صادقاً فيما قال ، فما هي إذن مسألة الزمن هذه ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد خرق له قانون الزمن ، فإذا اقتنعنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون الزمني بالاستدلال عليه بالأدلة المادية التي تعرفها ، ثم حدث بعد ذلك قائلاً : إنه خرق لي القانون ، فصعدت إلى السماء ، فيكون إيماناً بما كان تحت أيدينا من الحجج التي نعرفها ، يجعلها وسيلة إلى أن نصدق ونقول : إن الذي خرق له قانون المسافة ، فيما نعلم ، قادر على أن يخرق له قانون العلو فيما لا نعلم .

وحينئذ يكون الإسراء كمقدمة إيمانية للعقل البشري ، يصدّق الرسول ﷺ في أخباره عن المعراج ؛ لأن المسألة ستنتهي منها .

إن الله سبحانه وتعالى قد خرق له قانون الزمن وقانون المسافة ، وهو الفاعل ، وهو الحامل بقوته ، فيكون الذي فعل له ذلك – فيما نعلم بالاستدلال من الوصف ومن الطريق – قادرًا على أن يخرق له قانون السماء وقانون الجو ، وقانون كذا ، وقانون كذا ، فكأن حدث الإسراء كان مقدمة ؛ لتؤنس العقل بقبول حديث المعراج .

وهنا نقف وقفة ، فإن القرآن حينما تعرّض لحدث الإسراء ، تعرّض له صراحة ، وحينما جاء لحدث المعراج ، تعرض له كما يقولون التزاماً ؛ لأنه سبحانه وتعالى لم يقل : سبحان الذي عرج به من بيت المقدس إلى – مثلاً – سدرة المنتهى ، لم يقل هذا ، إنما قال لنا أشياء تستلزم أنه صعد .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ ﴾ [النجم].

إذن .. سدرة المنتهى ، والوقوف عندها ، يجب أن نعلم أن رسول الله ﷺ صعد .. لكن لماذا لم يأت بها نصاً ؟ قالوا : إن هذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه ، الأمر الذى أمكن رسول الله ﷺ أن يقيم الدليل المادى لسكان الأرض ، وقد أتى به صراحة حتى لا نعذر فى تبليغه [1] .

أما الأمر الذى قد تقف به العقول بعض الشىء ، فقد تركه سبحانه وتعالى لمدى يقينك الإيمانى ، أو مدى تسليمك بالمقدمة التى تلى النتيجة ؛ لأنك مادمت مؤمناً فستقول : « ما دام صنع به كذا فيما أعلم ، إذن هو يصنع به كذا فيما لا أعلم » ؛ لأنه حين يكون قد خرق له القانون ، فما المانع إذن ما دامت صيغة القانون هى هى .. أيكون قانون السماء صعب على الله سبحانه وتعالى ،

(١) عن أنس بن مالك قال : قال النبى ﷺ : « ... ثم انطلق بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، وغشيها ألوان لا أدرى ما هى ، ثم أُدخلت الجنة ، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » . جزء من حديث طويل أخرجه البخارى [٣٤٩] .

وعن أنس - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال : « ... ثم ذُهب بى إلى السدرة المنتهى[1] . وإذا ورقها كآذان الفيلة . وإذا ثمرها كالقلال . قال : فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها . فأوحى الله إلى ما أوحى .. » . جزء من حديث طويل أخرجه مسلم [٢٥٩/١٦٢] .

(١) « إلى السدرة المنتهى » : هكذا وقع فى الأصول ، السدرة بالألف واللام . وفى الروايات بعد هذا : سدرة المنتهى .

وقوانين الأرض ليست صعبة على الله سبحانه وتعالى ، فهو خالق كل شىء وخبير بكل النواميس ؟!

وهل المعجزات التى أمدّ الله سبحانه وتعالى بها رسله عليهم الصلاة والسلام إلا خرق لنواميس الكون ، وخرق لقوانينه ، وخرق لحقائقه الثابتة ؟ وما دامت هى خرق ، إذن فلايستبعد أن تحدث لرسول الله ﷺ .

وإلا فإن الفلاسفة مثلاً حينما قالوا : صحيح أنا مؤمن بأن هناك ربّا خالقاً لهذا الكون ، ولكنى أقول : إن الله خلق الكون ، وخلق حقائقه ، وترك الحقائق تعمل عملها ، فالنواميس[1] هى التى تعمل ، هذا معناه - بزعمهم الباطل - أن الله سبحانه وتعالى باشر سلطانه فى ملكه مرة واحدة ، فخلق

(١) يقول صاحب اللسان : الناموس : ما يُتنفس به الرجل من الاحتبال . والناموس : المكر والخداع . والتمسيس : التلبيس . والناس والناموس : دويبة أغبر كهيئة الفُرّة تلكع الناس . والناموس : فُرّة[1] الصائد التى يكمن فيها للصيد ؛ قال أوس ابن حجر :

فلاقى عليها من صباح مدثّراً ... لناموسه من الصُّفيح سقائف

قال ابن سيده : وقد يهمز ، قال : ولا أدرى ما وجه ذلك . والناموس : بيت الراهب . ويقال للفُرّة ناموس ؛ لأنه توارى تحت الأرض .

وفى حديث سعد : « أسد فى ناموسه »[2] ؛ الناموس : مكمن الصياد شبه به موضع الأسد . والناموس : وعاء العلم . والناموس : جبريل ،صلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم ، وأهل الكتاب يسمونه جبريل عليه السلام : الناموس . وفى حديث المبعث : أن خديجة ، رضوان الله عليها ، وصفت أمر النبى ﷺ لورقة ابن نوفل وهو ابن عمها ، وكان نصرانيا قد قرأ الكتب ، فقال : « إن كان =

(١) الفُرّة : البئر يحفرها الصائد يكمن فيها ، وجمعها فُرّ . لسان العرب [٧٢/٥] .

(٢) أخرجه ابن الأثير فى النهاية [١١٩/٥] .

لنعلم أن فوق القانون خالق القانون الذى يستطيع أن يجعل القانون يعمل ، ويستطيع أن يعطله فالمعجزات ، كل المعجزات التى حدثت للرسل خرق للنواميس ، وإلا فالقانون فى الماء السيولة والاستطراق ، وليس بإمكان موسى أن يضرب البحر بعصاه فيتجمد الماء ليعبر ومن معه ، ثم يضربه أخرى ليغرق فرعون ومن معه ، هذا ليس بإمكانه إنما بقدرة الخالق سبحانه [1] .

= ما تقولين حقاً فإنه ليأتيه الناموس الذى كان يأتى موسى عليه السلام »[1] ، وفى رواية : « إنه ليأتيه الناموس الأكبر »[2] .

أبو عبيد : الناموس صاحب سر الملك ، أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ، ويخصه بما يستره عن غيره .

ابن سيده : ناموس الرجل صاحب سره ، وقد تَمَسَ يتمس تَمْساً وتَامَسَ صاحبه متامسة وتَمَاسًا : ساره . وقيل : الناموس السِّر ، مثل به سيبويه وفسره السرافى . لسان العرب [٦/٢٤٣،٢٤٤] .

(١) يقول صديق خان : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء : ٦٣] وذلك أن الله عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ، ومتعلقة بفعل يفعله ، وإلا فضرب العصا ليس بفارق البحر ، ولا معيناً على ذلك بذاته ، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه ، وبه نجا موسى وبنو إسرائيل ، وهلك عدوهم ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ الفاء : فصيحة ، أى فضرب فصار فانشق اثنى عشر فلقاً بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ هو القطعة من البحر ، وقرئ « فِلْق » بالكلام بدل الراء ، =

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى [٣/٤٩٥٣،٦٩٨٦] ، ومسلم [١/١٦٠،٢٥٢] .
(٢) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد فى المسند [٤/١٩٨] .

السلام فى النار ،ليس المقصود منه نجاته ، وإلا لو كان المقصود نجاة إبراهيم عليه السلام ، لما أمكن الله سبحانه وتعالى الكفار من القبض عليه ، أو كان قد أرسل سحابة ممطرة - مثلاً - تطفئ النار ، ولكن المراد أن إبراهيم يُطرح فى النار ، وتظل النار ناراً ، إلا أن ناموس الإحراق يتعطّل فيها ، وإلا فلو انطفأت النار بالمطر ، لقال الكفار : إن لم يكن هذا المطر قد جاء ، لكنا قد أحرقناه . لا ، فقد أمسكوا به وقيدوه ، ورموا به فى النار ، والنار تظل ناراً ، ومع ذلك لا تحرق .. هذا هو خرق الناموس .

مادام الحق هو الذى يخرق الناموس ، ويخرق سبحانه الناموس متى شاء ، فيكون الذى آمن بأن رسول الله ﷺ أُسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، واستطاع أن يقيم الدليل المادى الأرضى على ذلك ، وجب عليه الإيمان بالمعراج دون دليل مادي ، وإلا ففى المعراج ما يؤكد من الذى صعد إلى السماء ليعطى أماراتها ؟

هل سيقولون له :صف لنا سدرة المنتهي ؟ وصف لنا الطريق إليها ؟ هم لا يعرفون شيئاً عن سدرة المنتهي ، ولا يعرفون وصف الطريق إليها ، والحق سبحانه وتعالى رحمة بنا ؛ جعل النص على الإسراء الذى يقام عليه الدليل المادي ؛ لأنه أرضيٌ بالنص الصريح ، وجعل المعراج بالالتزام لأنه سماوى[1] .

= ﴿ كَٱلطَّوْدِ ﴾ كالجبل أو عظيمه ، والجمع أطواد ، يقال : طَاد ، يطود إذا ثبت ، ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ :أى الضخم بينها مسالك سلكوها ، لم يبلّ منها سرج الراكب ولا لبده ، قاله ابن عباس وابن مسعود . فتح البيان [٦/٣٨٤،٣٨٥] .

(١) سدرة المنتهى : ذكرنا ما أخرجه البخارى من حديث مالك بن صعصعة فى سدرة المنتهى فى شواهد الباب وشواهد البيت المعمور . وضبط قوله : « رفعت » مرة بفتح العين وسكون التاء ، ومرة بسكون العين وضم التاء . =

= قال الحافظ رحمه الله : ويجمع بين الروايتين ، بأن المراد أنه رفع إليها ؛ أى ارتقى به وظهرت له . والرفع إلى الشيء يطلق على التقريب منه . وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٤] : أى تقرب لهم .

ووقع بيان سبب تسميتها سدرة المنتهى فى حديث ابن مسعود عند مسلم ولفظه : لما أسرى برسول الله ﷺ قال : « انتهى بى إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة [1] ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط فيقبض منها » . وقال النووى : سُمِّيَتْ سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهى إليها ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ .

قلت : وهذا لا يعارض حديث ابن مسعود المتقدم . لكن حديث ابن مسعود ثابت فى الصحيح ، فهو أولى بالاعتماد ، قلت : وأورد النووى هذا بصيغة التمريض فقال : وحكى عن ابن مسعود أنها سميت بذلك .. إلخ . هكذا أورده ، فأشعر بضعفه عنده ، لاسيما ولم يصرح برفعه ، وهو صحيح مرفوع .

وقال القرطبى فى « المفهم » : ظاهر حديث أنس أنها فى السابعة ، لقوله بعد ذكر السماء السابعة : « ثم ذهب بى إلى السدرة » وفى حديث ابن مسعود أنها فى السادسة ، وهذا تعارض لا شك فيه ، وحديث أنس هو قول الأكثر ، وهو الذى يقتضيه وصفها بأنها التى ينتهى إليها علم كل نبى مرسل ، وكل ملك مقرب ، على ما قال كعب ، قال : وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله ، أو من أعلمه ، وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد . =

(١) وهو معارض للحديث الصحيح الذى جاء فيه أن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، وقد حاول ابن حجر رحمه الله الجمع بين الروايتين بما يفيد : أن أصل سدرة المنتهى فى السماء السادسة ، وأن أغصانها وفروعها فى السماء السابعة .

قلت : والسدرة « شجرة النبق » وقد صح فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة » أخرجه البخارى [٣٨٨٧] .

= وقال غيره : إليها منتهى أرواح الشهداء . قال : ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع ، وحديث ابن مسعود موقوف . كذا قال ولم يعرج على الجمع ، بل جزم بالتعارض .

قلت : ولا يعارض قوله : إنها فى السدسة ما دلت عليه بقية الأخبار ، أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة ؛ لأنه يحمل على أن أصلها فى السماء السادسة ، وأغصانها وفروعها فى السابعة ، وليس فى السادسة منها إلا أصل ساقها .

وفى حديث أبى ذر : « فغشيها ألوان لا أدرى ما هى » وبقية حديث ابن مسعود المذكور : « قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم : ١٦] قال : فراش من ذهب » كذا فسر المبهم فى قوله : ﴿ مَا يَغْشَى ﴾ بالفراش .

ووقع فى رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس : « جراد من ذهب » قال البيضاوى : وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل ؛ لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه ، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها فى نفسها . انتهى .

ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة ، ويخلق فيها الطيران ، والقدرة صالحة لذلك .

وفى حديث أبى سعيد وابن عباس : « يغشاها الملائكة » .

وفى حديث أبى سعيد عند البيهقى : « على كل ورقة منها ملك » .

ووقع فى رواية ثابت عن أنس عند مسلم : « فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها » .

وفى رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه نحوه ، لكن قال : « تحولت قوتا » ونحو ذلك .

قال ابن دحية : اختيرت السدرة دون غيرها ؛ لأن فيها ثلاثة أوصاف : ظل ممدود ، وطعام لذيذ ، ورائحة زكية .

فكانت بمنزلة الإيمان الذى يجمع القول والعمل والنية . والظل بمنزلة العمل ، والطعم بمنزلة النية ، والرائحة بمنزلة القول .

فتح البارى [٧/٦١٤:٦١٥] .

إذن .. إن آية الإسراء كانت إيذاناً لعملية الإيمان بالمعراج ، فالله سبحانه وتعالى الذى خرق القانون لمحمد ﷺ فى المسافة والزمن ، خرق له القانون فى العروج للسماوات السبع[1] ، ولما لم يكن أحد قد صعد إلى سدرة المنتهى ، ولما لم يكن أيضاً فى الطريق إلى سدرة المنتهى قافلة ما ، فلا يمكن أبداً أن ينام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك إلا بصفة أمر حتمى له ، وهو الإسراء .

(١) البراق وأوصافه : وقوله فى الحديث فى صفة البراق : « يضع خطوه عند أقصى طرفه »

بسكون الراء وبالقاف : أى نظره ، أى يضع رجله عند منتهى ما يرى ببصره . وفى حديث ابن مسعود عند أبى يعلى والبزار : « إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت يداه »[1] ، وفى رواية لابن سعد عن الواقدى بأسانيده : « له جناحان » ولم أرها لغيره . وعند الثعلبى بسند ضعيف عن ابن عباس فى صفة البراق : « لها خد كخد الإنسان ، وعرف كالفرس ، وقوائم كالإبل ، وأظلاف ، وذنب كالبقر ، وكأن صدره ياقوته حمراء » .

قيل : ويؤخذ من ترك تسمية سير البراق طيرانًا ، أن الله إذا أكرم عبداً بتسهيل الطريق له ، حتى قطع المسافة الطويلة فى الزمن اليسير ، أن لا يخرج ذلك عن اسم « السفر » وتجرى عليه أحكامه . والبراق – بضم الموحدة وتخفيف الراء – : مشتق من البريق . فقد جاء فى لونه أنه أبيض ، أو من البرق ، لأنه وصفه بسرعة السير ، أو من قولهم شاة برقاء ، إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سود . ولا يتفيه وصفه فى الحديث ، بأن البراق أبيض ، لأن البرقاء من الغنم معدودة فى البياض . ويحتمل أن لا يكون مشتقاً . قال ابن أبى جمرة : خص البراق بذلك ، إشارة إلى الاختصاص به ، لأنه لم ينقل أن أحداً ملكه ، بخلاف جنسه من الدواب . قال : =

(١) أخرجه أبو يعلى رقم [٥٢٩٤،٥٠٣٦] ، والبزار [٥٩ – كشف] بدون تصريح بالإسراء .

والقصرة كانت صالحة لأن يصعد بنفسه من غير براق ، ولكن ركوب البراق كان زيادة له فى تشريفه ، لأنه لو صعد بنفسه لكان فى صورة ماش ، والراكب أعز من الماشى[1] .

قوله : « فحملت عليه » « يعنى فى رواية ابن صعصعة » : فى رواية لأبى سعيد فى « شرف المصطفى » : « فكان الذى أمسك بركابه جبريل ، وبزمام البراق ميكائيل » . وفى رواية معمر عن قتادة عن أنس : « أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، أتى بالبراق مسرجًا ملجماً ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : ما حملك على هذا ؟ فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه . قال : فارفض عرقاً » . أخرجه الترمذى[2] وقال : حسن غريب . وصححه ابن حبان .

وذكر ابن إسحاق عن قتادة : « أنه لما شمس ، وضع جبريل يده على معرفته فقال : أما تستحى ؟ » فذكر نحوه مرسلاً ، لم يذكر أنساً ، وفى رواية وثيمة عن ابن إسحاق : « فارتعشت حتى لصقت بالأرض ، فاستويت عليها » . وللنسائى وابن مردويه من طريق يزيد بن بن مالك : عن أنس نحوه موصلاً ، وزاد : « وكانت تسخر للأنبياء قبله » . ونحوه فى حديث أبى سعيد عند ابن إسحاق .

وفيه دلالة على أن البراق كان معدًا لركوب الأنبياء ، خلافاً لمن نفى ذلك ، كابن دحية ، وأول قول جبريل : « فما ركبك أكرم على الله منه » ؛ أى ما ركبك =

(١) انظر بهجة النفوس لابن أبى جمرة [٣/١٨٥-١٨٦] .

(٢) أخرجه الترمذى [٣١٣١] قال : حدثنا إسحاق بن منصور أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ ليلة أسرى به أتى بالبراق مسرجا ملجما .. الحديث : وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٠٣] : صحيح الإسناد .

وأخرجه عبد الرزاق فى « تفسيره » [٢/٣٧٢] من طريق معمر عن قتادة به .

ورواه الآجرى فى « الشريعة » [ص٤٨٨] من طريق محفوظ بن أبى توبة قال حدثنا عبد الرزاق به .

= أحد قط ، فكيف بركبك أكرم منه . وقد جزم السهيلي أن البراق ، إنما استصعب عليه ليعد عهده بركوب الأنبياء قبله . قال النووي : قال الزبيدي في « مختصر العين » ، وتبعه صاحب « التحرير » : كان الأنبياء يركبون البراق . قال : وهذا يحتاج إلى نقل صحيح (١) .

قلت : قد ذكرت النقل بذلك ، ويؤيده ظاهر قوله : « فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء » . ووقع في « المبتدأ » لابن إسحاق ، من رواية وهيمة في ذكر الإسراء : « فاستصعبت » البراق ، وكانت الأنبياء تركبها قبلي ، وكانت بعيدة العهد بركوبهم ، لم تكن ركبت في الفترة » . وفي « مغازي بن عائذ » من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال : « البراق : هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسماعيل » .

وفي الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه « أن جبريل أتى النبي ﷺ بالبراق ، تحمله بين يديه » . وعند أبي يعلى والحاكم من حديث ابن مسعود رفعه : « أتيت بالبراق ، فركبت خلف جبريل » . وفي حديث حذيفة عند الترمذي والنسائي : « فما زايلا ظهر البراق » . وفي « كتاب مكة » للفاكهي والأزرقي : « أن إبراهيم كان يحج على البراق ، وفي أوائل الروض للسهيلي أن إبراهيم حمل هاجر على البراق لما سار إلى مكة بها وبولدها » فهذه آثار يشد بعضها بعضًا . وجاءت آثار أخرى تشهد لذلك لم أر الإطالة بإيرادها .

ومن الأخبار الواهية في صفة البراق ، ما ذكره الماوردي عن مقاتل ، وأورده القرطبي في « التذكرة » ، ومن قبله الثعلبي من طريق ابن الكلبي : عن أبي صالح عن ابن عباس قال : « الموت والحياة جسمان ، فالموت كبش لا يجد ريحه شيء إلا مات ، والحياة فرس يلقاء أنثى ، وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها ، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حي » .

(١) انظر كلام النووي في شرحه لصحيح مسلم [١/٤٩٦] .

= ومنها : أن البراق لما عاتبه جبريل قال له معتذرًا : إنه مس الصفراء اليوم ، وإن الصفراء صنم من ذهب كان عند الكعبة ، وإن النبي ﷺ مر به فقال : « يا لمن يعبدك من دون الله » وإنه ﷺ نهى زيد بن حارثة أن يمسه بعد ذلك ، وكسره يوم فتح مكة .

قال ابن المنير : إنما استصعب البراق تيهاً وزهواً بركوب النبي ﷺ ، وأراد جبريل استنطاقه ، فلذلك خجل وارتفض عرقاً من ذلك ، وتريب من ذلك وخلفه الجبل به ، حتى قال له : « اثبت ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد » ، فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب . ووقع في حديث حذيفة عند أحمد قال : « أتى رسول الله ﷺ بالبراق ، ثم بزايل ظهره هو وجبريل ، حتى انتهيا إلى بيت المقدس » . فهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد ، ويحتمل أن يكون قوله « هو وجبريل » يتعلق بمرافقته في السير ، لا في الركوب ، قال ابن دحية وغيره : معناه : وجبريل قائد أو سائق أو دليل . قال : وإنما جزمنا بذلك ، لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ فلا مدخل لغيره فيها .

قلت : ويرد التأويل المذكور : أن في « صحيح » ابن حبان من حديث ابن مسعود : « أن جبريل حمله على البراق رديفًا له » . وفي رواية الحارث في « مسنده » : « أتى بالبراق فركب خلف جبريل ، فسار بهما » ، فهذا صريح في ركوبه معه ، فالله أعلم .

وأيضًا فإن ظاهره أن المعراج وقع للنبي ﷺ إلى أن صعد السماوات كلها ، ووصل إلى ما وصل ، ورجع وهو على حاله ، وفيه نظر لما سأذكره . ولعل حذيفة إنما أشار إلى ماوقع في ليلة الإسراء المجردة التي لم يقع فيها معراج على ما تقدم من تقرير وقوع الإسراء مرتين .

فتح الباري [٧/٦٠٦ - ٦٠٨] .

... ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ فكأن الفعل هنا إراءة ، وما هي الإراءة ؟ إن الإراءة هي أن تجعل من لا يرى يري ، وذلك إما بتحويل المرئي إلى قانون الرائي ، أو بنقل الرائي لأن ينفذ إلى قانون المرئي .

ويمكننا إيضاحاً لذلك أن نقول :

هناك الميكروب الذي يُكتشف ، الميكروب كان موجوداً قبل أن يُكتشف ، وليس معنى اكتشافه أنهم أوجدوه من عدم ، ولكنه كان موجوداً دون أن يكون للحس طريق إليه ، فلما اخترعت المجاهر أمكن للذي لا يُرى أن يُري .. يُرى بماذا ؟ يُرى بعملية تحويل ، وهي أننا أتينا بعدسة تكبر لنا الأشياء ، فما لم يكن يُرى أولا ، أصبح يُرى الآن .

ومثلاً : يذهب المريض ببصره إلى طبيب مختص ، والطبيب بدوره يأمره بعمل نظارة ، والنظارة تكبر له الأشياء ، فما لم يكن يراه أولا رآه ثانيا ، وقد يجرى له عملية جراحية في عينيه ، بحيث لا يحتاج إلى هذه النظارة ، فإذا لم يكن في حاجة إلى هذه النظارة ليري ، يقال : رأى هو .

إذن .. الإراءة إما أن تكون بتغير ما فيه إلى قانون الرائي فيري ، أو بإعطاء شيء في المرئي ليُرى بذاته ، فلما جاء في حادث الإسراء ، قال : ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ ؛ لأن محمدًا ﷺ على الأرض ، وبشرى بقانون البشرية ، وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد ، فإذا كانت هناك آيات من غيب الله في الأرض ، فلابد أن يحدث له إراءة ؛ لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء ، فالإراءة إذن كانت هناك في الأرض ، ولكن حينما ينتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ويلتقي بالأنبياء الذين ماتوا قبله ، ويلتقي

بمعلوماته ، وما .. عند تغير شيء في ذاته محمد ﷺ ، وذاته صرح البشرية ، وأخذ شيئاً من الملائكية التي ترى بنفسها .

فلما صعد إلى السماء ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ ﴾ ، ولم يقل ؛ « أريناه » ، ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٨] ، ففي آية الإسراء : ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي « أريناه » ، وفي آيات السماء في « المعراج » قال : ﴿ رَأَىٰ ﴾ ، فكأن الرسول ﷺ في بشريته في الأرض ، كان محتاجاً إلى أن يعدل القانون في ذاته ، بالنسبة إلى الرائي والمرئي ، وأما في السماء فقد أخذ وضعاً آخر ، وهذا الوضع الآخر أصبح بذاته « يرى » ؛ لأنه أصبحت هناك ملائكية ، فالبشرية طرحت في الأرض ، أما الملائكية أصبحت هي المسيطرة على رسول الله ﷺ ، فأصبح « يرى » ، لكن في الأرض كانت « إراءة » .

إذن .. يمكننا أن نقول : إن رسول الله ﷺ في هذه المسألة تعرض لثلاث مراحل[1] :

(١) ثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة ، كما أخرجه أبو نعيم في « الدلائل[1] » ، ولكل منهما حكمة . فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس : « فأخرج علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك » . وكان هذا في زمن الطفولية ، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان . =

(١) أخرجه أبو نعيم في « الدلائل » [١/٢١٩-٢٢٠] وقال : وهذا الحديث مما تفرد به معاذ ابن محمد ، وتفرد بذكر السن الذي شق فيه عن قلبه » .

قلت : وهذا سند ضعيف ، معاذ بن محمد بن أبي بن كعب ، لا يحتج به ، وأبوه : مجهول .

وكذا حديث أنس بن مالك من رواية شريك عنه ، قد أنكر العلماء على شريك هذه الرواية وخصوصًا قوله : « قبل أن يوحى إليه » .

فدل هذا على أنه شق صدر النبي ﷺ قد وقع مرتين فقط .

الأولى في طفولته ، والثانية بعد الوحي وليلة الإسراء وهذا هو الراجح .

= ثم وقع شق الصدر عند البعث ، زيادة فى إكرامه ، ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى ، فى أكمل الأحوال من التطهير .

ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ، ليتأهب للمناجاة . ويحتمل أن تكون الحكمة فى هذا الغسل : لتقع المبالغة فى الإسباغ بحصول المرة الثالثة ؛ كما تقرر فى شرعه ﷺ ويحتمل أن تكون الحكمة من انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره ، وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها .

وجميع ما ورد فى شق الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك . قال القرطبى فى « المفهم » : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء ، لأن رواته ثقات مشاهير .. ثم ذكر نحو ما تقدم .

وقال الحافظ فى موضع آخر : ثبت شق الصدر ليلة الإسراء كذلك ، فى غير رواية شريك فى « الصحيحين » من حديث أبي ذر . ووقع أيضاً عند البعثة ، كما أخرجه أبوداود الطيالسى فى « مسنده »[1] وأبو نعيم والبيهقى فى « دلائل النبوة » وذكر أبو بشر الدولابى بسنده : أنه ﷺ رأى فى المنام أن بطنه أخرج ، ثم أعيد ، فذكر ذلك لخديجة .. الحديث . ووقع شق الصدر الكريم أيضا فى حديث أبى هريرة حين كان ابن عشر سنين ، وهو عند عبد الله بن أحمد فى « زيادات المسند »[2] . =

(١) أخرج أبو داود الطيالسى فى مسنده [١٥٣٩] بسنده عن رجل عن عائشة رضى الله عنها . أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهرا بحراء فوافق ذلك شهر رمضان .. الحديث ، وفى إسناده رجل مبهم .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فى « زوائد المسند » [٥/١٣٩] . وأبو نعيم فى « الدلائل » [١٦٦] كلاهما من طريق معاذ بن محمد بن أبى بن كعب ثنى أبى محمد بن معاذ عن معاذ بن محمد .. الحديث . ومعاذ بن محمد لا يحتج به ، وأبوه مجهول كما سبق .

المرحلة الأولى : كان بشرا .. وجبريل عليه السلام يعرض على محمد ﷺ الأنبياء ، ثم يقول : ما هذا يا جبريل ؟ فيقول : هذا كذا وكذا [1] .

= ووقع فى « الشفاء » أن جبريل قال : لما غسل قلبه : « قلب سديد فيه عينان تبصران وأذنان تسمعان »[1] . فتح البارى [١٥/٤٥٢] .

(١) وصول الرسول ﷺ إلى السماء الدنيا :

قوله : « فانطلق بى جبريل » : وفى رواية بدء الخلق : « فانطلقت مع جبريل » ، ولا مغايرة بينهما . بخلاف مانحا إليه بعضهم من أن « رواية بدء الخلق » تشعر بأنه ما احتاج إلى جبريل فى العروج ، بل كانا معا بمنزلة واحدة . لكن معظم الروايات جاءت باللفظ الأول ، وفى حديث أبي ذر « عند البخاري فى أول الصلاة : « ثم أخذ بيدى فعرج بي » . والذى يظهر أن جبريل فى تلك الحالة ، كان دليلاً له ، لذلك جاء سياق الكلام يشعر بذلك .

وقوله : « حتى أتى السماء الدنيا » ، ظاهره أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء ، وهو مقتضى كلام ابن أبى جمرة المذكور قريباً . وتمسك به أيضًا من زعم أن المعراج كان فى ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس ، فأما العروج ففى غير هذه الرواية – يعنى غير رواية مالك بن صعصعة – من الأخبار ، أنه لم يكن على البراق ، بل وفى المعراج : وهو السلم ، كما وقع مصرحاً به فى حديث أبى سعيد عن ابن إسحاق والبيهقى فى « الدلائل » ، ولفظه : « فإذا أنا بدابة كالبغل مضطرب الأذنين ، يقال له : البراق ، وكانت الأنبياء تركبه قبلى فركبته .. » فذكر الحديث . قال : « ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصليت ، ثم أتيت بالمعراج »[2]. =

(١) انظر « الشفاء » [١/٧٣٣] وقد عزاه المحققون إلى الدارمى وأبى نعيم فى الدلائل .

(٢) أخرج هذا الحديث البيهقى فى « دلائل النبوة » [٢/٣٩٣، ٣٩٤] من طرق : عن أبى هارون العبدى – عمارة بن جوين – عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ « أنه قال لبعض أصحابه : يا رسول الله ﷺ أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها .. الحديث . حديث موضوع . آفته أبو هارون العبدى – عمارة بن جوين – وهو متهم . =

المرحلة الثانية : لما صعد إلى السماء كان يرى المرائي ، فلا يستفهم من جبريل عنها ، ويسمع فيفهم ، إذن فقد تحول شيء في ذاتية محمد ﷺ ؟

= وفي رواية ابن إسحاق : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لمّا فرغت مما كان في بيت المقدس ، أُتي بالمعراج ، فلم أرَ قطُّ شيئًا كان أحسنَ منه ، وهو الذي يمد إليه الميتُ عينيه إذا حضر . فأصعدني صاحبي فيه ، حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبواب السماء ... » الحديث .

وفي رواية كعب : « فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب ، حتى عرج هو وجبريل » . وفي رواية لأبي سعيد في « شرف المصطفى » : « أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس ، وأنه منضد باللؤلؤ ، وعن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة » .

وأما الحتج بالتعدد فلا حجة له ، لاحتمال أن يكون التقصير في ذلك الإسراء من الراوي ، وقد حفظه ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال : « أتيت بالبراق .. فوصفه . قال : فركبته ، حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءني جبريل بإناءين .. » فذكر القصة . قال : « ثم عرج بي إلى السماء » وحديث أبي سعيد دال على الاتحاد .

وقوله في رواية ثابت : « فربطته بالحلقة » ، أنكره حذيفة . فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال : « تحدثون أنه ربطه ، أخاف أن يفر منه ، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة ؟ » قال البيهقي : المثبت مقدم على النافي ، يعني من أثبت =

= قلت : وقد صح بسند ثابت عن بعض الصحابة ما يثبت أن النبي ﷺ قد رأى في معراجه الجنة والنار ووعد الآخرة ، ولكن لم يرد في هذه الأحاديث الصحيحة شيء من هذه المشاهد التي ذكرت في حديث أبي سعيد الخدري . ولكن ورد عن النبي ﷺ أنه رأى في منامه مرورًا من عذاب أهل النار وكان ذلك في غير حادثة الإسراء ، ولذلك فلا يستبعد أن يكون أبو هارون العبدي - وهو كذاب - قد سرق هذا المتن وزاد عليه أشياء ورواه من حديث أبي سعيد الخدري وهذا متاح والله أعلم .

= ربط البراق والصلاة في بيت المقدس ، معه زيادة علم على من نفى ذلك ، فهو أولى بالقبول .

ووقع في رواية بريدة عند البزار : « لما كان ليلة أسري به ، فأتى جبريل الصخرة التي بيت المقدس ، فوضع إصبعه فيها ، فخرقها ، فشد بها البراق » . ونحوه للترمذي .

وأنكر حذيفة أيضًا في هذا الحديث ، أنه صلى في بيت المقدس ، واحتج بأنه لو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه ، كما كتب عليكم الصلاة في البيت العتيق . والجواب عنه : منع التلازم في الصلاة إن كان أراد بقوله : « كتب عليكم » الفرض . وإن أراد التشريع فنلتزمه . وقد شرع النبي ﷺ في بيت المقدس ، فقرنه بالمسجد الحرام ومسجده في شد الرحال ، وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث .

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي : « حتى أتيت بيت المقدس ، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها - وفيه - : - فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين » . وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه نحوه ، وزاد : « ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ، من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أقيمت الصلاة فأممتهم » . وفي رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم : « فلم ألبث إلا يسيرًا حتى اجتمع ناس كثير ، ثم أذن مؤذن ، فأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدي جبريل ، فقدمني فصليت بهم » . وفي حديث ابن مسعود عند مسلم : « وحانت الصلاة فأممتهم » . وفي حديث ابن عباس عند أحمد : « فلما أتى النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي ، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه » . وفي حديث عمر عند أحمد أيضا : أنه لما دخل بيت المقدس قال : أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ ، فتقدم إلى القبلة فصلى . قال عياض : يحتمل أن يكون صلى بالأنبياء جميعاً في بيت المقدس ، ثم صعد منهم إلى السماوات من ذكر أنه ﷺ رآه . ويحتمل أن تكون صلاته بهم بعد أن هبط من السماء ، فهبطوا أيضًا . وقال غيره : رؤيته إياهم في السماء محمولة =

على رؤية أرواحهم إلا عيسى ، لما ثبت أنه رفع بجسده ، وقد قيل فى إدريس أيضًا ذلك . وأما الذين صلوا معه فى بيت المقدس ، فيحتمل الأرواح خاصة ،ويحتمل الأجساد بأرواحها . والأظهر أن صلاته بهم ببيت المقدس كانت قبل العروج ، والله أعلم .

فتح البارى [٦٠٨/٧-٦١٠] .

وقال الحافظ فى موضع آخر : وقد اختلف فى الحكمة فى اختصاص الأنبياء كل منهم بالسماء التى التقاه بها . فقيل :ليظهر تفاضلهم فى الدرجات . وقيل : لمناسبة تتعلق بالحكمة فى الاقتصار ، على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء . فقيل : أمروا بملاقاته ، فمنهم من أدركه فى أول وهلة ، ومنهم من تأخر فلحق ، ومنهم من فاته ، وهذا زيفه السهيلى فأصاب .

وقيل : الحكمة فى الاقتصار على هؤلاء المذكورين ، للإشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه ، من نظير ما وقع لكل منهم . فأما آدم فوقع التشبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض ، بما سيقع للنبى ﷺ من الهجرة إلى المدينة . والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة وكراهة فراق ما ألفه من الوطن ، ثم كان مآل كل منهما أن يرجع إلى موطنه الذى أخرج منه .

وبعيسى ويحيى على ما وقع له من أول الهجرة من عداوة اليهود وتمادبهم على البغى عليه ، وإرادتهم وصول السوء إليه ، وبيوسف على ما وقع له من إخوته من قريش فى نصبهم الحرب له ، وإرادتهم هلاكه ، وكانت العاقبة له ، وقد أشار إلى ذلك بقوله لقريش يوم الفتح : « أقول كما قال يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وبإدريس على رفيع منزلته عند الله . وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه . وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه . وقد أشار إلى ذلك بقوله : « لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر » .

وبإبراهيم فى استناده إلى البيت المعمور بما ختم له فى آخر عمره من إقامة مناسك الحج وتعظيم البيت .

وهذه مناسبات لطيفة أبداها السهيلي ، فأوردتها منقحة ملخصة [1] .

وقد زاد ابن المنير فى ذلك أشياء أضربت عنها ، إذ أكثرها فى المفاضلة بين الأنبياء ، والإشارة فى هذا المقام عندى أولى من تطويل العبارة . وذكر فى مناسبة لقاء إبراهيم فى السماء السابعة معنًى لطيفاً جدًا ، وهو ما اتفق له ﷺ من دخول مكة فى السنة السابعة وطوافه بالبيت ، ولم يتفق له الوصول إليها بعد الهجرة قبل هذه ، بل تصدها فى السنة السادسة فصدوه عن ذلك .

قال ابن أبى جمرة : الحكمة من كون آدم فى السماء الدنيا ؛ لأنه أول الأنبياء وأول الآباء ، وهو أصل ، فكان أولاً فى الأولى ، ولأجل تأنيس الذرية بالأبوة . وعيسى فى الثانية لأنه أقرب الأنبياء عهدًا من محمد ، ويليه يوسف ؛ لأن أمة محمد تدخل الجنة على صورته ، وإدريس فى الرابعة لقوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٧] ، والرابعة من السبع وسط معتدل . وهارون لقربه من أخيه موسى . وموسى أرفع منه لفضل كلام الله . وإبراهيم ؛ لأنه الأب الأخير ، فناسب أن يتجدد للنبى ﷺ بلقيه أنس ، لتوجهه بعده إلى عالم آخر . وأيضًا ، فمنزلة الخليل تقتضى أن تكون أرفع المنازل ، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته ؛ فلذلك ارتفع النبى ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى .

فتح البارى [٦١٢/٧، ٦١٣] .

لقاء النبى ﷺ بالأنبياء فى السماء :

قال الحافظ ابن حجر : واختلف فى حال الأنبياء عند لقى النبى ﷺ إياهم ليلة الإسراء هل أسرى بأجسادهم لملاقاة النبى ﷺ تلك الليلة ، أو أن أرواحهم مستقرة فى الأماكن التى لقيهم النبى ﷺ بها ، وأرواحهم مشكلة بشكل أجسادهم ، =

(١) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلى [٤٥٠/٢] تحت عنوان لقاؤه للنبيين .

= كما جزم به أبو الوفاء بن عقيل ؟ واختار الأول بعض شيوخنا ، واحتج بما ثبت فى مسلم عن أنس : أن النبى ﷺ قال : « رأيت موسى ليلة أسرى بى قائماً يصلى فى قبره » ، فدل على أنه أسرى به لما مر به ، قلت : ليس ذلك بلازم ، بل يجوز أن يكون لروحه اتصال بجسده فى الأرض ، فلذلك يتمكن من الصلاة وروحه مستقرة فى السماء .

أما منازلهم ، فالذى أشكل رواية أنس عن أبى ذر وقول أنس : فذكر أنه وجد فى السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا وإبراهيم فى السماء السادسة ثبت حمل على أنه البيت الذى فى السادسة بجانب شجرة طوبى ؛ لأنه جاء عنه : أن فى كل سماء بيتاً يحاذى الكعبة ، وكل منها معمور بالملائكة .

فتح البارى [٦١٤/٧-٦١٥] .

وقال الحافظ فى موضع آخر : وقد توافقت « رواية قتادة عن أنس عن مالك ابن صعصعة » مع رواية ثابت عن أنس عند مسلم : أن فى الأولى آدم وفى الثانية يحيى وعيسى وفى الثالثة يوسف وفى الرابعة إدريس وفى الخامسة هارون وفى السادسة موسى وفى السابعة إبراهيم .

وخالف ذلك الزهرى فى روايته عن أنس عن أبى ذر : أنه لم يثبت أسماءهم وقال فيه : « وإبراهيم فى السماء السادسة » ، ووقع فى رواية شريك عن أنس : أن إدريس فى الثالثة وهارون فى الرابعة وآخر فى الخامسة . وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم أيضاً ، كما صرح به الزهري . ورواية من ضبط أولى ، ولاسيما مع اتفاق قتادة وثابت . وقد وافقهما يزيد بن أبى مالك عن أنس ، إلا أنه خالف فى إدريس وهارون ، فقال : هارون فى الرابعة وإدريس فى الخامسة . ووافقهم أبو سعيد ، إلا أن فى « روايته » : يوسف فى الثانية وعيسى ويحيى فى الثالثة . والأول أثبت .

فتح البارى [٦١٤/٧] .

= ويقول ابن هشام : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لما فرغت مما كان فى بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر ، فأصعدنى صاحبى فيه ، حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء ، يقال له باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك » قال : يقول رسول الله ﷺ حين حدث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] قال : « فلما دخل بى قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : محمد ، قال : أوقد بعث ؟ قال : نعم ، قال : فدعا لى بخير وقاله » .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم ، عمن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقينى ملك من الملائكة ، فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : يا جبريل ، من هذا الملك الذى قال لى كما قالت الملائكة ، ولم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم ؟

قال : فقال لى جبريل : أما إنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار .

فقال رسول الله ﷺ : فقلت : لجبريل وهو منى الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢١] ألا تأمره أن يرينى النار ؟

فقال : بلى ، يا مالك أر محمداً النار ،

قال : فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت ، حتى ظننت لتأخذن ما رأى ، قال : فقلت لجبريل : ياجبريل ، مره فليردها إلى مكانها .

قال : فأمره ، فقال لها : اخبئى ، فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه فما شبهت رجوعها إلا برتوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها » . =

= وقال أبو سعيد الخدرى فى حديث عن رسول الله ﷺ قال : « لما دخلت السماء الدنيا ورأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بنى آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خبيثا وينتر به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : أُفٍ ، ويعبس بوجهه ، ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث ، قال : قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ، تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها ، وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث » .

قال : « ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً » .

قال : « ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك .

قال : قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا » .

قال : « ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون السمين الطيب .

قال : قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن » .

قال : « ثم رأيت نساء معلقات بثديهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم » .

سيرة ابن هشام [٢/١٣-١٦] ، وانظر دلائل النبوة للبيهقى [٢/٣٩١-٣٩٣] .

وأصبحت له ذاتية فاهمة بلا واسطة من جبريل عليه السلام ، ورؤية بلا واسطة من أحد . ففى الأرض « إراءة » ، وأما فى السماء فقد « رأى » بالرؤية ، ثم بعد ذلك نجد أنه بعد أن انتقل إلى مرحلة يكون فيها ملائكياً كالملائكة ، يراهم ويتكلم معهم ويخاطبهم ويفهم ، ثم يأتى بعد ذلك فى منطقة أخرى بعد سدرة المنتهى ، فينتهى حدّ جبريل عليه السلام .

المرحلة الثالثة : عُرِجَ برسول الله ﷺ فى سبحات النور ، ولم يكن جبريل معه ، وهذا دليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد ارتقى ارتقاء آخر ، ونقل من ملائكية لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى ، إلى شىء من الممكن أن يتحمل ماوراء سدرة المنتهى ، ودون مصاحبة جبريل عليه السلام .

إذن .. فالرسول ﷺ كان بشراً فى الأرض مع جبريل ، وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل ، ومع جبريل فى السماء ، وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية ،حتى إن جبريل نفسه وقف أمام سدرة المنتهى ولم يستطع أن يتقدم ولو تقدم لاحترق ، أما رسول الله ﷺ فقد تجاوز السدرة إلى ما شاء الله تعالى .

إذن .. فذاتية محمد ﷺ حدث فيها شىء من التغيير ، وذلك التغيير الذى يناسب الملأ الأعلى ، فجبريل عليه السلام بملائكيته لا يستطيع أن يخترق ، وإلا احترق ، أما الرسول محمد ﷺ فاخترق ولم يحترق ، وعلى هذا هناك ثلاثة أشياء حدثت لمحمد ﷺ :

أولاً : بشرية فى الأرض معهودة بالمدد .

ثانيًا : وبعد ذلك ملائكية فى السماء قبل سدرة المنتهى .

ثالثًا : ثم بعد ذلك ملائكية فوق الملائكية ، وهى التى كانت بعد سدرة المنتهى ، وهى التى كان فيها ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] وسمع

ﷺ لربه ، استنادًا إلى أحاديث صحيحة وردت فى هذا الشأن .

ثم يأتى العلم الحديث ليقرب لنا هذه المسائل ، ففى الماضى لم يكن أحد يستطيع أن يصعد فى السماء ، أما الآن فقد وصل الإنسان إلى القمر ، ويحاولون الوصول إلى المريخ[1] .

(١) يقول كونستانس جيورجيو : متحدثاً عن إمكانية حدوث الإسراء والمعراج وتصديق ذلك :

هذا الموضوع يذهبى فى هذا العصر بالنسبة إلى فرضية « النسبية » لآينشتين[1] . وهو أمر ليس عجيباً ، لأن الفرضية الآنفة الذكر ، تشير إلى أن الزمان بين شخصين أو شيئين أحدهما ساكن والآخر متحرك ، غير واضح . وبناء على هذا يمكننا أن نقول شخصاً يخرج من منزله ، ويصعد إلى السماء ، ثم يعود إليه ، وما زال المزلاج يهتز على الباب . ولما كانت هذه الفرضية مطروقة كثيراً ، ويعرفها الجميع ، فلن أتطرق إليها . فهذا الأمر ليس عجيباً فى معراج محمد ﷺ ، لكن الذى يدعو إلى العجب هو : هل استطاع محمد ﷺ بهذا الجسم المتشكل من لحم ودم وعظم وجلد ، أن يصعد إلى السماء ؟

لعلماء الإسلام نظريتان فى المعراج . بعضهم يرى أن محمداً ﷺ صعد بهذا الجسم الترابى إلى السماء ، ويعتقد آخرون أن روحه فقط هى التى طارت إلى السماء . ولكن أحداً منهم لم يذكر أنه عرج نائماً ، ثم صاحيًا حتى وصل إلى سدرة المنتهى .

ويرى أصحاب الرأى الأول أنه لما كان نبياً ، تيسّر له كل شئ . من ذلك قدرته بهذا الجسم الترابى ، أن يطوى سبع سماوات . فى حين أن الفئة الثانية لم تجد =

(١) هو ألبرت آينشتين ، ١٨٧٩-١٩٥٥ ، عالم أمريكى فى الفيزياء النظرية ، عرف بنظرية النسبية المشهورة ، اكتسب شهرة عالمية لبحوثه القيمة . ونظريته النسبية تحدد العلاقة بين الجاذبية والحناء الفراغ ذى البعد الزمنى الرابع .

= ضرورة ليصعد بجسمه ، واكتفوا بأن روحه هى التى عرجت ، وجابت السماوات السبع ، وبلغت سدرة المنتهى ، وخاطبت الله . فهم يرون أننا - من غير أن نكون أنبياء - نستطيع أن نسافر فى حال النوم ، إلى أى مكان ، وأن نقطع آلاف الكيلومترات ، ونخاطب الأموات .

نحن فى حال النوم ، لا نخاطب من ماتوا فى عصرنا ونعرفهم وحسب ، بل نخاطب من ماتوا قبل قرون ، ونحن نعلم أنهم أموات . ومع هذا لا يأخذنا العجب إذ نحادثهم . ويبدو لنا مثل هذا أمراً عادياً ، ولا نقول لهم : « أنتم أموات » ، حتى لا نزعجهم .

عندما نرى فى حلمنا ، جسمنا الترابى ممتداً على الفراش من غير حراك ، ولكننا نحس بخفته ، وانتقاله إلى حيث نريد ، فى مثل هذه الحال - وحسب قول القدماء - تخرج الروح من البدن ، وتتجول فى الفضاء ، وتنطلق من بلد إلى بلد ، وتخاطب الأموات . حتى إنه نخاطب من عاشوا فى بلاد أخرى ، ولا نعرف لغاتهم ! لأن عدم معرفة اللغة ، لا يمنع من المخاطبة ! لأننا نفهم عليهم ونفهمهم .

وقد لا تخرج الروح من أبداننا ، ولكن فى حال النوم ، يبدو لى كياننا ، وندعوه اليوم فى إحساسنا ، أن الحجب تزول من أمام ناظرينا ، وتقصر الفواصل الطويلة ، فنرى شخصاً نعرفه فى كل مكان ، ويبدو لنا أننا نعرف كل إنسان . وقد يصعب علينا ، فى حال الصحو ، أن نقفز من فوق نهر ، ولكن فى الحلم نطير فوق أعالى الجبال ، ونتخطى القمم الشاهقة . يبدو هذا القفز عاديا لنا ، تماماً كما نعبر شوارع مدينتنا . كل المحالات فى اليقظة ، تبدو سهلة وعادية فى الأحلام . وقد نظل فى المنزل ، أو نطوف آلاف الكيلومترات ، كما نستطيع التكلم بأية لغة غريبة . وإذا زرنا مدينة أجنبية تبدو وكأنها معروفة لدينا ، كمن وُلد فيها ونشأ .

ونلقى فى حلمنا أصدقاءنا ومعارفنا ، وحتى أعدائنا ، ومن لا نراهم عادة فى اليقظة يحيا بعضهم ، ويرهبنا بعضهم .. ولكننا نراهم أحياناً بشكل مرعب ، =

= يجعلوننا نصرخ من هول منظرهم ، فنصحو من نومنا . نستطيع فى الحلم أن نحوس بركاناً تتطاير لاباته ، ونحرق بناره ، وندخل إلى أعماق أعماقه ، ثم ما نلبث أن نخرج منه من غير أن تؤثر لينا النار . كما نتحمل فى الحلم أشد درجات البرودة ، من غير أن نفارق الحياة .

لا يمكننا أن نحسب الزمان الذى نعيشه فى حال الحلم ، وإن كنا نعرفه فى أثناء اليقظة . كثير من الناس يزورون بلاداً فى ليلة ، أو فى يوم ، وهم نائمون . فى حين أنهم فى حال الصحو ، لا نكفيهم لهذه الزيارة سنوات ، وحين يستيقظون ، يرون أنهم لم يغفوا غير دقائق معدودات .

لا تحتاج هذه الأمور إلى بحوث عميقة ، فقد جربها كل إنسان فى حياته ، ويعلم أنه فى حال الرؤيا ، تزول الفواصل ، ويسهل اللقاء ، ويمكن الكلام باللغات العديدة . وقد يستمع المرء فى حلمه ، إلى أنغام لا نظير لها فى حال الصحو ، وكأن هذه النغمات تأتيه من العالم الآخر . وكم أصغى إليها الموسيقيون ، فجلبتهم ، فاستيقظوا ، فسجلوها على القور خشية أن ينسوها .

ليس فى حال النوم زمان ماض ، أو مستقبل ، أو حاضر للإنسان ؛ لأن كل الأزمنة سواسية لديه . بل إن الزمان يتبدل بحسب الحلم ، وليس عجيباً أن ينتقل المرء ألف سنة ، أو ألفين إلى الوراء ، فيحدّث أناس ذلك الزمان ، كما قد يحدّث آخرين لم يخلقوا بعد . وكثير من العلماء ، تعذّر عليهم حل بعض المعضلات العلمية المستعصية ، ولكن رموزها تجلى فى أثناء الحلم . وما يؤثر على عقولنا فى حال الصحو ، لا يؤثر عليها فى حال النوم .

وبعد أن استعرضنا كل ما مرّ ، ألا يمكن قبول : أن شخصاً كمحمد نبى الإسلام ﷺ استطاعت روحه – فى حال الصحو – أن تترك هذه الدنيا ، وتنتقل إلى عالم آخر نراه فى الحلم ؟ ألا يمكن قبول هذه الرؤيا فى حال النوم التى تتسلّل إلى إحساساتنا ، أن تتسرب إلى أعصاب عقل محمد ﷺ ، فتنقله إلى عالم شاهدناه =

فإذا كان البشر استطاعوا أن يرسلوا إنساناً إلى مكان ليس فيه هواء ، ويعصبه حياته ، ويعيش مدة طويلة ، ويدور فى الفضاء . إذا كان البشر استطاعوا أن

= فى حال النوم ؟ ولما كانت أرواحنا تنطلق فى الرؤى إلى عوالم أخرى ، أو يبدو لنا أننا انطلقنا من حدود الزمان والمكان ، فإنه يتضح لنا فيها الأزل والأبد[1] ، ونعيش كل هذه البسيطة ، وأحياناً نسمع أصوات الجمادات والنباتات ، وتفهم عليها . فإن وثقنا من حصول كل هذا فى حال نومنا ، أو فى حال شرودنا ، فإن مثل هذا يجعلنا نثق – من الوجهة العقلية – بما جرى مع محمد ﷺ فى معراجه ، ونقبل أن تكون رحلته هذه سريعة ، بشكل جعله عندما عاد ، يرى رنجير الباب ما زال يهتز . ويقال : إن حديث الرنجير استخدم مثالاً ، لا رواية ، يقصد من ورائه : إفهام الناس مدى سرعته ، فى معراجه .ولكن بعض المؤرخين الإسلاميين ، يعتقدون أن روحه لم تصعد وحدها إلى السماء ، بل صعدت مع جسمه الترابي ، وبسرعة خارقة للطبيعة ، ثم عادا . وإن دققنا فى هذه النظرية ، اعترضنا نظريتان من الناحية الفيزيائية ، إحداهما : مسألة السرعة ، والأخرى : كيف يمكن لجسم أن يطير بسرعة تفوق سرعة الضوء . وقد ذكرت الروايات أن سرعة عروج محمد ﷺ كانت أسرع من الضوء ؟ وبسرعة تأثير الجاذبية بالأمواج .

وقد تمكن محمد ﷺ فى هذا العروج ، أن يطلق إلى أبعد نقطة فى الكون ، ثم يعود . ونحن نعلم أن قطر الكون – حسب نظرية إينشتاين – يبلغ ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية . أى أن النور ، إن انتقل من طرف الدنيا إلى الطرف الآخر ، يحتاج حتى يصل ، إلى ثلاثة آلاف مليون سنة .

ولو أننا قلنا : إنه صعد إلى السماء بروحه ، فى حال صحوه ، لما احتاج الأمر إلى الحديث الفيزيائي . أما إذا قلنا : إنه صعد بجسمه الترابي ، فإننا نضطر إلى التساؤل عن كيفية تحمّله هذه السرعة ؟ ويذكر العلم الفيزيائي : أن المادة غير قادرة على تحمل سرعة النور ، ما لم تتحول إلى نور .. والنور نفسه ، لا يمكنه أن يتخطى =

(١) الأبد : الدهر ، القديم . الأزل : مالا نهاية له .

يفعلوا ذلك ، ألا يستطيع رب محمد ﷺ أن يصنع له خطفة يصعد فيها إلى السماء ، ويظل المدة التى أرادها الله ، ويستقبل من ربه ما شاء له ، ثم يعود إلى الأرض ؟! إذا كان البشر يستطيعون ذلك ، فقدرة الحق فوق كل ذلك ، فهذه أمثلة تُقرّب لنا المسافات فى هذه الأشياء . والحق سبحانه وتعالى ، حين يخرج رسوله ﷺ إلى أمر كونى معجز ، لابد أن يكون له فيه عمل ، مثل شقّ الصدر وغيره من الأحداث . لأننا - نحن البشر - حين ننتقل من بلد ، إلى بلد نعدّ أنفسنا لجو هذا البلد ، فنأخذ من العلاج ما يخصنا ضد أمراض معينة ، وأشياء تناسب جو هذا البلد الذى سنذهب إليه . فربنا سبحانه حين يريد أن ينقل رسوله ﷺ إلى السماء ، يصنع له عملية مثل هذه . وإذا كان سيلتقى بمن سبقه من الرسل الذين توفاهم الله ، فلابد أن يحدث له شئ فى تكوينه ﷺ ، بحيث يستطيع أن يلقى الملائكة ، ويلقى جبريل ، ويلقى الأنبياء السابقين ، ويجتمع بهم .

وإذا ما استقرأنا القرآن الكريم ، نجد فيه آية تدلنا على صدق الرسول ﷺ فى هذه الأشياء . فالرسول حين يطلب الله منه أمرا ، لابد أن ينفذه ، فإذا كان الله تعالى قد قال له فى كتابه : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ

= أكثر من ثلاثمئة ألف كم فى الثانية . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الإسلاميين ، يؤكدون على رحلة بجسمه الترابى .

وعلم الفيزياء ، وإن لم يقبل هذا الموضوع ، فإننى أحترم العقيدة الإسلامية ، وأقبل كل ما جاءت به من الناحية الدينية . ولدينا نحن المسيحيين ، اعتقادات دينية لا يقبل بها علم الفيزياء كذلك ، ومع ذلك فنحن نقبل بها ، ونعتبرها من صلب معتقداتنا .

نظرات جديدة فى سيرة رسول الله [١٣٩-١٤٣] .

أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] فالله تعالى طلب من رسوله ﷺ أن يسأل من سبقه من الرسل ، فكيف يسألهم ؟ لا يمكن أن يسألهم إلا إذا وُجدت مواجهة . فإذا حدثنا أنه التقى بالأنبياء ، نقول له : صدقت ؛ لأن هذا تصديق لقول الله تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؛ والفكرة كلها ، دائرة حول يقين المؤمن بصدق رسول الله ﷺ ، سواء فهمها عقلك أو لم يفهمها . فما أكثر ما لم يفهمه عقلك فى الكون ، وظل غير مفهوم ، إلى أن يفهم تباعا ، جزء اليوم وجزء غدا .

○○○

قال موسى لربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾[1] [الأعراف : ١٤٣] .

نلاحظ هنا أن السؤال من موسى عليه السلام كان من عين البشرية التي كانت لمحمد ﷺ أيضاً ؛ ولأن موسى عليه السلام لم يسأل « الرؤية » ، وإنما سأل « الإراءة » ؛ لأنه في الأرض .

(١) يقول السيوطي : أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ ﴾ يقول : أعطني أنظر إليك .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال الله له : يا موسى إنك ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ . قال : يقول : ليس تراني . قال : لا يكون ذلك أبدا يا موسى ، إنه لا يراني أحد فيحيا . فقال موسى : رب : أما أراك ثم أموت ، أحب إليّ من أن لا أراك ثم أحيا . فقال الله لموسى : يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد ﴿ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ ﴾ يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ، ولم يتهد لبعض ما يرى من عِظَمي ﴿ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل تضعضع ،وانهد بقوته وشدته وعظمه ، فأنت أضعف وأذل . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال : « قال الله عز وجل : يا موسي : إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدعده ، ولا رطب إلا تفرق ، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ، ولا تبلى أجسادهم » .

= وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد قال : لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإنه أكبر منك وأشد خلقا . قال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل يندك على أوله ، فلما رأى موسى ما يصنع الجبل ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أوحى الله إلى موسى بن عمران : أني مكلمك على جبل طور سيناء ، صار من مقام موسى إلى جبل طور سيناء ، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، رعد وبرق وصواعق ، فكانت ليلة قر . فجاء موسى ، حتى وقف بين يدي صخرة جبل طور سيناء ، فإذا هو بشجرة خضراء ، الماء يقطر منها ، ويتكاد النار تلفح من جوفه . فوقف موسى متعجبا . فنودي من جوف الشجرة : يا موسى . فوقف موسى مستمعا للصوت ؟! فقال موسى : من هذا الصوت العيراني يكلمني ؟! فقال الله له : يا موسى إني لست بعيراني ، إني أنا الله رب العالمين . فكلم الله موسى بن عمران بذلك المقام بسبعين لغة ، ليس منها لغة إلا وهي مخالفة للغة الأخرى . وكتب له توراة في ذلك المقام ، فقال موسى : إلهي : أريني أنظر إليك . قال : يا موسى إنه لا يراني أحد إلا مات ، فقال : إلهي : أريني أنظر إليك وأموت . فأجاب موسى حين طور سيناء : يا موسى ابن عمران لقد سألت أمرا عظيما ، لقد ارتعدت منه سبع سموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، وزالت الجبال ، واصفرت الحجر ، لعظم ما سألت يا ابن عمران . فقال موسى وأعاد الكلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . فقال : يا موسى انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فإنك تراني ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ مقدار جمعة . فلما أفاق موسى ، مسح التراب عن وجهه وهو يقول : ﴿ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكان موسى بعد مقامه ، لا يراه أحد إلا مات . واتخذ موسى على وجهه البرقع ، فجعل يكلم الناس بقفاه ، فبينا موسى ذات يوم في الصحراء ، وهو في بلاقة تفر يحفرون =

و ﴿ أَرِنِيٓ ﴾ المطلوب فيها « الإراءة » ، بمعنى : إن تُرني أنظر ، وإن لم تُرني لا أنظر ، فكأنني بطبيعة تكويني ، لا أقدر أن أنظر إليك . ولكن إن عدَّلت فيَّ وأريتني ، أرى وأنظر . ويبدو لنا أن الذي طلبه موسى عليه السلام ، « الإراءة » وليست « الرؤية » ؛ لأنه يعلم بطبيعة تكوينه أنه لا يرى ، ولكن الذي خلقه يستطيع أن يريه . فطلب موسى عليه السلام كان « الإراءة » ، كالذي حدث لمحمد ﷺ في آية الإسراء الأرضية « ليريه » ، أيضاً هي « إراءة » ، وبعد ذلك تبحث بحثاً آخر في الجوانب . ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ، كان موسى عليه السلام يقول : أنا بطبيعة تكويني ، لا أقدر أن أراك . لكن أنت خالقي ، وخالق القوانين ، فتستطيع إن أمددتني بقوانين من عندك أن أري ، فإن أريتني أنظر ، وإن لم ترني لا أستطيع . فماذا كان جواب الحق سبحانه وتعالى له ؟ قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

إذن .. فالمانع ليس من جهة الحق سبحانه وتعالى ، ولكن من جهة موسى عليه السلام . لم يقل له : « لن أُري » ، بل قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ أي أن طبيعتك التكوينية لا تقوى على رؤيتي . ولو أن الحق لا يُري ، لقال له : « لن أُري » ، ويبقى الإشكال ، ولكن قال له : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

وبعد ذلك نال له : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ ، لقد لفته إلى شيء مادي موجود ، وهو ﴿ ٱلْجَبَلِ ﴾ .

= قبرًا حتى انتهوا إلى الضريح ، فجاء موسى حتى أشرف عليهم ، فقال لهم : لمن تحفرون هذا القبر ؟ قالوا له : الرجل كأنه أنت أو مثلك ، أو في طولك أو نحوك . فلو نزلت فقدرنا عليك هذا الضريح ، فنزل موسى فمدد في الضريح ، ثم أمر الله الأرض فانطبقت عليه .

الدر المنثور [٣/٥٤٣-٥٤٥] .

والجبل لاشك أنه موجود أمام موسى عليه السلام ، والجبل عندنا وعند موسى عليه السلام أقوى بنيةً من موسى عليه السلام ، وأشد صلابة .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ ، إذن .. لا مانع من أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى على بعض الخلق ، وقد تجلى الحق سبحانه وتعالى على الجبل ، ولكن .. الجبل الصلب القوي ، لم يتحمل هذا التجلي ، فقد تفتت مع صلابته ومع قوته . حينئذ تفهم أن السر في قوله تعالى : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ أي : أن طبيعتك وتكوينك ، لا يتحملان رؤيتي . ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] موسى صعق لرؤية المتجلَّى عليه !

إذن .. فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ دليل على أن طبيعة تكوين البشر ليست معدّة إعداداً بحيث تستطيع أن ترى ربها . أما الله سبحانه وتعالى فمن الممكن أن يُري ، ولكن بعد أن يعدل سبحانه من طبيعتنا ، بحيث تقوى على رؤيته . والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى تجلى على الجبل ، وما دام قد تجلّى على الجبل ، والجبل خلق من خلقه ، إذن .. فمن الممكن أن يتجلى على بعض خلقه . ولكن هل البعض من خلقه يتحملون التجلي أم لا يتحملون ؟ من رحمته تعالى أنه لا يتجلى لنا ؛ لأن طبيعة تكويننا لا تتحمل ذلك التجلي ، والجبل مع ضخامته كيف أصبح ؟ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ فسؤال موسى لله سبحانه وتعالى : ﴿ أَرِنِيٓ ﴾ دليلٌ على ان ذلك ليس محالاً ، بل ممكناً ؛لأن كثيرًا من الرسل لما سألوا ،قال الله لهم : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ والله لم يقل لموسى عليه السلام : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود : ٤٦] ، وإنما قال له : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ أنت ، ولكن : ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ إذن .. فعدم

تجلى الله سبحانه على موسى عليه السلام رحمة به حتى لا يتفتت قلبه الجبل ، الذى هو أقوى من موسى عليه السلام .

نعود إلى حديثنا عن الإسراء وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٨] نحن قد قلنا : إن الذى كان فى الأرض « إراءة » ؛ لأن فيه بشرية ، فلما انتقل إلى السماء ، انحلت البشرية بعض الشىء عن رسول الله ﷺ ، وأصبحت الملائكية هى الطاغية . فأصبح يخاطب الملائكة ، ويكلم الرسل الذين ماتوا ، ويلتقى بهم .

وجاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة التى تكلمنا عنها ، وقلنا : إن جبريل عليه السلام نفسه وهو ملك من الملائكة العظام لم يقدر عليها ، حيث قال : إلى هنا مكانى ، وذلك يدل على أن محمداً ﷺ ، نُقل نقلة أخرى فوق الملائكية ، لماذا ؟ لتلقى كلام الله المباشر والرؤية .

قال الحق تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾[1] [النجم .

(١) عن أبى إسحاق الشيبانى قال : سألت زِرّ بن حُبيش عن قول الله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] قال : حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له ستمائة جناح .

أخرجه البخارى [٣٢٣٢، ٤٨٥٦، ٤٨٥٧] ، ومسلم [١٧٤] . =

= وعن عبد الله رضى الله عنه : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٨] قال : « رأى رفرفا أخضر سدَّ أفق السماء » .

وعن مسروق قال : « قلت لعائشة رضى الله عنها : فأين قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ ؟ [النجم] قالت : ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة الرجل ، وإنما أتى هذه المرة فى صورته التى هى صورته ، فسدَّ الأفق » .

أخرجه البخارى [٣٢٣٥] واللفظ له ، ومسلم [٢٩٠/١٧٧] .

وعن مسروق ، قال : كنت متكئا عندعائشة . فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاث من تكلَّم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هُنَّ ؟ قالت : من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست . فقلت : يا أم المؤمنين ! أنظرينى ولا تعجلينى . ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ . فقال : « إنما هو جبريل . لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين . رأيته منهبطًا من السماء . سادًا عِظَم خلقه ما بين السماء إلى الأرض » ، فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] قالت : ومن زعم أن رسول الله كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية . والله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة : ٦٧] قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية . والله يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] .

أخرجه البخارى [٤٨٥٥، ٤٨٥٥] ، ومسلم [٢٨٧/١٧٧] واللفظ له . =

= وعن ابن عباس ؛ قال : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم : ١١] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قال : « رآه بفؤاده مرتين » . أخرجه مسلم [٢٨٥/١٧٦] .

وعن أبي ذر ؛ قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنَّى أراه » . أخرجه مسلم [٢٩١/١٧٨] .

وقال الحافظ بن حجر في الفتح لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً . والمراد بالإدراك في الآية الإحاطة ، وذلك لا ينافي الرؤية . انتهى . وجزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة فإنه قال في كتاب التوحيد من صحيحه : النفي لا يوجب علماً ، ولم تحك عائشة أن النبي ﷺ أخبرنا أنه لم ير ربه ، وإنما تأولت الآية . انتهى .

وهو عجيب ، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ ، نعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكور قال مسروق : « وكنت متكئاً فجلست فقلت : ألم يقل الله ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : إنما هو جبريل » وأخرجه ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بهذا الإسناد « فقالت : أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذا فقلت : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا إنما رأيت جبريل منهبطاً » نعم احتجاج عائشة بالآية المذكورة خالفها فيه ابن عباس ، فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : « رأى محمد ربه » قلت : أليس الله يقول : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ؟ [الأنعام : ١٠٣] قال : ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وقد رأى ربه مرتين » وحاصله أن المراد بالآية نفي الإحاطة به عند رؤياه لا نفي أصل رؤياه . واستدل القرطبي في « المفهم » على أن الإدراك لا ينافي الرؤية بقوله تعالى حكاية عن أصحاب موسى =

= ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ... ۝ ﴾ [الشعراء] وهو استدلال عجيب لأن متعلق الإدراك في آية الأنعام البصر ، فلما نفى كان ظاهره نفي الرؤية ، بخلاف الإدراك الذي في قصة موسى ، ولولا وجود الأخبار بثبوت الرؤية ما ساغ العدول عن الظاهر . ثم قال القرطبي : الأبصار في الآية جمع محلى بالألف واللام فيقبل التخصيص ، وقد ثبت دليل ذلك سمعاً في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] فيكون المراد الكفار بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة] قال : وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي انتهى . وهو استدلال جيد . وقال عياض : رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقلا ، وثبت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة ، وأما في الدنيا فقال مالك : إنما لم ير سبحانه في الدنيا لأنه بقي ، والباقي لا يرى بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي بالباقي . قال عياض : وليس في هذا الكلام استحالة الرؤية إلا من حيث القضوة ، فإذا قدر الله من شاء من عباده عليها لم يمتنع قلت : ووقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه النفرقة في حديث مرفوع فيه « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » وأخرجه ابن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة ، ومن حديث عبادة بن الصامت ، فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت سمعاً ، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه . وقد اختلف السلف في رؤية النبي ﷺ ربه فذهبت عائشة وابن مسعود إلى إنكارها ، واختلف عن أبي ذر ، وذهب جماعة إلى إثباتها ،وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف أن محمداً رأى ربه .

وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها ، وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة ، وبه قال سائر أصحابه ابن عباس ، وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون ، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه . ثم اختلفوا هل رآه =

= بعينه أو بقلبه ؟ وعن أحمد كالقولين . قلت : جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ؟ وأخرجه ابن خزيمة بلفظ : « إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة » الحديث . وأخرج ابن إسحاق من طريق عبد الله بن أبي سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس : هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل إليه أن نعم . ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ ﴾ [النجم] ، قال : رأى ربه بفؤاده مرتين . وله من طريق عطاء عن ابن عباس قال : رآه بقلبه . وأخرج من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء أيضاً عن ابن عباس قال : لم يره رسول الله ﷺ بعينه ، إنما رآه بقلبه وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب . ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم ، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام . بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره ، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخلقها في العين ، وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال : « رأى محمد ربه » ، وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال : « نور أنى أراه » ولأحمد عنه ، قال : « رأيت نوراً » ولابن خزيمة عنه قال : « رآه بقلبه ولم يره بعينه » . وبهذا يتبين مراد أبي ذر بذكره النور : أي النور حال بين رؤيته له ببصره ، وقد رجح القرطبي في « المفهم » قول الوقف في هذه المسألة وعزاه لجماعة من المحققين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع ، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل ، قال : وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية ، وإنما هي من =

هنا وقفة ، إن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وكل لفظ له إيحاؤه . فإذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ، أي : أفتجادلونه إن قال لكم رأيت كذا وكذا وكذا .

وقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ ؛ هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى ، كأن محمداً ﷺ قال مالا تطيقه عقول البشر . فقال : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ، وذلك رحمة من الله سبحانه وتعالى بعقول البشر . لذلك قال : لماذا تجادلونه في هذا ؟ ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ ، فذلك إخبار من الله سبحانه وتعالى ، وليس إخباراً من محمد ﷺ ، حيث لم يقل محمد وإنما الله سبحانه القائل .

وقوله تعالى : ﴿ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ المفسرون يجعلونها وصفاً للآيات ، فهو قد رأى آيات ربه ، الآيات الكبرى العظيمة ، أي أنه رأى الآية الكبرى

= المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي وجنح ابن خزيمة في « كتاب التوحيد » إلى ترجيح الإثبات وأطنب في الاستدلال له بما يطول ذكره ، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤيا وقعت مرتين مرة بعينه ومرة بقلبه ، وفيما أوردته من ذلك مقنع . ومن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد فروى الخلاف في « كتاب السنة » عن المروزي قلت لأحمد إنهم يقولون : إن عائشة قالت : « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » فبأي شيء يدفع قولها ؟ قال : بقول النبي ﷺ رأيت ربي قول النبي ﷺ أكبر من قولها . وقد أنكر صاحب « الهدى » على من زعم أن أحمد قال : رأى ربه بعيني رأسه قال : وإنما قال مرة رأى محمد ربه وقال مرة بفؤاده . وحكى عنه بعض المتأخرين رآه بعيني رأسه وهذا من تصرف الحاكي ، فإن نصوصه موجودة .

فتح الباري [٩/٥٨٨-٥٩٠] .

من آيات ربه ، فكأن آيات الله سبحانه وتعالى ، التى حدّث عنها ، هى آيات من آيات ، وحسبها عظمة وعجباً ، أن تنسب إلى الله سبحانه وتعالى .

وإذا كانت العقول تقف وتحتار أمام آيات الله جل جلاله وعز شأنه ، فكيف تتصور الآية الموصوفة من الله سبحانه وتعالى ، بأنها الآية ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ ؟ أى : لقد رأى الكبرى من آيات ربه ، فكأن : ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ هى المفعول ، وليس وصف الآيات ، ولكن : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ .. ماذا رأى ؟ رأى الآية ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ ، التى هى أعلى من هذه الآيات .

لا شك أن جبريل كان معه فى الأرض ، وكان يشاركه فى هذه لمرائى ، وفى السماء أيضاً كان معه جبريل ،لكن فى الآية ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ كانت المرحلة الأخيرة ، التى لم يقدر عليها جبريل ، ولا أحد من الملائكة ، وقد انفرد رسول الله ﷺ بها تكرمة من ملك العظيم لصفيه وخليله ﷺ .

وإذا نظرنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[1] ، أنا أخالف جهود المفسرين حين يفسرون ﴿ دَنَا ﴾ بأنه

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه جبريل[1] ، قاله قتادة .

الثانى : أنه الرب ، قاله ابن عباس .

وقوله : ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلق فيما بين[2] والسفل ؛ لأنه رآه متصعدا مرتفعا ، ثم رآه متدليا ؛ قاله ابن بحر .

(١) وهو قول الجمهور ورجحه غير واحد ، منهم الطبرى [٧٢ / ٤٤] والشوكانى[٥/٩٠١] وابن كثير [٤/٨٤٢] .

(٢) هكذا بالأصل ولعل هناك سقط هو كلمة « العلو » .

جبريل عليه السلام ، والسبب أن جبريل مع محمد ﷺ ، وما دام جبريل معه ، فمن الذى دنا ؟ ومن الذى كان قاب قوسين أو أدنى ؟ ذلك ملحظ آخر يعطينا أن الدنو فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ هو دنو بشىء آخر ، من ربه أو ربه منه ، وهو إيناس بما يكون من رؤيته للحق سبحانه وتعالى ، أو من كلام الحق سبحانه وتعالى له ، والله تعالى أعلم .

○○○

الثانى : معناه قرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] أى تقربوها إليهم ، وقال الشاعر :

أتينك لا أدلى بقربى قربة ... إليك ولكنى بجودك واثق

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، وتقديره : « ثم تدلى فدنا » قاله ابن الأنبارى .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] فيه أربعة أقاويل :

أحدهما: قيد قوسين ، قاله قتادة والحسن .

الثانى : أنه بحيث الوتر من القوس ، قاله مجاهد .

الثالث : من مقبضها إلى طرفيها ، قاله عبد الحارث .

الرابع : قدر ذراعين ، قاله السدي ، فيكون القاب عبارة عن القدر ، والقوس عبارة عن الذراع .

ثم اختلفوا فى المعنى بهذا الدانى على ثلاثة أوجه :

أحدهما: أنه جبريل من ربه ، قاله مجاهد وهو قول ابن عباس .

الثانى : أنه محمد ﷺ من ربه ،قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه جبريل من محمد ﷺ .

تفسير الماوردى [٥/٣٩٢،٣٩٣] .

الحق سبحانه وتعالى تكلم عن الإسراء برسوله ﷺ فى سورة « الإسراء » ، ثم تكلم عنه فى سورة أخرى عن المعراج[1] ، وجاء بهاتين الآيتين للنبى الخاتم ﷺ . وسورة الإسراء لها اسمان : تسمى سورة « الإسراء » ، وتسمى سورة « بنى إسرائيل » . فالإسراء فى استهلال السورة ، فى آية واحدة فقط . وبعد ذلك تتحدث السورة عن بنى إسرائيل ، وقصتهم مع موسى عليه السلام إلى آخر ذلك . ونحن قلنا : إن الحكمة من مجئ آية الإسراء بعد سورة النحل ؛ أنها ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝ ﴾ [النحل] ولكن لماذا جاء الحديث عن بنى إسرائيل ، بعد ذكر الإسراء ؟ قالوا : لأن اليهود ألفوا أن موسى عليه السلام أرسل إلى بنى إسرائيل ؛ فإذا جاء محمد ﷺ وقال : أنا رسول للناس كافة ، فسيقولون لا . إن كنت رسولا فأنت مرسل للعرب فقط ، كما أرسل موسى إلى بنى إسرائيل . ولذلك ربنا سبحانه جعل بيت المقدس القبلة الأولى للمسلمين ، وأسرى برسوله إليها ؛ حتى يعلم القاصى والدانى أن بيت المقدس أحد مقدسات الإسلام ؛ وحتى لا يدعى أحد من غير المسلمين أن هذه له [2] . وقد اتجه

(١) فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم] .

(٢) أما لماذا الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء ؟ =

المسلمون إليها فى الصلاة فى بداية الإسلام ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه موضوع الإسراء فى بداية السورة ، وبعد ذلك ذكر قصة بنى إسرائيل .

إن الله سبحانه قدَّم آية الإسراء ؛ لأنها آية أرضية ، من الممكن أن يقام عليها الدليل . وقد أقام الرسول ﷺ الدليل عليها ، فوصف بيت المقدس ، وأخبرهم بالعير فى الطريق ، وموعد وصولها وأوصافها ، فخرق له الناموس فى المسافة بين المكانين وقصر الزمان . حتى إذا حدثنا أن الناموس خُرق له فى الصعود إلى السماء ، تصدقه ؛ لأنه أثبت لنا أنه خرق له الناموس فيما لا نعلم ، فهذا شئ ليس بمستغرب .

= قال الحافظ رحمه الله : روى كعب الأحبار : أن باب السماء الذى يقال له : « مصعد الملائكة » يقابل بيت المقدس ، فأخذ منه العلماء أن الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج ، ليحصل العروج مستويًا من غير تعويج ، وفيه نظر ، لورود أن فى كل سماء بيتًا معمورًا ، وأن الذى فى السماء الدنيا حيال الكعبة . وكان المناسب أن يصعد من مكة ليصل إلى البيت المعمور بغير تعويج ؛ لأنه صعد من سماء إلى سماء إلى البيت المعمور[1].

وقد ذكر غيره مناسبات أخرى ضعيفة . فقيل : الحكمة فى ذلك أن يجمع النبى ﷺ فى تلك الليلة بين رؤية القبلتين ، أو لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله ، فحصل له الرحيل إليه فى الجملة ، ليجمع بين أشتات الفضائل ، أو لأنه محشر ، وغالب ما اتفق له فى تلك الليلة يناسب الأحوال الأخروية ، فكان المعراج منه أليق بذلك . أو للتفاؤل بحصول أنواع التقديس له حسًا ومعنًى ، أوليجتمع بالأنبياء جملة ، والعلم عند الله [2] .

(١) انظر فتح البارى [٧/٢٣٦] .

(٢) انظر المصدر السابق [٧/٢٣٧] .

والحق سبحانه وتعالى أعطى رسوله ﷺ هذه المنزلة ؛ للجفاء الذى لقيه من أهل الأرض ، فأعطاه حفاوة الملأ الأعلى ، وأراه الآيات الكبرى .

والرسول ﷺ نال هذه المنزلة ؛ لأنه عبد لله .

إذن .. فعبودية محمد ﷺ لربه ، هى التى أعطته هذه المنزلة . وهناك فرق بين عبودية الخلق ، وعبودية الخالق . فعبودية الخلق مذمومة ؛ لأن فى عبودية الخالق للخلق ، السيد يأخذ خير عبده ، ولكن فى عبودية الخلق للخالق ، فالعبد يأخذ خير سيده . وقد أخذ محمد ﷺ هذا الخير .

إن منهاج الرسل دائماً ،أنهم مرسلون من الله سبحانه وتعالى ، خالق الإنسان ، بقانون صيانة ذلك الإنسان ؛ لأننا جميعاً مقتنعون بأن صانع الصنعة ، هو الذى يقرر قانون صيانتها ، وأن صانع التليفزيون هو الذى يقرر قانون صيانته ، وكيفية استعماله وتشغيله ، وهكذا .. . إلخ .

إذن .. فكل مصنوع صانعه هو الذى يضع قانون صيانته . وحيث إنه لم يوجد أحد يدّعى أنه خلق الإنسان .

إذن .. فالإنسان صنعة الله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه وتعالى هوالذى يحدد قانون صيانة ذلك الإنسان ؛لأن الله لا يخلق خلقه ، وبعد ذلك يتدخل الخلق ليضعوا قانون الصيانة ،نيابة عن الخالق جل وعلا إذا حدث ذلك ، تكون ، هذه حالة كحالة أن أذهب أنا - مثلاً - بالتليفزيون إلى الجزّار ؛ لكى يصلحه لى ، لا ، فالذى يضع قانون صيانة الشىء هو الذى خلق ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] [الملك : ١٤] والذى يدلك على ذلك ، أن كل تشريع من

(١) يقول القرطبى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ يعنى ألا يعلم السر من خلق السر . يقول : أنا خلقت السر فى القلب ، أنلا أكون عالماً بما فى قلوب العباد . وقال أهل المعانى : إن شئت جعلت ﴿ مَنْ ﴾ اسما للخالق جل وعز ؛ ويكون المعنى : ألا يعلم =

تشريعات البشر إن أُحسن الظن برغبتهم فى الخير ، ورغبتهم فى الإصلاح ، عرضة لأن يتغير ويتبدل ، وأن يذهب ويجيء غيره ، ولا يبقى قانون من قوانين الوضع البشري ، إلا بقاء السوط الذى يحميه . فإذا ذهب السوط الذى يحميه انحل القانون بطبيعته ، فكأن وراء كل قانون بشرى قوة تحميه ، وحين تذهب هذه القوة يضمحل ويتلاشى .

وأحب أن أقول للذين يفتنون : إن القوانين البشرية تفّنن للنفس الإنسانية ، فماذا عرفتم فى النفس الإنسانية ؟ أنتم تعرفون زاوية ، ولكنكم تجهلون زوايا ماهية النفس الإنسانية ؟ هى ليست بطن ومعدة فقط ، وهى ليست عقلاً يعى

= الخالق خلقه ؟ وإن شئت جعلته اسما للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله من خلق ؟ ولابد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال ابن المسيب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير ، وقد عصفت الريح ، فوقع فى نفس الرجل : أترى الله يعلم مايسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة « ! » بصوت عظيم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ! وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني : من أسماء صفات الذات ماهو للعلم ؛ منها « العليم » ومعناه تعميم جميع المعلومات . ومنها « الخبير » ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون . ومنها « الحكيم » ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف . ومنها « الشهيد » ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ؛ ومعناه ألا يغيب عنه شئ .

ومنها « الحافظ » ويختص بأنه لا ينسى . ومنها « المحصي » ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور باشتداد الريح وتساقط الأوراق ؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة . وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ؟! وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

تفسير القرطبى [١٨/٢١٤] .

ويفهم فقط ، وهى ليست وجداناً فقط ، إنها ملكات متعددة ، وأنتم إلى الآن لاتعرفون عدد هذه الملكات ، فكيف تفتنون لشيء لا تعرفونه .

إذن ، فالمفتنون يعرفون شيئاً فيفتنون له ، ويتركون الملكات الأخرى النفسية جائعة . وهنا .. ماذا يحدث للإنسان المتأثر باضطراب هذه الملكات ، وفيه ملكة شبعت وملكات جائعة ؟ لابد أن يحصل التمزق والقلق النفسى له .

والدليل على ذلك مثلاً : أولئك الذين يحتبرون النظام الاقتصادي ، هو كل شيء فى الدنيا ، كالسويد ، التى هى بالإحصائيات أرقى دولة فى مستوى المعيشة . فالفرد فيها مترفه رفاهية عالية جداً ، ومع ذلك ففى هذه الدولة الرقية ، أعلى نسبة انتحار بين شبابها ، علاوة على أمراضهم العصبية والجنونية .. إلخ .

وهذا دليل على أنه ليست المعدة هى كل شيء ، ولا الماديات هى كل شيء ، فهناك مكامن جائعات فى هذه النفوس ، وإلا فما الذى يدعو الإنسان إلى الانتحار ، وترك الحياة ؟ السبب أن لديه قلقاً ! وهو يجد ذاته لا يعرف مصدره!! ولا يعرف طريقاً إلى علاجه!! لأن فيه ملكات نفسية جهلها البشر ، فلم يقننوا لها ، وإن قننوا لها فتقنين جاهل بها ، لم يخلقها .

إذن .. فالذى يخلق الشيء هو الذى يقنن له ، وعلى ذلك : فالحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو الذى خلق النفس البشرية ، وهو لذى يقنن لها . وقد جاءت الرسل لتنظيم حركة الحياة للإنسان ، وبقانون صيانته . وما دامت هذه هى مهمة الرسل عليهم الصلوات والسلام ،وهم يدورهم سيتعرضون لقوانين اقتصادية وسياسية ، وعملية واجتماعية وخلقية ، وسيتعرضون لأشياء كثيرة ، منها القوانين التعبدية ، والقانون التعبدى الذى

يقول فيه الله سبحانه وتعالى : تقرب إلىّ بكذا [1] ، ليس للعقل مجال فيه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول لك : تقرب إلىّ بأن تصلى خمس صلوات بشكل مخصوص[2] ، ولكن فى القوانين الأخرى ، التى تتعلق بنظام المجتمع ،

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشيء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » .

أخرجه البخارى [٦٥٠٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

أخرجه البخارى [٧٤٠٥] واللفظ له ، ومسلم [٤/٢٦٧٥] .

(٢) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتانى جبريل عليه السلام من عند الله تبارك وتعالى ، فقال : يا محمد إن الله عز وجل قال لك : إنى قد فرضت على أمتك خمس صلوات ، من وافانى على وضوئهن ومواقيتهن ، ومجودهن ، فإن له عندى بهن عهدا أن أدخله بهن الجنة ، ومن لقينى قد أنقص من ذلك شيئاً أو كلمة تشبهها فليس له عندى عهد - إن شئت عذبته ، وإن شئت رحمته » .

أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده [١/٦٦ برقم ٢٥١] ، وأبو نعيم فى الحلية [٥/٢٢٦] ، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٨٤٢] .

سياسة أو اجتماعًا ، أو ... أو ... إلى آخره ، فناقشها ما شئت بعقلك ، وقارنها بأى قانون اقتصادى فى العالم ، وستجد أن القوانين التى وضعها الإسلام لزوايا الحياة الاجتماعية ، هى المتفوقة ، وهى ذات السبق .

إذن .. ففى كل التعبّديات لامجال للعقل ، ويجب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما يريد . أما ما عدا التعبّديات فناقشها بعقلك ، وقارنها بأرقى المستويات ، وستجد السبق والتميّز لها ، مع الشمول والاستيعاب . والدليل على ذلك : أن الأشياء التى كان أعداء الإسلام ، يأخذونها على الإسلام ، حينما كانوا يعدّلون قوانينهم ،كان القانون بعد تعديله ، يلتقى مع وجهة نظر الإسلام .

فمثلا : كانوا ناثرين على الإسلام فى مسألة الطلاق ، وبعد ذلك انتهوا فى إيطاليا ، وفى بعض الدول الأخرى ، إلى أن الحل السليم والوحيد لمشكلات أسرية مستعصية هو « إباحة الطلاق »[1] ؛وذلك لأنهم وجدوا شرور عدم

= وعن مالك بن الحويرث قال : أتينا إلى النبى ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا ، فلما ظنَّ أنَّا قد اشتهينا أهلنا- أو قد اشتقنا - سألنا عمَّن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، قال : « ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلِّموهم ، ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها - وصلُّوا كما رأيتمونى أصلِّى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم » . أخرجه البخارى [٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦] .

(١) قال تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد ، وكانت عندهم العدة معلومة مقدَّرة ، وكان هذا فى أول الإسلام برهة ، يطلِّق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق ؛ فإذا كادت تحل من طلاقه راجعها ما شاء ؛ فقال رجل لامرأته على عهد النبى ﷺ : لا آويك ولا أدعك =

الطلاق أكثر ؛ ولذلك فهم حُكَّمًا يرتقون أو يستنيرون ، أوتعذبهم هذه الحياة بواقعها ! فيعودن بشكل مباشر إلى قانون الإسلام .

ومثلا تعرف أن أمريكا تُنفق ولا تزال ، من أجل محاولة تحريم أو تخفيف شرب الخمور ، ملايين الدولارات ، والإسلام حرّمها تدريجيًا حتى يتيسّر للناس الطاعة دون مشقة وانتهى الناس عنها ، وتعدد الزوجات ، الذى جعلوه عيبًا من عيوب الإسلام ،هم الآن يبحثون فى ضمّه لقوانينهم ؛ لأنهم يعتبرونه أفضل من النظام الموجود لديهم .

والقوانين الاقتصادية أيضًا ، إذا نظرت إليها ووجدتها ترقي ، فستجدها فى رقيها تحاول أن تلتقى مع أحكام الإسلام . فالإسلام جاء من أقصر طريق .. لماذا ؟ لأنه تقنين العليم بمن خلق .

حين أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالمنهج ، نجد فيه أشياء نسميها نحن فى الوسائل التربوية الآن : وسائل إيضاح . ووسائلُ الإيضاح هذه تنقل الكلام النظرى إلى كلام عملي ، ومعنى وسائل الإيضاح : أنها أمر مادى عملي ، يرينا صدق القضية النظرية ، فإذا قلت : الحرارة تمدّد الأجسام ، فلكى نثبت

= تحلينَ ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضيّ عدّتك راجعتك . فشكت المرأة ذلك إلى عائشة ؛ فذكرت ذلك للنبى ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ يأتنا لعدد الطلاق الذى للمرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر ووليّ ، ونسخ ما كانوا عليه . قال معناه عروة بن الزبير ، وقتادة وابن زيد وغيرهم . وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم : المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق ؛ أى من طلق اثنتين ، فليتق الله فى الثالثة . فإما تركها غير مظلومة شيئا من حقها ، وإما أمسكها محسنا عشرتها ؛ والآية تتضمن هذين المعنيين .

تفسير القرطبى [٣/١٢٦] .

ذلك لابد أن نوضحه بشكل عملي . مثال على ذلك : نأتي بحلقة معدنية ونمرر بها الكرة وسنجد أن الكرة ،تمر من الحلقة بسهولة ، ولكن لو تم تسخين الحلقة المعدنية وحاولنا بعد ذلك إدخال الكرة في الحلقة المعدنية فلن تدخل! لماذا ؟ لأن حجم الحلقة قد تمدد بالحرارة ، هذه هي وسيلة إيضاح قد يتبت لنا هذه المسألة النظرية .

والدين يأتي بتشريعات ، فالرسول ﷺ رأى في هذه المرائي أشياء ، وهذه الأشياء تعطى له واقع الأوامر المنهجية ، التي أتى بها التكليف. فأول شيء يعرضه لنا مسألة الفطرة ، وتغيير الفطرة . وقد عُرض على رسول الله ﷺ كأس من اللبن ، وكأس من الخمر ، فاختار عليه الصلاة والسلام كأس اللبن ، وهنا قال له جبريل : « هديت للفطرة »[1] ولنتساءل : ما معنى : هديت للفطرة ؟

(١) أخرج البخاري [٤٧٠٩] رحمه الله من حديث أبي هريرة قال : أُتي رسول الله ﷺ ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن ،فنظر إليهما ، فأخذ اللبن . قال جبريل : الحمد لله الذي هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك .

وأخرج [٣٨٨٧] من حديث مالك بن صعصعة : « ثم رفع لي البيت المعمور . ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذت اللبن ، فقال :هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك .. » .

وأخرج [٥٦١٠] عن شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك معلقًا بصيغة الجزم ، ووصله أبو عوانة والإسماعيلي والطبراني في الصغير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رُفعتْ إليَّ السدرة ، فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان فنهران في الجنة . فأتيت بثلاثة أقداح : قدح فيه لبن وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ؛ فأخذت الذي فيه اللبن ، فشربت ، فقيل لي : أصبت الفطرة أنت وأمتك » . =

= قال البخاري : وقال هشام وسعيد وهمام عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة عن النبي ﷺ في الأنهار نحوه ، ولم يذكروا ثلاثة أقداح .

قال الحافظ رحمه الله : قال القرطبي : يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة ؛ لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه ، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره ، لكونه كان مألوفًا له ؛ ولأنه لا ينشأ عن جسم مفسدة .

وقد وقع في « رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة » أن إتيانه الآنية كان بعد وصوله إلى سدرة المنتهى « كما في رواية » شعبة عن قتادة عن أنس .. إلا أن شعبة لم يذكر في الإسناد مالك بن صعصعة ؛ رغم موافقته لرواينه » .

وفي حديث أبي هريرة عند ابن عائذ في حديث المعراج بعد ذكر إبراهيم قال : « ثم انطلقنا ، فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة ، فقال جبريل : يا محمد ، ألا تشرب تماسقاك ربك ؟ فتناولت إحداها ، فإذا هو عسل ، فشربت منه قليلاً ، ثم تناولت الآخر ، فإذا هو لبن ، فشربت منه حتى رويت ، فقال : ألا تشرب من الثالث ؟ قلت : قد رويت .قال : وفقك الله » .

وفي رواية البزار من هذا الوجه ، أن الثالث كان خمرًا ، لكن وقع عنده أن ذلك كان بيت المقدس ، وأن الأول كان ماء ، ولم يذكر العسل .. وفي حديث ابن عباس عند أحمد : « فلما أتى المسجد الأقصى ، قام يصلي ، فلما انصرف جيء بقدحين . في أحدهما لبن وفي الآخر عسل ، فأخذ اللبن .. » الحديث .

وقد وقع عند مسلم من طريق ثابت عن أنس أيضًا : أن إتيانه بالآنية كان ببيت المقدس ، قبل المعراج ، ولفظه : ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاء جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : أخذت الفطرة ، ثم عرج إلى السماء .

وفي حديث شداد بن أوس : « فصليت من[1] المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأتيت بإناءين : أحدهما لبن والآخر عسل ، فعدلت =

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب « في » .

= بينهما ، ثم هداني الله فأخذت اللبن ، فقال شيخ بين يدي - يعني جبريل - أخذ صاحبك الفطرة » .

وفي حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق في قصة الإسراء : « فصلى بهم - يعني بالأنبياء - ثم أتي بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فأخذت اللبن .. » . الحديث . وفي مرسل الحسن عنده نحوه ، لكن لم يذكر إناء الماء .

ووقع بيان مكان عرض الآنية في رواية سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عند البخاري ، ولفظه : أتي رسول الله ﷺ ليلة أسري به بإيلياء بإناء فيه خمر ، وإناء فيه لبن ، فنظر إليهما ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل : « الحمد لله الذي هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك »[1] . وهو عند مسلم .

وفي رواية عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة عن أنس عند البيهقي : « فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت ، وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ، وغوت أمتك »[2] .

ويجمع بين هذا الاختلاف ، إما بحمل « ثم » على غير بابها من الترتيب ، وإما هي بمعنى الواو هنا ، وإما بوقوع عرض الآنية مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس ، وسببه ما وقع له من العطش ، وسببه عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة .

أما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها ، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر ، ومجموعها أربعة آنية ، فيها أربعة أشياء ، من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى .

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري ، لما ذكر سدرة المنتهى : « يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمرة لذة =

(١) أخرجه البخاري [٤٧٠٩] واللفظ له ، ومسلم [١٦٨] .
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [٢/٣٦٠] .

= للشاربين ، ومن عسل مصفًّى »[1] فلعله عرض عليه من كل نهر إناء . وجاء عن كعب : أن نهر العسل نهر النيل ، ونهر اللبن نهر جيحان ، ونهر الخمر نهر الفرات ، ونهر الماء سيحان ، والله أعلم .

فتح الباري [٧/٦١٧، ٦١٨] .

قال ابن المنير : لم يذكر السر في عدوله عن العسل إلى اللبن ، كما ذكر السر في عدوله عن الخمر ، ولعل السر في ذلك كون اللبن أنفع ، وبه يشتد العظم ويثبت اللحم ، وهو بمجرده قوت ، ولا يدخل في السرف بوجه ، وهو أقرب إلى الزهد ، ولا منافاة بينه وبين الورع بوجه ، والعسل وإن كان حلالاً ، لكنه من المستلذات التي قد يخشى على صاحبها أن يندرج في قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

قال الحافظ بن حجر : ويحتمل أن يكون السر فيه ما وقع في بعض طرق الإسراء ، أنه ﷺ عطش - كما تقدم - فأتي بالأقداح ، فآثر اللبن دون غيره ؛ لما فيه من حصول حاجته دون الخمر والعسل ، فهذا هو السبب الأصلي في إيثار اللبن ، وصادف مع ذلك رجحانه عليهما من عدة جهات . قال ابن المنير : ولا يعكر على ما ذكرته أنه ﷺ كان يحب الحلوى والعسل ؛ لأنه إنما كان يحبه مقتصدًا في تناوله ، لا في جعله ديدنًا ولا تنطعًا .

فتح الباري [١١/٢٠٣] .

كأن الفطرة بطبيعتها نقية ؛ لأن اللبن الذي نشربه من أمهاتنا ، أو اللبن الذي نشربه مثلاً من الأنعام التي خلقها الله لنا ، لا صنعة للإنسان فيه أبدًا !! إذن .. إننا نشربه كما ينزل ، فهذه هي الفطرة ، لكن في الخمر نحن نأخذ رزقاً من الرزق الحسن ، كالعنب مثلاً ، وبعد ذلك نأتي فنتلفه حين نخمّره ونجعله ينتن ويتحلل ، إذن .. نحن قد أخرجناه عن فطرته .

(١) ذكره الطبري في تفسيره [٢٧/٥٤] .

لذلك حينما يعرض القرآن ذلك يأتي بالحيثيات . كان العرب يشربون الخمر ويقولون : « سَكَر » ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ [النحل : ٦٧] صحيح أنهم يأخذون منه ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ تأمل قوله تعالى : ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ فحينما جاء بالرزق وصفه بالحسن ، وفي قوله : ﴿ سَكَرًا ﴾ سكت عنه ؛ لأنه غير حسن ، ولو قال : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً أحسن » لكان السكر أصبح فيه شيء من الحسن ، لكنه أتى بكلمة ﴿ حَسَنًا ﴾ حتى تكون مقابلة للقبح .

إذن .. فقول جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : « أصبت الفطرة » أي : أنك لم تأخذ نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى ، وأدخلت عليها عملية إفساد . خذ النعمة وأدخل عليها عملية إصلاح ، كاللحم النيئ مثلا : علينا إنضاجه ، والخضار أيضا : علينا طهوه ، لكن أن تأخذ عنبا وتضعه في برميل حتى يتعفن ويتخمر ، هنا تكون قد أخرجته عن طبيعته وعن فطرته . إن ذلك معنى « أصبت الفطرة » .

ولماذا هذا المرئي ؟ قالوا : لأن العقل هو مناط التكليف من الله سبحانه وتعالى ، والخمر جاءت لتستر العقل ؛ لأنه المدخل لتنفيذ أوامر الله سبحانه ، فالمجنون لا يكلفه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن آلة الاختيار بين الأبدال[1] لديه معطلة . ومعنى عَقَل : أن يختار بين أبدال ، فإذا كان أمر لا بديل له ، فلا عمل للعقل فيه ، وما دم وجد الاختيار بين الأبدال ، فلا بد أن يكون

(١) البديل : البدل . وبَدَلَ الشيء : غيّره . ابن سيده : بدل الشيء وبدّله وبديله : الخلف منه . والجمع : أبدال .

لسان العرب [١١/٤٨] .

العقل موجودا سليمًا ، ومقاييسه صادقة ؛ وذلك حتى نختار البديل الحسن وهو « الخير » ، ولا نختار البديل القبيح وهو « الشر » . إن الإنسان الذي يشرب الخمر إنما هو يغيب عقله عن الواقع الذي يعيشه . فكأنه عمد إلى النعمة الكبرى ، ومنفذه إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ومناط تلقي التكليف من الله سبحانه وتعالى ، فعطله عن أداء المهمة التي خلقه الله تعالى لها .

وكل المرائي التي بعدها ، تستلزم وجود العقل التكليفي فيها ، فالجهاد والزكاة والصلاة ، كل هذه فرائض لها أحكامها وشروطها .

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد بالمنظر الأول أن يلفتنا إلى أن الفطرة طبيعتها سليمة ، فلا تفسدوها أنتم بتصرفاتكم . فهذا اللبن صافي صفاء الفطرة ، والخمر أنتم أفسدتموها بصنعتكم فيها ، فقد تدخلتم فيها ببشريتكم ، ولذلك أفسدتموها . فبعد أن كانت نعمة الله سبحانه وتعالى سليمة ، جعلتموها فاسدة .

ويجب أن نلتفت إلى أمر خطر نغفل جميعًا عنه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى خلق لنا العقل ؛ حتى نختار به بين الأبدال ، فإذا أتيتَ أنتَ وسترته بالخمر ، فتكون رددت على الله سبحانه وتعالى نعمته الكبرى عليك ، والتي قد تميّزت بها عن سائر الخلق .

قد نجد الإنسان الذي يفعل ذلك يقول : إنني أستر همومي وأحزاني ، ولكن الرد عليه يكون بأن نقول له : ليس حل المشاكل في الهروب منها ، إنما يكمن حلّها في أن تواجهها . فالحق لا يريد منك أن تنسى مشاكلك ، وتهرب منها وتسترها بالخمر ، ولكن واجهها بعقلك المؤمن . وما دمت ستواجهها بعقلك ، فلابد أن تحافظ على هذا العقل ؛ لكي يكون سليمًا قادرًا على حلّها ، وذلك بأن تمنع عنه أي شيء يطمس قانون اختيار الأبدال فيه .

فهذا هو السبب في ان ذلك هو أول منظر من المناظر التي رآها النبي ﷺ والله تعالى أعلم .

وبعد ذلك مثلا تجد منظراً آخر ، وهذا المنظر الآخر : أنه وجد قوماً يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، وتتكرر هذه العملية عدة مرات، فسأل جبريل من هؤلاء ؟ قال : المجاهدون في سبيل الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى ، هو الوسيلة الناقلة لهدى الله سبحانه وتعالى إلى خلقه . فالجهاد في سبيله هو : الانتشار بالدعوة المنهجية التي جاءت من الله سبحانه وتعالى إلى الناس كي يهتدوا إليها ، والعمل على إزالة المعوقات التي تصد الناس عن الإيمان بالله الواحد الأحد .

إذن .. فلابد لهؤلاء المجاهدين أن تكون لهم ثمرات متعددة ،ولماذا الثمرات المتعددة ؟ لأنهم يجودون بأموالهم ويجودون بأرواحهم . فالذي يجود بماله وبروحه في سبيل الله سبحانه وتعالى ، نجد الله سبحانه وتعالى يضاعف له الأجر أضعافًا مضاعفة .

إذن .. فالرسول ﷺ حينما أراه الله سبحانه وتعالى هذه الصورة ، فقد أراه إياها ؛ ليوضح هذه الحقيقة للذين يجاهدون في سبيل الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] . ولا شك أن الناس يجودون بالأشياء ؛ طمعًا فيما تأتي به من الخير . فالفلاّح مثلاً يكون عنده جوالان من القمح ، وعندما تأتي أيام الزرع يأخذ جوالاً مما عنده ، فينقص ما عنده جوالاً ، وبعد ذلك يطرحه في الأرض ، لكن الجوال الذي طرحه في الأرض سيزيد له عشرات الأجولة بعد ذلك ، وإن الحبة من القمح ستأتي له بحبات كثيرة .

فإذا كان ذلك عطاء الأرض الصماء ، التي هي خلق من خلق الله سبحانه وتعالى ، فكيف يكون عطاء الله سبحانه وتعالى ؟!

إذن .. فالله تعالى يؤنسنا بالأمر المادي ، ولذلك فإذا جُدْتَ أيها المجاهد بمالك ونفسك ، فذلك كله عند الله سبحانه وتعالى يضاعفه لك ، وإذا كانت الأعمال بنتائجها ، فنتيجة هذا هو النفع العام لك .

وبعد ذلك يُرِي الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ منظرًا آخر وهو : الدنيا . ونحن نعرف أنها زينة وزخارف ولهو ولعب ، وذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، فالله سبحانه وتعالى أراه هذا المنظر - منظر الدنيا - بأنها امرأة عجوز ، وعليها من كل زينة . فقال له : ما هذه يا جبريل ؟ قال : « لم يبق من عمر الدنيا ، إلا ما بقي من عمر هذه »[1] . والرسول ﷺ يقول : « بُعثت أنا والساعة هكذا »[2] ولم يبق من عمر

(١) روى ابن جرير الطبري بسنده عن أنس بن مالك ، قال : لما جاء جبريل عليه السلام بالبراق إلى رسول الله ﷺ ، فكأنها ضربت بذنبها ، فقال لها : « مه يا براق ، فوالله ما ركبك مثله . فسار رسول الله ﷺ ، فإذا هو بعجوز ناءٍ عن الطريق : أي على جنب الطريق . فقال : « ما هذه يا جبريل ؟ قال : سر يا محمد ، فسار ما شاء الله أن يسير .. » ، « ..ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق ، فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر تلك العجوز .. » .

تفسير الطبري [٦/١٥] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٩٥٠] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « ... وذكر الحديث وقرن شعبة بين إصبعيه المسبحة والوسطى » .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » . أخرجه البخاري [٦٥٠٢،٦٥٠٤،٦٥٠٥] ، ومسلم [٢٩٥١/١٣٣،١٣٥] .

الدنيا إلا كما يقى من عمر هذه المرأة ، فإذا كان عمرها هذا ، فلماذا تشغلون أنفسكم بها هذا الشغل الكبير ؟ أعطوها على قدر عمرها [1] .

وإذا فرضنا أنه بقى من عمر الدنيا الكثير فهذا الكثير لغيرك ، ما حقك أنت فيه ؟ إذا قست الدنيا بعمرك أيضاً ، وجدت أنها بقيت دنيا للكل ، ولكن لخلق غيرك ، فمهما طال أمدها ، حتى ولو كان قد بقى فى عمرها مليون سنة مثلاً ، فإنها لن تمكث المليون سنة لك .

إذن .. يجب أن تقيس الدنيا بعمرك أنت فيها ، فإذا كان متوسط عمر الإنسان « ستين سنة » أو « سبعين سنة » ، فإذا ضحّى الإنسان بهذه الستين فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أنني سأضحى بشيء محدود ، لكن فى غاية غير محدودة وهى الآخرة ، هذه هى أول مقارنة .

أما الثانية فنقول : إن السبعين سنة ليست متيقَّنة ، فقد يموت الإنسان وهو صغير .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثّر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه ، قلت : يا رسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وما للدنيا ؟ ما أنا وفى الدنيا ، إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .
أخرجه أحمد فى المسند [٣٩١/١] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٧٠٩] . وأخرجه الترمذى [٢٣٧٧] واللفظ له ، وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه [٤١٠٩] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٣١٧] .
وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » . أخرجه البخارى [٦٤١٦] .

فوجودى وعمرى فى الحياة الدنيا غير متيقَّن ، ولكن الآخرة هى المتيقَّن .

وأما نعيمى فى دنياى فعلى قدر من ؟ إنه على قدر إمكاناتى ، وعلى قدر جهدى فى الأخذ بالأسباب ، وعلى قدر تصوراتى فى النعيم . أما نعيمى فى الآخرة ، فهو بقدرة القادر سبحانه وتعالى ، وعطائه فى النعيم .

إذن .. حينما نأتى ونقارن عمر الدنيا بعمر الإنسان ، سنجد أن المقارنة ليست فى صف الإنسان .

فهو .. محدود هنا ، وغير محدود فى الآخرة .

غير متيقَّن هنا ، ومتيقَّن فى الآخرة .

النعيم الدنيوى على قدر إمكاناتي ، ونعيم الآخرة بقدرة الله سبحانه .

فإذا كانت الدنيا عجوزًا ،ولم يبق منها إلا هذا ، ولو بالنسبة إلى كل إنسان ، فما الذى يجعلنى أجعل الدنيا هى كل همّى[1] ؟ هذا هو أحد المراثى التى رآها رسول الله ﷺ .

وهناك منظر آخر : فالرسول ﷺ رأى هناك أناسًا ، والمقص يقصّ شفاههم وألسنتهم ، لماذا ؟ لأن الشفاه واللسان ، هما الأداتان اللتان تتعاونان فى إخراج الكلام . فقال لجبريل عليه السلام : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : « هم خطباء الفتنة » !! ومن هم خطباء الفتنة ؟ قال : الذين يقولون ما لا يفعلون ، فألسنتهم أحلى من العسل ، وفعلهم كالأسي . ويحدثون الفتنة ؛ لأن آفة كل

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدّر له » أخرجه الترمذى [٢٤٦٥] ، وابن ماجة [٤١٠٥] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٠٥] .

دعوة هم : خطباء الفتنة فيها ، يقولون كلامًا يسمعه الناس ،ولهم فعل يخالف ما يقولون ، فيقارن الناس فعلهم بقولهم ، فيرون كلامًا يقال ، وفعلاً يخالف ما يقال .

وإذا انفصلت الكلمة عن « السلوك » انقلبت المناهج كلها .

بمعني : إذا جلست أشرح لابني مضارّ الكذب ، وأحذّره عن الصدق يوميًا ، فإذا جاء يوم وطلبني شخص وأنا بالبيت ، وكان ردّي : قولوا له : إنني غير موجود ، هذا الفعل يهدم كل شيء من قولي ، وبعد ذلك يستقر الكذب في وجدان الابن[1] .

(١) الكذب فعل قبيح والمؤمن لا يكذب ، كما في الحديث ، عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدّيقًا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذّابًا » .

أخرجه البخاري [٦٠٩٤] واللفظ له ، ومسلم [١٠٣/٢٦٠٧] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أخرجه البخاري [٣٣،٢٦٨٢،٢٧٤٩،٦٠٦٥] ، ومسلم [٥٩] .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « رأيت رجلين أتياني قالا الذي رأيته يشقّ شِدْقه فكذّاب يكذب بالكذبة تُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به إلى يوم القيامة » . أخرجه البخاري [٦٠٩٦] .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

أخرجه البخاري [٣٤،٢٤٥٩،٣١٧٨] واللفظ له ، ومسلم [٥٨] . =

إذن .. إن هناك كلامًا يُقال ، وفعلاً يُفعل مضادًا له ؛ وبذلك تكون الكلمة قد انفصلت عن السلوك .

وأيضا خطباء الفتنة هم الذين يبررون للناس تصرفاتهم ، فيجعلون الدين مبرراً لتصرفاتهم . بمعنى : أن التصرف يكون أولاً ، ثم يطلبون له مبررًا من الدين ، والدين ليس تبريرًا ، ولكنه دين تدبير للمسائل . هو الذي يدبّر الأمر أولاً ، فلا تقل : إن المجتمع حلّت به البلوى ، وبعد ذلك تحاول أن تجد حلاً من الدين لملاء المجتمع ، فكأنك ستهبط بمنهج الله إلى مستوى أفعال الناس ، وهذا لا يصح فالأصل أن منهج الله جاء ليرفع الناس ،لا ليهبط إلى مستواهم . ولذلك تجد في كلام الله سبحانه وتعالى ، الدعوة إلى السمو والعلو .

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ﴿ تَعَالَوْا۟ ﴾ معناها : أقبلوا ، نعم هي تحمل هذا المعنى ، لكن ﴿ تَعَالَوْا۟ ﴾ هنا معناها : ارتفعوا إلى المستوى الأعلى ؛ لتأخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى .

لاتتركوا أنفسكم في حضيض مدنيتكم المزعومة ، ولنا أن نعلم أن أي مدنية لا تحرسها العقيدة فهي مدنية زائفة زائلة .

إذن .. خطباء الفتنة : هم الذين يقولون مالا يفعلون ، أو هم الذين يبررون لكل منحرف انحرافه كما إنهم يُلبسون الحق بالباطل .

= وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام ، عِرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم » . أخرجه الترمذي [١٩٢٧] وقال : حديث حسن غريب . وصححه الألباني في صحيح الترمذي [١٥٧٢] .

وبعد ذلك تأتي المرائي الأخرى ، وهي مركزة حول معانٍ تتعلق بالمال وتتعلق بالأعراض وتتعلق بالكلمة .

أما الذي يتعلق بالمال ، فإن الحق سبحانه وتعالى عرض على رسول الله ﷺ آية . هذه الآية : أنه رأى قومًا يسبحون في بحر من دم ، ثم مع ذلك يلقمون الحجارة . فسأل عنهم جبريل عليه السلام ، فقال : هؤلاء أكلة الربا [1] .

(١) قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

قال الشوكاني ،الربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء يربو :إذا زاد .وفي الشرع يطلق على شيئين : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، حسبما هو مفصّل في كتب الفروع .وغالب ما كانت تفعله الجاهلية ، أنه إذا حلّ أجل الدين ، قال من هو له ، لمن هو عليه : أتقضي أم تربي ؟ فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه ، وأخّر له الأجل إلى حين . وهذا حرام بالاتفاق . وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله ، وقد كتبوه في المصحف بالواو . قال في الكشاف : على لغة مَنْ يفخم ، كما كتبت الصلاة والزكاة ، وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع .

قلت : وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشي عليه ، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية ، لا يشاحح[1] في مثلها ، إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذي كان في أصل الكلمة ونحوه ، كما هو مقرر في مباحث الخط من علم الصرف . وعلى كل حال فرسم الكلمة ، وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها ، هو الأولى ، فما كان في النطق ألفا كالصلاة والزكاة ونحوهما ، كان الأولى في =

(١) تشاحّوا في الأمر وعليه : شحّ به بعضهم على بعض ، وتبادروا إليه حذر فوته ، ويقال : هما يتشاحّان على أمر إذا تنازعاه ، لا يريد كل واحد منهما أن يفوته .
لسان العرب [٢/٤٩٥] .

= رسمه أن يكون كذلك . وكون أصل هذه الألف واوا أو ياء ، لا يخفى على من يعرف علم الصرف . وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذي يدل بها عليه ؛ كيف هو في نطق من ينطق به ، لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا ، مما لا يجري به النطق . فاعرف هذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النقوش ، ويلزمون به أنفسهم ، ويعيبون من خالفه ، فإن ذلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحية ، التي لا تلزم أحداً أن يتقيد بها . فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللافظ عند قراءتها ، فإنه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها ، وليس الأمر المطلوب منها ، أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة ، التي يتلفظ بها المتلفظ ، مما لا يجري في لفظه الآن . فلا تغتر بما يروى عن سيبويه ، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو ؛ لأنه يقول في تثنيته ربوان . وقال الكوفيون : يكتب بالياء وتثنيته ربيان . قال الزجاج : ما رأيت خطأً أقبح من هذا ولا أشنع ، لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية وهم يقرؤون : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

وليس المراد بقوله هنا : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله ، بل هو عام لكل من يعامل بالربا ، يأخذه ويعطيه ، وإنما خص الآكل ؛ لزيادة التشنيع على فاعله ، ولكونه هو الغرض الأهم . فإن آخذ الربا إنما أخذه للأكل .

قوله : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أي يوم القيامة ، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ يوم القيامة ؛ . أخرجه عبد ابن حميد ، وبين أبي حاتم[1] ، وبهذا فسره جمهور المفسرين ، قالوا : إنه يبعث كالمجنون عقوبة له ، وتمقيتاً عند أهل المحشر . وقيل : إن المراد تشبيه من يحرص في تجارته ، فيجمع -لله- من الربا بقيام المجنون ؛ لأن الرس والطمع والرغبة في الجمع ، =

(١) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره [٢٨٨٧] .

= قد استفزته حتى صار شبيها في حركته بالمجنون ، كما يقال لمن يسرع في مشيه ويضطرب في حركاته : إنه قد جُن ، ومنه قول الأعشى في ناقته :

وتصبح عن غِبِّ السُّرى وكأنها ... ألَمَّ بها من طائف الجنِّ أوْلَقُ[1]

تجعلها بسرعة مشيها ونشاطها ، كالمجنون .

قوله : ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أى إلا قياما كقيام الذى يتخبطه ، والخبط : الضرب بغير استواء ، كخبط العشواء وهو المصروع . والمس : الجنون ، والأمس : المجنون ، وكذلك الأولق . وهو متعلق بقوله : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أى لا يقومون من المس الذى بهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أو متعلق بـ ﴿ يَقُومُ ﴾ . وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن الصرع لايكون من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وقال : إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان ، وليس بصحيح ، وإن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ، ولا يكون من مس . وقد استعاذ النبى ﷺ من أن يتخبطه الشيطان ؛ كما أخرجه النسائى وغيره[2] . =

(١) البيت من قصيدة للأعشى ، بعنوان « مدح المحلّق » ، وهى قافية من بحر « الطويل » ، وللبيت رواية أخرى بالديوان :

وتصبح عن غِبِّ السرى كأنها ... ألمّ بها من طائف الجن أولق

والسُّرى : السير ليلاً . الأولق : المجنون .

ديوان الأعشى [١٨١] .

(٢) عن أبى اليسر أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « اللهم إنى أعوذ بك من الهدم وأعوذ بك من التردّي ، وأعوذ بك من الغرق ، والحرق ، والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً » . أخرجه أبو داود [١٥٥٢] واللفظ له ، والنسائى فى المجتبى [٨/٢٨٢، ٢٨٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٣٧٣] .

= قوله : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم ، بسبب قولهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ أى أنهم جعلوا البيع والربا شيئا واحدا . وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة ، بجعلهم الربا أصلاً ، والبيع فرعاً ؛ أى إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل ، كالبيع بزيادة عند حلوله ؛ فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك . فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا ﴾ أى أن الله أحل البيع ، وحرم نوعا من أنواعه ، وهو البيع المشتمل على الربا . والبيع مصدر باع يبيع ، أى دفع عوضاً وأخذ معوضا ، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب .

قوله : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أى من بلغته موعظة من الله ، من المواعظ التى اشتملت عليها الأوامر والنواهى ، ومنها ما وقع هنا من النهى عن الربا ﴿ فَٱنتَهَىٰ ﴾ أى فامتثل النهى الذى جاءه ، وانزجر عن المنهى عنه ، وهو معطوف . أى قوله : ﴿ فَٱنتَهَىٰ ﴾ على قوله : ﴿ جَآءَهُۥ ﴾ .

وقوله : ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ جَآءَهُۥ ﴾ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة ، أى كائنة ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أى ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به ؛ لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا ، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا .

وقوله : ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قيل : الضمير عائد إلى الربا ، أى وأمر الربا إلى الله فى تحريمه على عباده ، واستمرار ذلك التحريم . وقيل : الضمير عائد إلى ماسلف ، أى أمره إلى الله فى العفو عنه ، وإسقاط التبعة فيه . وقيل الضمير يرجع إلى المُربِى[1] ، أى أمر من عامل بالربا إلى الله فى تنبيه على الانتهاء ، أو الرجوع إلى المعصية .

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى أكل الربا والمعاملة به : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ والإشارة إلى ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ جمع أصحاب باعتبار معنى ﴿ وَمَنْ ﴾ .=

(١) المُربى : الذى يأتى الربا .

وكونهم يسبحون فى بركة من الدم ، نحن نعلم أن الدم يفيد وينفع حين يكون ساريًا فى الشرايين والأوردة ، ولكنه حين يخرج للهواء يتجلط ويصبح شيئًا ثقيلاً ؛ لذلك فهو يثبط من يسبح فيه ، ومن المفترض أن الدم ينفع فى مكانه المخصص له لا أن يسبح الإنسان فيه ، ومع ذلك يلقم الحجارة .

إذن .. لم يغنِ الدم الذى يسبح فيه عن غذائه الأساسى ، بل هو قد استعاض عن الغذاء الأساسى الذى هو الدم بأن يلقم الحجارة . وذلك أمر طبيعى ؛ لأن ما معنى المرابأة ؟ المرابأة : أن تستغل فرصة عدم مقدرة ، وفقر فقير ؛ لتزيد أنت من مالك .

معنى ذلك أنك قد جعلت نفسك كل شىء ، وجعلت أنانيتك فى الانتفاع هى كل شىء ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض مباحة لجميع الناس ، يعملون فيها طاقاتهم المخلوقة لله سبحانه وتعالى ، بعقولهم المخلوقة لله . أى أنك تكدح فى المادة المخلوقة لله ، بالفكر الذى خلقه الله ، وبالقوة والطاقة التى خلقها الله ، فلا أقل من أن تجعل الله مضاربًا معك ؛ يعنى أن لله ما خلق من مال ، ولك أنت العمل . بل أنت ليس لك عمل أنت لك فكر تخطط به من فعل الله ، وأرض تحصد فيها من خلق الله ، وطاقة وقوة تعمل بها من خلق الله ، وبعد ذلك تكتسب شيئا . فلا أقل من أن تتصدق على المعدم ، الذى لا يجد القوة التى يعمل بها ، أو الذى لا يجد المجال ليعمل ، أو الذى

- وقيل : إن معنى : ﴿ وَمَن عَادَ ﴾ هو أن يعود إلى القول بـ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود . وعلى التقدير الأول يكون الخلود مستعارا ، على معنى المبالغة ، كما تقول العرب : ملك خالد ، أى : طويل البقاء . والمصير إلى هذا التأويل ، واجب للأحاديث المتواترة ، القاضية بخروج الموحدين من النار .

فتح القدير [١/٣٧٠-٣٧٦] .

لا يجد المكان يخصص [illegible] الذى أتاك إياه ، فكونك تستغل ضعف المعدم وفقره ؛ لتزداد أنت شيئًا من الغنى ، فهذا هو الظلم الفاحش .

إذن .. فالله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً ؛ حتى يبيّن للناس أنهم بعملهم القبيح هذا لن يستفيدوا منه شيئًا ، وأنهم سيكسبون دماء لا تجرى فى عروقهم ، ولكن ليسبحوا فيها ، فانظروا الذى يسبح فى الدم ، ما فائدته منه ؟! ومع ذلك غذاؤه الحقيقى أنه يلقم الحجارة . هذه صورة من صور الربا ، التى أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ .

وبعد ذلك تكلم عن الأعراض ، والأعراض : هى المادة الشهية التى ينفذ منها الشيطان لكثير من خلق الله سبحانه وتعالى ؛ لذا يزين عدو الله الأموال للناس ؛ ليجمعوها حتى ولو كان ذلك بالباطل وأعراض الناس لينهشوا فيها .

إذن .. فالمال والعرض هما موضوع الفساد فى الأرض . ومن العجيب أن عقوبة الغيبة التى أراها الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ، كانت فى ثلاث صور :

الأولى : رأى قومًا لهم أظفار من نحاس ، يخمشون بها وجوههم ، فسأل عنهم ، فقيل : الذين يغتابون الناس .

الثانية : رآهم يأخذون قطعا من لحومهم فيأكلونها .

الثالثة : رآهم يأخذون لحما منتنًا فيأكلونه .

ثلاثة مراءٍ ، هذه المرائى كانت لبيان نقاعة هذا الجرم ، الذى هو أن يغتاب الإنسان أخاه الإنسان ، وبعد ذلك كونه ميتة ، بمعنى أنه لو كان حيًا كان يمكنه أن يدافع عن نفسه ، ولكن لأن الأمر غيبة ، ولا يستطيع المغتاب أن يرد عن نفسه ، كان كالميت الذى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وبعد ذلك صورة أخرى ، وهي : صورة الزنا . تلك الصورة البشعة ، أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في صورة قوم أمامهم لحم طيب ، يتركون هذا اللحم الطيب ، ويذهبون إلى لحم خبيث نتن ، فسأل ﷺ عن ذلك ، فقال : الرجل تكون عنده المرأة الحلال فيتركها ، ويذهب إلى المرأة الحرام ، أو المرأة يكون عندها الرجل الحلال ، فتدعه ، وتذهب إلى الرجل الحرام .

وأيضًا صورة أخرى : وهي صورة الكلمة يقولها الإنسان ، ونحن نقرأ قول بعض الحكماء ، أو الأدباء : « أنا إن لم أتكلم بالكلمة ملكتها ، وإن تكلمت بها ملكتني » فنحن أتكلم بها لا أقدر على ردها ثانية .

كذلك كان من بين المرائي التي رآها النبي ﷺ ، رأى ثورًا عظيمًا قد خرج من جحر ، ويريد ذلك الثور أن يدخل الجحر مرة ثانية ، فلا يستطيع . فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام فقال : هذا مثل الرجل يقول الكلمة ، ثم يحاول أن يرجع فيها فلا يستطيع .

وبعد ذلك رأى رسول الله ﷺ رجلاً يحمل حملاً لا يقدر عليه ، ومع ذلك يمد يده إلى شيء آخر ليحمله فوق حمله ، فسأل عن ذلك ، فقال : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ،يعجزون عن أدائها ، ومع ذلك يثقلون ظهورهم بحمل جديد ، وهم غير قادرين على حمل ما معهم .

إن الغاية من تلك المرائي التي رآها رسول الله ﷺ أن يعلم المؤمنين ، كيف يكون جزاء من يفعل ذلك ، وكيف تكون نتيجة هذه المحرمات وعاقبتها فيتخلوا عنها ولا يرتكبوها .

ومن المرائي التي رآها ﷺ : رأى قومًا يرضخون رؤوسهم بالحجارة ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال :

هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة [1] ، والظاهر لنا أنهم يضربون الرءوس ؛ لأن التثاقل عن الصلاة يبدأ أول ما يبدأ من الرأس ؛فإن الإنسان إذا ركّز طاقاته وكل إمكانياته بحيث يؤديها ، فإنه يؤديها مهما كانت ظروفه ؛

(١) ذكر البيهقي في حديث الإسراء الطويل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ قال : أتي بفرس فحمل عليه ، قال : كل خطوة منتهى أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون[1] في سبيل الله ، يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقل رؤوسهم عن الصلاة .

قال : ثم أتى على قوم على أقبتهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام عن الضريع والزقوم ، ورضف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم في قدر نضج طيب ، ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضج الطيب ، فقال : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هذا الذي يقوم وعنده امرأة حلالاً طيبًا فيأتي المرأة الخبيثة ، فتبيت معه حتى يصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصمته ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] . =

(١) هكذا وقع عند البيهقي ، وفي الدر المنثور [٥/١٩٩] : المجاهدون .

ومهما كانت حيلته ، ومهما كانت الموانع التى منعه . ولكن الإنسان يبرر لنفسه ترك الصلاة بأسلوب يختاره ، مثلاً الحرص على المصلحة ، ضيق الوقت ، عدم القدرة وأشياء من هذا القبيل .

فكأن الفكرة التى توحى للإنسان بأن يتكاسل عن الصلاة ، إنما هى فكرة تنبت فى رأسه ، فالرأس الذى سوّل للإنسان أن يتكاسل عن أداء الصلاة ، هو الذى يستحق هذا الجزاء ، ويجب أن يرضخ بالحجارة . وليته يرضخ مرة

= ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ! ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة ، لا يستطيع أداءها ، وهو يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء ، قال : يا جبريل! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطب[1] الفتنة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم[2] ، فجعل الثور[3] يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع ، قال : ما هذا يا جبريل! قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها ، فيريد أن يردها ولا يستطيع ... » .

أخرجه البيهقى فى الدلائل [٣٩٧/٢-٣٩٩] ، وانظر الدر المنثور [١٩٨/٥-٢٠٠] ، وتفسير الطبرى [٧٠٦/١٥] ، وانظر هامش [ص٥٣٣ ، ٥٣٤] من هذا الكتاب .

---

(١) هكذا بالأصل وهو خطأ ، لعله « خطباء » .

وذهب أبو إسحاق إلى أن الخُطْبة عند العرب : الكلام المنثور المسجّع ونحوه . ورجل خطيب : حسن الخُطبة ، وجمع الخطيب خطباء . [لسان العرب : ١٦٣/١] .

وقد ورد فى الدر المنثور [٩٩١/٥] ، وتفسير الطبرى [٧/٥١] : خطباء الفتنة .

(٢) ، (٣) هكذا بالأصل ولعله خطأ من الطابع أو الناسخ ، وفى تفسير الطبرى [٧/١٥] والدر المنثور [٩٩١/٥] : ثور عظيم .

ويتعبى ويموت ، ولكن لا يفتر عنه ، ومعنى لا يفتر عنه : أى يعود ثانية ليضرب مرة أخرى[1] ، وهكذا ، فيبقى كذلك فى عذاب إلى ما شاء الله .

○○○

---

(١) يقول الراغب الأصفهانى : فتر : الفتور سكون بعد حِدَّة ، ولين بعد شِدَّة ، وضعف بعد قوة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة : ١٩] أى سكون حال ، عن مجيء رسول الله .

وقوله : ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لكل عالم بِرْوة ، ولكل بِرْوة فترة ، فمن فتر إلى سنتى فقد نجا ، وإلا فقد هلك » ، فقوله : لكل بِرْوة فترة ، فإشارة إلى ما قيل : للباطل جولة ثم يضمحل ، وللحق دولة لا تذلُّ ولا تَقِلُّ . وقوله : « من فتر إلى سنتى » أى سكن إليها ، والظرف الفاتر فيه ضعف مستحسن .

مفردات ألفاظ القرآن [٦٣٨] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [١٥٨/٢] عن عبد الله بن عمرو بلفظ : « فإن لكل عابد بِرْوة ، ولكل بِرْوة فترة ، فإما إلى سُنَّة ، وإما إلى بدعة ، فمن كانت فترته إلى سُنَّة فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » وصححه الشيخ شاكر رقم [٦٤٧٧] .

ورد ذكرها فيما أخرجه البخارى من حديث قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة ، وفيه : « قال : هذه سدرة المنتهى . وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان . فقلت : ما هذان ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

وفى لفظ آخر عن مالك : « فى أصلها - يعنى سدرة المنتهى - أربعة أنهار .. » الحديث .

ووقع فى رواية شريك : « فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يُطردان . فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ، ثم مضى فى السماء فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : الكوثر الذى حبأ لك ربك .. » الحديث .

قال الحافظ رحمه الله : ووقع فى « صحيح مسلم » من حديث أبى هريرة : « أربعة أنهار فى الجنة : النيل والفرات وسيحان وجيحان » . فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة فى الجنة ، والأنهار تخرج من تحتها ، فيصح أنها من الجنة .

قال ابن أبى جمرة : فيه أن الباطن أجل من الظاهر ، لأن الباطن جعل فى دار البقاء ، والظاهر جعل فى دار الفناء ، ومن ثَمَّ كان الاعتماد على ما فى الباطن كما قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

وقوله : « وأما الظاهران فالنيل والفرات » : وقع فى رواية شريك : أنه رأى فى السماء الدنيا نهرين يُطردان ، فقال له جبريل : هما النيل والفرات عنصرهما - والعنصر بفتح العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة : هو الأصل - والجمع بينهما ، أنه رأى النهرين عند سدرة المنتهى ، مع نهرى الجنة ، ورآهما فى سماء الدنيا دون نهرى الجنة ، وأراد بالعنصر عنصر امتيازهما بسماء الدنيا ، كذا قال =

(١) أخرجه مسلم [٢٥٦٤] . من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

= ابن دحية . ووقع فى حديث شريك أيضًا : « ومضى به برقى السماء ، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده ، فإذا هو مسك أذفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى حبأ لك ربك » . ووقع فى رواية يزيد ابن أبى مالك عن أنس عند ابن أبى حاتم : أنه بعد أن رأى إبراهيم قال : « ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة حتى انتهى إلى نهر عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وعليه طير خضر ، أنعم طير رأيت . قال جبريل : هذا الكوثر الذى أعطاك الله ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجرى على رضراض من الياقوت والزمرد ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن . قال : فأخذت من آنيته ، فاغترفت من ذلك الماء فشربت ، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك » .

وفى حديث أبى سعيد : « فإذا فيها عين تجرى ، يقال لها السلسبيل ، فينشق منها نهران : أحدهما الكوثر ، والآخر يقال له : نهر الرحمة » . قلت : فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان المذكوران فى حديث الباب . وكذا روى عن مقاتل قال : الباطنان : السلسبيل والكوثر .

وأما الحديث الذى أخرجه مسلم بلفظ : « سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة »[1] ، فلا يغاير هذا ، لأن المراد به أن فى الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة ، وحينئذ ثم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى ، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك . وأما الباطنان المذكوران فى حديث الباب ، فهما سيحون وجيحون ، والله أعلم .

قال النووى : فى هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة ، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ، ثم يسيران حيث شاء الله ، ثم ينزلان إلى الأرض ، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها ، وهذا لا يمنعه العقل ، وقد شهد به ظاهر الخبر ، فليعتمد ، وأما قول عياض : إن الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى فى =

(١) أخرجه مسلم [٢٨٣٩] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

= الأرض ، لكونه قال : إن النيل والفرات يخرجان من أصلها ، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض ، فيلزم منه أن يكون أصل السدرة في الأرض ، وهو متعقب : فإن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض . .

والحاصل أن أصلها في الجنة ،وهما يخرجان أولا من أصلها ، ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض ، ثم ينبعان ، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات ؛ لكون منبعهما من الجنة ، وكذا سيحان وجيحان .

قال القرطبي : لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء ، لكونهما ليسا أصلاً برأسهما ، وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات ، قال : وقيل : إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهًا لها بأنهار الجنة ، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة . والأول أولى ، والله أعلم .

ووقع من الزيادات في قصة المعراج عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس رفعه : « بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافاته قباب الدر المجوف ،فإذا طينه مسك أذفر ، فقال جبريل : هذا الكوثر »[1] . وله من طريق شيبان عن قتادة عن أنس : لما عرج بالنبي ﷺ .. فذكر نحوه [2] .

وعند ابن أبي حاتم وابن عائذ من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس : « ثم انطلق حتى انتهى بي إلى الشجرة ، تغشيني من كل سحابة فيها من كل لون ، فتأخر جبريل ، وخررت ساجدًا » وفي حديث ابن مسعود عند مسلم : « وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته المقحمات »[3] ، يعني الكبائر . وفي هذه الرواية من الزيادة : « ثم انجلت عني =

(١) أخرج هذه الرواية البخاري [٦٥٨١] من حديث أنس رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري [٤٩٦٤] من حديث أنس رضي الله تعالى عنه .

(٣) أخرجه مسلم [٩٧٢] ، وأحمد في المسند [٤٢٢،٣٨٧/١] والنسائي [٢٢٣/١] ، كلهم من طريق مرة عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه .

= السحابة وأخذ بيدي جبريل ، فانصرفت سريعًا ، فأتيت على إبراهيم ، فلم يقل شيئًا ، ثم أتيت على موسى فقال : ما صنعت ؟ .. » الحديث .

وفيه أيضًا : فقال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما لي لم أمت أهل سماء إلا رحبوا وضحكوا إليَّ ، غير رجل واحد ، فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بي ، ولم يضحك إليَّ ؟ قال : يا محمد ، ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك » .

وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذي : حتى فتحت لهما أبواب السماء ، فرأيا الجنة والنار ، ووعد الآخرة أجمع »[1] وفي حديث أبي سعيد : أنه عرض عليه الجنة ، وأن رمانها ، كأنه الدلاء ، وإذا طيرها ، كأنه البحت ، وأنه عرضت عليه النار ، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها [2] .

وفي حديث شداد بن أوس : « فإذا جهنم تكشف عن مثل الزرابي ، ووجدتها مثل الحمة السخنة »[3] وزاد فيه : أنه رآها في وادي بيت المقدس ، وفي رواية يزيد =

= « والمقحمات » جمع مؤنث سالم اسم فاعل من أقحم ، ومعناها : الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها . لسان العرب [٤٦٣/١٢] .

(١) حديث حذيفة أخرجه أحمد في مسنده [٣٨٧/٥] ،والترمذي في سننه رقم [٣١٤٧] والنسائي في الكبرى [١١٢٨٠] كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن حذيفة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي [٢٥١٥] .

(٢) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [٣٩٠/٢] من طريق أبي محمد بن أسد الحماني عن أبي هارون العبدي – عمارة بن جوين– عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ .

والحديث موضوع ؛آفته أبو هارون العبدي– عمارة بن جوين– قال في التقريب [٤٧٨٤] متروك ، ومنهم من كذَّبه .

(٣) أخرج حديث شداد الطبراني في الكبير [٧١٤٦] ، والبزار في مسنده [رقم ٣٢ – مختصر] ، وصححه البيهقي في الدلائل [٣٥٥/٢-٣٥٧] ، وذكره الهيثمي في المجمع [٧٩،٧٨/١] وقال : رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

○○○

= روى ابن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم : أن جبريل قال : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم . قال : فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن . قال . فأتيت إليهن فسلمت ،فرددن ، فقلت : من أنتن ؟ فقلن :خيرات حسان .. . » الحديث .

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه : « أن إبرهيم الخليل عليه السلام قال للنبي ﷺ : يا بني إنك لاقي ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل » .

وفي رواية الواقدي بأسانيده في أول حديث الإسراء : « كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار ، فلما كانت ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان – قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا – وهو نائم في بيته ظهرا ، أتاه جبريل وميكائيل فقالا : انطلق إلى ما سألت . فانطلقا به إلى ما بين المقام وزمزم ، فأتي بالمعراج ، فإذا هو أحسن شيء منظرا ، بعرجا به إلى السماوات ، فلقي الأنبياء ، وانتهى إلى سدرة المنتهى ، ورأى الجنة والنار ، وفرض عليه الخمس » . فلو ثبت هذا لكان ظاهرا في أنه معراج آخر ، لقوله : إنه كان ظهرا وإن المعراج كان من مكة ، هو مخالف لما في الروايات الصحيحة في الأمرين معا ، ويعكر على التعدد قوله : إن الصلوات فرضت حينئذ ، إلا إن حمل على أنه أعيد ذكره تأكيدا ، أو فُرِّع على أن الأول كان منامًا ، وهذا يقظة أو بالعكس ، والله أعلم .

الصـــلاة

هدية القرب للقرب

ربما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً تساؤل وهو : إذا كانت الصلاة قد فرضت في المعراج ، وهذه المرائي قد رآها رسول الله ﷺ ، قبل أن تفرض الصلاة على أمته . والتساؤل نفسه يمكن أن يكون مطروحا بالنسبة لآكل الربا ، وآكل مال اليتامى ، فلماذا لم يفرضا وقتها ؟! والصورة الأخرى التي تدل على تشريعات اجتماعية ، في المجتمع الإسلامي ، لم تكن قد فرضت بعد ؛لأن كل التشريعات فرضت بعد ذلك في المدينة المنورة بعد الهجرة ، ولكن سنجتزئ بالمثال الخاص بالصلاة ، لماذا ؟ لأن كل التكاليف والأوامر في الإسلام إنما كانت بوحي من الله تبارك وتعالى إلى رسوله ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام ، لكن للصلاة منزلة خاصة ، فهي لم تفرض عن طريق جبريل ، وكانت هي العبادة الوحيدة التي فرضها الله مباشرة على رسوله ﷺ .

وأما مسألة المرائي التي أُريها رسول الله ﷺ ، لأمور لم تكن قد شرعت في الإسلام ؛ لأن تشريعها سيتأخر ، فالعلم عند الله سبحانه وتعالى في المسائل ليس مترتبا ، بأن يعلم شيئا يقع أولا ، وبعد ذلك شيء يقع ثانيا .

وإنما كل الكون ، بما كان وسيكون ، معلوم لله سبحانه وتعالى وحدة واحدة حتى قبل أن يكون ، فهو سبحانه وتعالى خالقه وموجده بما فيه – وكأن الحق سبحانه وتعالى أمد رسوله ﷺ بنهايات هذه الأشياء ، حتى إذا ما أنزل تكليفًا ، أقبل الناس عليه بجد واجتهاد مستسلمين مذعنين ، لماذا ؟ ؛ لأنهم علموا مسبقًا ، ماذا يكون جزاء من يخالف منهج الله سبحانه وتعالى .

إذن .. علم الله تعالى فى التكليف ، وعلم الله تعالى فى الجزاء ، لا ترتيب فيه أبدًا كطريقتنا ، بل كل شيء عند الله هو هو[1] . فهو سبحانه خالق

(١) قال الإمام أبو بكر بن خزيمة فى باب ذكر إثبات العلم لله جل وعلا : تباركت أسماؤه وجل ثناؤه ، بالوحى المنزل على النبى المصطفى ﷺ الذى يقرأ فى المحاريب والكتاتيب من العلم الذى هو من علم العام ، لا بنقل الأخبار التى هى من نقل علم الخاص ، ضد قول الجهمية المعطلة الذين لا يؤمنون بكتاب الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، تشبها باليهود – يتكرون أن لله علما ، يزعمون أنهم يقولون أن الله هو العالم ، وينكرون أن لله علمًا مضافًا إليه من صفات الذات .

قال الله جل وعلا فى محكم تنزيله : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقال عز وجل : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ١٤] .

فأعلمنا الله أنه أنزل القرآن بعلمه ، وخبرنا جل ثناؤه أن أى أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه ، فأضاف الله جل وعلا إلى نفسه العلم الذى خبرنا أنه أنزل القرآن بعلمه ، وأن أى أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه .

فكفرت الجهمية وأنكرت أن يكون لخالقنا علم مضاف إليه من صفات الذات ، تعالى الله عما يقول الطاعنون فى علم الله علوًا كبيرًا ، فيقال لهم : خبرونا عمن هو عالم بالأشياء كلها ، أله علم أم لا ؟ فإن قال : الله بعلم السر والنجوى وأخفى وهو بكل شيء عليم ، أله علم أم لا علم له ؟ فلا جواب لهم لهذا السؤال إلا الهرب ، ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

كتاب التوحيد [٢٣٤٢/١] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . أخرجه البخارى [٧٣٧٩] .

التكليف ، وخالق الجزاء . فإذا كان الله تعالى قد عرض لنا صورة لشيء سيكلفنا به فيما بعد ؛ فلأن الوقع فى الجزاء عنده ، هو هذا ، ولن يتغير ولن يتجدد فيه شيء آخر أبدًا . ولذلك يجب أن نفطن إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن أمر مستقبلي ، يتكلم عنه لا بصفة الاستقبالية ، فصفة الاستقبالية يأخذها البشر بزمانهم فقط . أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى ، فلا استقبال ولا حال ولا ماضي ؛ لذلك تجد هذا واضحا ، فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] لو أن هذا الكلام من عند غير الله سبحانه وتعالى ، لقلنا : كيف يقول : ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ وبعد ذلك يقول : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، وهل نستعجل إلا ما لم يأتِ ؟

الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ فى أمر ما ، يأتى أو سيأتي ، فهو آتٍ لا محالة ، فلا زمن عند لله تعالى ، فكذلك هذه الأشياء وإن كانت ستأتى بعد ذلك ، والمخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن الله أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد التكليف لعلمه سبحانه بما كان وسيكون .

أما مسألة الصلاة : فهنا بحث يجب أن نبحثه ، وهو أنه وردت الأحاديث الصحيحة بأن رسول الله ﷺ صلى إماماً بالأنبياء فى بيت المقدس ، قبل أن يُعرج به إلى السماء . والصلاة فرضت بعد العروج ؟ فنقول لهم : نعم ، الصلاة على هيئتها الحالية ؛ فرضت فى رحلة المعراج . أما الصلاة كصلاة فهى موجودة فى كل رسالة ، وعند أتباع كل رسول . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وأيضاً فى سورة آل عمران : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

وفى آية أخرى : ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [ابراهيم : ٣٧] .

إذن .. فهناك ركوع وهناك سجود ، من يوم أن خلق الله الأرض ، ومن يوم أن جعل الله التكليف .. فكان هناك صلاة ولكن لا كالصلاة الآن ؛ فالصلاة الآن جمعت ميزات كل صلوات الرسل . فصلوات الرسل كانت فى بعض الأزمنة غدوة وعشية ، ركعتين فى أول النهار ، وركعتين فى آخره ،لها شكل خاص فى القيام ، وشكل خاص فى الركوع ، وشكل خاص فى السجود .

فلما فرضت الصلاة فى الإسلام الخاتم ، أخذت كل ميزات الصلوات السابقة ، ولم يأخذ رسول من الرسل السابقة العدد الذى فرض على أمة محمد ﷺ ، بذلك التوزيع الزمني ، خمسة أوقات فى اليوم والليلة ، ولذلك نجد أن موسى عليه السلام استكثر هذا .

إذن .. كانت هناك صلاة ، ولكن الصلاة التى فرضت ، هى الصلاة الجامعة لكل مزايا الصلوات المتقدمة ، عند الرسل السابقين ، عليهم الصلاة والسلام .

بعد ذلك نقول : إن التكاليف التى يكلّف الله بها عباده ، بواسطة الرسل ، هى تكاليف لتنظيم حركة حياتهم من ناحية مجتمعهم ، ومن ناحية سياستهم ، واقتصادهم ، وأخلاقهم . وإن الإقبال على هذا المنهج ، لابد وأن يكون بدافع أن الله تعالى هو الذى أمر به .. لماذا ؟ لأن البشر لهم فى مثل هذه الأمور تشريعات اجتماعية ، وخلقية ، فما الذى يجعلنى أرغب عن تشريعات البشر ، إلى تشريعات الحق سبحانه وتعالى ؟ لأننى آمنت بأن الله سبحانه وتعالى هو

الإله الحق المستحق للعبادة وحده ، ولذلك وجب على أن أتلقى تكاليفى منه وحده سبحانه .

إذن .. فالحق تعالى ، الذى آمنت به ، يطلب منى أن أقف بين يديه ، كل يوم خمس مرات ؛ لأظل دائما موصولا به سبحانه ، وأظل فى عبودية دائمة له سبحانه .

والصلاة هى الشحنة التى تشحذ همة المؤمن ؛ ليقبل على أوامر ربه بجد واجتهاد ، وأن هذه الشحنة هى الأساس ،الذى سيحرك هذه « القاطرة » الإنسانية ، نحو الأوامر والنواهى الإلهية .

لقد كانت الصلاة فى فرضها والتكليف بها ، تختلف عن كل الأحكام ، بأنها فرضت من الله تعالى مباشرة .

ولنضرب مثلا- ولله تعالى المثل الأعلى- إن الرئيس حينما يكتب إلى مرؤوسه كتابا ، فيكون أمراً عادياً ، فإذا كان الأمر أهم ، استدعاه عنده ، وقال له : افعل كذا وكذا . فهو لم يستدعه إلا لأن هذا أمر بالغ الأهمية ؛ ولأن رسول الله ﷺ لجعل له المعراج تكريماً لقربه من حضرة ربه . وما دام تكريماً لقربه من حضرة ربه ، ومحمد ﷺ مبعوث رحمة للعالمين جميعاً ، وحرصه على أمته حرص شديد ، لم يشأ الله تعالى فى مقام قربه منه ، إلا أن يردّه إلى أمته بما يقرب المؤمنين به من الله سبحانه وتعالى ، فكانت الصلاة هدية القرب للقرب .

المعراج كان تكريماً لرسول الله ﷺ ؛ لأنه كان قرباً من الله سبحانه وتعالى ، لم يستأثر رسول الله ﷺ وحده بالتكريم ، ولكن لأنه يحب أمته ،لابد أن يرجع بهدية من الله تعالى إلى من يؤمن به ؛ لتكون وسيلة إلى القربي .

ولذلك يقول الحق : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1] [العلق : ١٩] فكان السجود الذى هو أظهر مظاهر الخضوع فى الصلاة ، هو الذى يقرب الإنسان إلى الله تعالى

(١) يقول البقاعى : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ أى دم على صلاتك وخضوعك بنفسك ، وجدد ذلك فى كل وقت . ولما كان السجود أقرب مقرب للعبد إلى الله ، قال : ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ أى اجتهد بسرك ، فى بلوغ درجة القرب إلى ربك بكل عبادة ، لاسيما الصلاة . فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[1] ، وقد شرح هذا المقام كما تقدم فى الفاتحة قوله ﷺ : « أعوذ بعفوك من عقوبتك »[2] فإن هذه الجملة أفادت – كما قال فى كتاب الشكر – مشاهدة أفعال الله فقط ؛ فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . قال : ثم تقرب ففنى فى مشاهدة الأحوال ، وترقى إلى مصادر الأفعال ، وهى الصفات ، فقال : « أعوذ برضاك من سخطك » لأنهما صفتان . ثم رأى ذلك نقصاناً فى التوحيد ، فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الصفات ، إلى مشاهدة الذات . فقال : « وأعوذ بك منك » ، فراراً منه إليه من غير رؤية فعل وصفة . ولكنه رأى نفسه فارًا منه إليه ومستعيذاً ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً ، فاقترب فقال : أنت كما أثنيت على نفسك ، لا أحصى ثناء عليك[3] فقوله : لا أحصى نفسه ، وخروجه عن مشاهدتها ، وقوله : « أنت كما أثنيت » بيان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل =

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . أخرجه مسلم [٤٨٢] ، والنسائى فى الكبرى [٧٢٣] .

(٢) راجع نظم الدرر [١/٣٣،٣٤] .

(٣) عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه ، وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناءً عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » . أخرجه مسلم [٤٨٦] واللفظ له ، وأبو داود [٨٧٩] ، والنسائى فى المجتبى [٢/٢١٠] ، وابن ماجة [٣٨٤١] .

وذلك القرب الذى اقتربه رسول الله من ربه ، فكأن الله سبحانه وتعالى حيا محمدًا ﷺ ، حين قربه منه فى الملأ الأعلى ، بأن حمله هدية إلى المؤمنين

= منه بدأ وإليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين . وهو أول أفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل ، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته ؟ إذن .. انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق . ولقد كان ﷺ لا يرقى من مرتبة إلى أخرى ، إلا ويرى الأولى بعدًا بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ، ويرى ذلك نقصا فى سلوكه ، وتقصيرًا فى مقامه . وإليه الإشارة بقوله ﷺ « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[1] فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقامًا ، يعضها يعد نقصًا لنقص أوائلها ، وإن كان مجاوزًا أقصى غايات مقامات الخلق ، ولكن كان نقصانًا بالإضافة إلى أواخرها ، فإن استغفاره لذلك .

ولما قالت له عائشة رضى الله عنها : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء فى السجود ، وما هذا الجهد الشديد؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »[2] معناه : أفلا أكون طالبا للمزيد فإن الشكر سبب الزيادة ؛ حيث قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] انتهى . وهو على ما ترى من النفاسة ، فمن أكثر من الدعاء فى سجوده ، فضمن أن يستجاب له ، والصلاة لا تكون قراءة ، فإذا فعلت ذلك احتجبت عن الأغيار بحجاب منيع ، فازددت صفاء وصنت حالك عن الغير – كما يرشد إليه ما فى صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ينبغى للعاقل أن يكون حافظًا للسانه ، عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه » – والله أعلم فقد رجع آخرها إلى الأول ؛ أوجه وأجمل وأكمل ، والله الهادى .

نظم الدرر [٢٢/١٧٣-١٧٥] .

(١) أخرجه مسلم [٤١/٢٧٠٢] عن الأغر المزنى بلفظ : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » . وأخرجه أبو داود [١٥١٥] .

(٢) أخرجه البخارى [٤٨٣٦،١١٣٠] ، ومسلم [٨١،٨٠/٧٩/٢٨١٩] .

والشهادة قد يقولها المسلم مرة عند دخوله الإسلام فهي مفتاح دخول الدين وإن كان عليه بالطبع أن يرددها باستمرار مع المؤذن ، ويجدد بها إيمانه دوماً ؛ وأما الصلاة فلا تنفك عن المسلم أبداً حتى وهو فى الحرب ، أو وهو مريض ؛ إذ يجب عليه أن يؤدى الصلاة ، حتى ولو بقلبه .

إذن .. فلا عذر لمن لا يؤديها أبداً ، لا مهرب ولا مفر[1] .

أنت مطلوب منك أن تشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ولو مرةً واحدة ؛ إذ هى مفتاح دخولك الإسلام ، وبعد ذلك قد تصوم أو لا تصوم ، وذلك حسب الصحة والمرض والسفر ، وقد لا تحج إذا كنت غير مستطيع للحج فلا تحج ، فما الذى بقى لك من أركان الإسلام ، بقى لك الصلاة ، وهى الركن المتكرر الدائم ؛ لذلك فالصلاة عماد الدين[2] .

(١) عن عمران بن حصين ، قال : قال النبى ﷺ : صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » . أخرجه البخارى [١١١٧] .

وعن جابر أن النبى ﷺ قال : بين الكفر والإيمان ترك الصلاة

أخرجه الترمذى [٢٦١٨] وقال : حديث حسن صحيح ، واللفظ له ، وابن ماجة [١٠٧٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١١١]

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

أخرجه الترمذى [٢٦٢١] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والنسائى فى المجتبى [٢٣٦،٢٣١/١] ، وابن ماجة [١٠٧٩] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١١٣]

(٢) الصلاة عماد الدين ، ولقد وعد الله تعالى بالحة من يحافظ على الصلاة ، وأوعد بالويل الذين هم عن صلاتهم ساهون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾ [الماعون] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ ﴾ [المدثر] . =

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدت – مع كونها لا تسقط عن مسلم أبداً – فيها كل أركان الإسلام ؛ لأنك لابد فى الصلاة أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فالركن الأول مكرر فيها .

وأيضاً إيتاء الزكاة ، ما الزكاة ؟ إن الزكاة هى شىء من مال يعطى للمحتاج ؛ أى أن تضحى بشىء من مالك ، والمال فى عرف الإسلام فرع الوقت ؛ لأن العمل يحتاج إلى وقت ، فكأنك ضحيت ببعض مالك الناتج من عملك ، الناتج من استغلال وقتك . والصلاة لا تأخذ من المال ، ولكن تأخذ من الوقت الذى يُعمل فيه العمل ، الذى يأتى بالمال ، فكأن الزكاة أخذت شيئاً من المال الناتج عن العمل ، والعمل الناتج عن الوقت . إلا أن الصلاة أخذت من الوقت نفسه ، من الأساس الأصيل .

إذن .. حينما تأخذ من يومك ساعةً للصلاة ، تكون قد اقتطعت جزءًا من الوقت ، فجعلته للصلاة ، كما تقتطع جزءاً من المال .

إذن .. فالزكاة اقتطاع من المال ، والمال ناشئ عن العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسي ، ففيها زكاة أهم من المال . والذى يمنع الناس عن كثير من الصلاة ، هو أن يقولوا : إنها تحتاج إلى وقت ، وهذا يعطّلنا عن مصالحنا . فيكون ردّنا عليهم بأن نقول لهم : كما أن الله سبحانه وتعالى سمى نقصان المال من الزكاة : زكاة ، فهو لم يسمّه نقصاناً ،

= وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن النبى ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة ، كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شىء » ؛ قال : انظروا ، هل تجدون له من تطوع يُكَمِّلُ له ما ضيع من فريضة ، ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك أخرجه النسائى فى المجتبى [٢٣٢/١] ، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٥٢] .

ولكن سماه زكاة ، ونماء[1] ، فيجب أن تستقبل أيضًا الوقت الضائع عندك في الصلاة ، الذى تقول عليه : ضائعاً ، استقبالك الناقص يخرج من مالك ، فهو ينقيه ويزيده ولا ينقصه . فكذلك الوقت إذا ضحيت منه ببعضه ، وجعلته لله سبحانه وتعالى ، فإن البركة فى بقية الوقت ، ستعوضك كل ما قد مضي ، كما أن الزكاة نماء ، والربا محق .

(١) يقول العلامة الراغب الأصفهانى : أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ، ويعبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ، يقال : زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة . وقوله : ﴿ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ [الكهف : ١٩] إشارة إلى ما يكون حلالاً لا تستوخم عقباه ، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس ، أى تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعا ، جودان فيها ، وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة فى القرآن بقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ويزكاء النفس وطهارتها ، يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة الأجر والمثوبة . وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره ، وذلك يسب تارة للعبد ؛ لكونه مكتسبا لذلك ، نحو : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] وتارة ينسب إلى الله تعالى ؛ لكونه فاعلا لذلك نحو : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٩] وتارة إلى النبى ﷺ ، لكونه واسطة فى وصول ذلك إليهم ، نحو : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ وتارة إلى العبادة ، التى هى آلة فى ذلك ، نحو : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أى مزكى بالخليقة ، وذلك على طريق ما ذكرنا من الاجتباء ، وهو أن يجعل بعض عباده عالماً وطاهر الخلق ، لا بالتعلم والممارسة ، بل بتوفيق إلهي . كما يكون حال الأنبياء والرسل ، وينعته بالمزكى لما يكون عليه فى الاستقبال ، لا فى الحال والمعنى سيزكى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤] أى يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله أو ليزكوا أنفسهم والمعنيان واحد . وليس قوله للزكاة مفعولا لقوله فاعلون ، بل اللام فيه للعلة والقصد . وتزكية الإنسان نفسه ضربان : =

وأيضاً فيها صوم ، وما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ،فى نهار رمضان . لكن أنا فى الصلاة أمسك عن شهوتى البطن والفرج ، وعن الحركة والكلام ، وعن كل شيء .

إذن .. فهناك لون من الصيام متعلقاته فى المنع ، أوسع من متعلقات الصيام[1] .

وأيضاً فيها قصد البيت الحرام والانتباه إليه ؛ لأنك تستحضر وأنت تصلى الكعبة ، بيت الله سبحانه وتعالى ، فتتجه إليه ، وتتحرى عن اتجاهه .

ولما كانت الصلاة هى الركن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم ، جاءت فيها كل الأركان فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . ومن

= أحدهما : بالفعل وهو بحمود وإليه قصد بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .
والثانى : بالقول كتزكية العدل غيره ، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه ، وقد نهى الله تعالى عنه فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] ونهيه عن ذلك ؛ تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه ؛ عقلا وشرعًا ، قيل لحكيم : ما الذى لا يحسن وإن كان حقا ؟ فقال : مدح الرجل نفسه . مفردات ألفاظ القرآن [٢١٨] .

(١) يقول الراغب الأصفهانى : الصوم فى الأصل : الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً ؛ ولذلك قيل للفرس المسك عن السير أو العلف : صائم ، قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وأخرى غير صائمةٍ

وقيل للريح الراكدة : صومٌ ، ولاستواء النهار صومٌ ؛ تصوراً لوقوف الشمس فى كبد السماء ، والصوم فى الشرع : إمساك المكلف بالنية ، من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، عن تناول الأطيبين والاستمناء والاستقاء.
مفردات ألفاظ القرآن [٢٩٨] .

الزكاة بشيء أكثر فائدةً من المال ، بل بالوقت الذي يأتي بالمال ، ومن صوم صمته فوق ما تصوم في رمضان ،واستحضار ليت ربك في كل وقت من الأوقات ، فكأنك حججت بقلبك ، وإن عجزت عن الحج بجسدك .

ولكن .. ماذا عن دور موسى عليه السلام في النصح بمراجعة الله سبحانه وتعالى ؛ للتخفيف عن المسلمين بإنقاص الصلاة ؟

هنا نريد أن نقول : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة – كما قلنا سابقًا – لأهميتها ، والرواية التي قالت لنا : إن الله سبحانه وتعالى قد فرض خمسين صلاة ، ولما أخبر رسول الله ﷺ موسى بذلك ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمساً [1] .

في هذا المقام أحب أن أُذكر المسلمين بأن كراهيتنا لليهود ، يجب ألا تنسحب على موسى عليه السلام . يجب أن يُفهم هذا الكلام جيداً ، فلا يدخل في نفوسنا شيء على موسى عليه السلام ؛ لأن موسى عليه السلام ، رسول من

(١) عن أنس بن مالك : أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان : قال النبي ﷺ : ثم عرج بي حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام قال ابن حزم وأنس ابن مالك : قال النبي ﷺ : ففرض على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة ، قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فراجعته فوضع شطرها . فرجعت إلى موسى قلت : وضع شطرها . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق . فراجعته ، فوضع شطرها . فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق . فراجعته فقال : هي خمس وهي خمسون ، لايُبدَّل القول لدي . فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك . فقلت : استحييت من ربي جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٤٩ ، ١٦٣٦ ، ٣٣٤٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٣/١٦٣] .

رسل الله سبحانه وتعالى ، بل هو من أولي العزم من الرسل[1] . وكونه طلب من رسول الله ﷺ أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف ، هل في ذلك وصاية ؟ وما نوع هذه الوصاية ؟ الوصاية تكون من الإنسان الذي يأتي ليفرض علي أمراً أكثر ، أما الوصاية التي تأتي بالتخفيف ، فهل توصف بأنها وصاية ؟ إنه يريد أن يخفف عني أموراً ، يعلم هو أنني لا أطيقها .

وقد ورد في الحديث : « فإن أمتك لا تطيق ذلك » ، فهل يريد أن يقلل من شأن الأمة الإسلامية واحتمالها ، كما يقول بعض الموتورين ممن لا عقل لهم ؟

نقول : لا ، انظر حينما يقول موسى لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أنا جربتُ الأمم قبلك » ، لم يكن الله سبحانه وتعالى قد فرض على قوم موسى عليه السلام إلا صلاتين ، صلاة بالعشي ، وصلاة بالغداة ، ومع ذلك ما قاموا بها . فموسى عليه السلام وهو الذي عاش مع قومه طويلاً يدعوهم إلى الله تعالى ويرغبهم ، ومع ذلك لم يقوموا بوقتين من الأوقات : ويقول ذلك لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أنه يحب رسول الله ﷺ . ويحب أمة رسول الله ﷺ ؛ ولذلك يريد ألا يعرضها لما تعرضت له أمته ، من أنها لم تستطع . فهذه ليست شهادة بأننا ضعفاء ، وإنما هو يخشى أننا قد لا نقوى

(١) قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .
وجاء في الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، أنه سُئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » جزء من حديث أخرجه البخاري [٥٠ ، ٤٧٧٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم [١/٨] واللفظ له .

على هذا ، لماذا ؟ لأنه جرب مع أمته فلم تقو . ومعنى جرب فى قومه ، فهذه شهادة ضد أمته ، وليست ضدنا نحن ؛ لأن معنى ذلك أنه عرف أن أمته لم تستطع ، ولم تقدر ، نخشى علينا . ما الذى جعله يخشى علينا ؟ يقينه بما فعلته أمته .

إذن .. فهذا أمر ضدهم ، وليس ضدنا نحن .

ثم نأتى إلى السؤال عن كثرة أنبياء بنى إسرائيل ، الذين قابلهم الرسول ﷺ نقول : إن الأنبياء – كما سبق أن قلنا – إنما جاءوا لتبليغ منهج الله تعالى إلى خلق الله تعالى ليعالجوا أدواء البشر . فكأنهم الأطباء الذين أرسلهم الله تعالى ؛ ليعالجوا البشرية من علاتها ، فإذا ما كثر على أمة أطباء ، فاعلم أن أمراضها كثيرة .

وما دام أنبياء بنى إسرائيل كانوا كثيرين ، فمعناه أن بلاءهم كان كثيراً ، وأن نبياً واحداً لم يكفهم ، وهذا دليل على استفحال الأدواء فيهم ، وأن نبياً واحداً لم يكن ليكفيهم ؛ ولذلك لا يؤخذ كون اليهود أكثر الأمم أنبياءَ ، على أنهم أحسن الأمم وأعظمها ، ونكرر قولنا لهم : إن الأنبياء ، كالأطباء ، وكثرتهم عند اليهود تدل على أن أمراضهم أمراض كثيرة معضلة ، وإن طبيباً واحداً لم يكن كافيًا ، فعلى الرغم من تعدد الأنبياء ، كان ما كان منهم[1] .

(١) قال الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

قال ابن كثير : يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضَّلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠] . =

= قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ . قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان فى ذلك الزمان فإنّ لكل زمان عالماً .

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل ؛ منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وفى المسانيد والسنن عن معاوية القشيرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ . وقيل : المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً حكاه الرازى وفيه نظر . وقيل : إنهم فُضلوا على سائر الأمم ؛ لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبى فى تفسيره ؛ لأن العالمين عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه .

تفسير ابن كثير [١/٨٥] بتصرف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

قال أبو حيان : أرسل الله على أثر موسى رسلاً هم : يوشع ، وشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، وشعيا ، وأرميا ، وعزير ، وحزقيل ، والياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وغيرهم . البحر المحيط [١/٤٨٠] .

وقال ابن عطية : تُروى أن بنى إسرائيل كانوا يقتلون فى اليوم ثلاثمائة نبى ثم تقوم سوقهم آخر النهار ، وروى : سبعين نبيًا ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار .

المحرر الوجيز [١/١٧٦، ١٧٧] .

إذا كان الله قد جعلها خمس صلوات ، فلماذا أمر فى بدء الأمر بخمسين ؟

نقول : إن التكاليف من الله سبحانه وتعالى ، ليست لحاجة الله تعالى إلى فعلنا ، وإنما هى لصالحنا نحن .فالأساس الأصيل ، أن التكاليف لا ينتفع الله تعالى بها ، وإنما هى لصالحنا نحن ، فحين يكلّفنا الله سبحانه وتعالى تكليفًا ، فإنه يكون لصالحنا ، ويعطينا على هذا التكليف أجراً إن فعلنا به .

وحين فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة خمسين وصيّرها إلى خمس ، هل أنقص ما يريد إعطاءه من الثواب ،أم ظل الثواب خمسين ؟

نقول : لقد ظل الثواب خمسين .

إذن .. فالعطاء غير متناسب مع العمل ، فتقرير العطاء من الله تعالى على الخمسين ،وظل العطاء هو العطاء ، وبعد ذلك خُفّفت الوسيلة لا العطاء ،فبعد أن كانت خمسين أصبحت خمساً ، ولكن الثواب ظل كما هو .

وكثير من الناس يقول : كيف ينسخ الله تعالى الحكم ، قبل أن نمكّن من الفعل ؟ فيكون الرّد عليهم : إن الناس يفهمون أن مراد التكليف من الله سبحانه وتعالى ، إنما هو فعل الشيء المكلف به ، بمعنى أن المراد من كل تكليف من الله سبحانه وتعالى لخلقه ، أمران :

الأمر الأول : الإيمان بالتكليف وعدم ردّه .

الأمر الثانى : فعله .

فإذا قبلت الأول ، فقد أخذت شقاً من الأمر بالتكليف ، وبعد ذلك الشق الآخر وهو الفعل ، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة ، فأقول مثلاً : إبليس

عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، لماذا طرد إبليس من رحمة الله ؟ ولماذا تلقى آدم كلمات من ربه ، فتاب الله عليه ؟

هنا ننظر إلى معصية كل منهما ، فإبليس عصى الله تعالى فى أنه رد الأمر التكليفى على الله تعالى ، وقال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١] يعنى إنه لا يعجبنى هذا التكليف ، أنا خير منه .

إذن .. فقد رد التكليف على من ؟ على الله تعالى .

لكن آدم عليه السلام لم يرد التكليف على الله تعالى[1] ، بل اتهم نفسه وقال كما ورد فى الذكر الحكيم فى سورة الأعراف آية [٢٣] : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فحين كلّف الله سبحانه وتعالى رسوله أن تكون الصلاة خمسين ، قبلها رسول الله ﷺ ، واتصاع لأمر التكليف ، ولم يعارض فيه . ثم بعد ذلك طلب التخفيف .

فيكون قبوله ﷺ هو التسليم بأمر الله سبحانه وقبول التكليف ، ثم بعد ذلك : فعله شيء آخر .

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ أى أضررناها بالمعصية ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ أى ما سلف ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ أى بالتوبة وقبولها ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أى لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات .

قال الضحاك ابن مزاحم فى قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ... ﴾ الآية هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة : قال الجشمى : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة . تفسير القاسمى [٦٦٤٣/٧] .

فالذى نسخ ليس قبول التكليف ، ولكن الذى نسخ هو فعل التكليف . فالخمسون صلاة : صارت خمسًا ، فهل يكون الله سبحانه وتعالى قد كلّف بشيء ، وقبل أن يكن منه نسخه ؟ نقول : إنه مكّن فى واحدة ، ولم يمكّن من الثانية ، مكن من ماذا ؟ من أنه قبل أمر التكليف .

وشاهد ذلك فى قصة نبى الله ابراهيم عليه السلام : إن الحق سبحانه وتعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ، ماذا كان من إبراهيم ؟ قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [الصافات] ، أى : تقبلتَ يا إبراهيم الأمر بإيمان ويقين ، وأقبلتَ أنتَ وولدكَ لتفعله ، فتكون المسألة قد انتهت ، فهذا هو المراد من إبراهيم[1] ، فكأن الأمر التكليفى يطلب منه شيئان :

(١) يقول ابن كثير : يذكر تعالى عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاد قومه مأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لاخلاف فيه بين أهل الملل ؛ لأنه أول ولده وبكره ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أى شبَّ وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أى شبَّ وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل . فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده . هذا وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : رؤيا الأنبياء وحى[2] . قاله عبيد بن عمير أيضاً ، وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله ، فى أن يذبح هذا الولد العزيز ، الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن ،=

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٣٨، ٨٥٩] .

= بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ؛ ثقة بالله وتوكلاً عليه ؛ فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده ، هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ؛ ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿ فَقَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ قيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك .

وقيل : هذا من المقدّم والمؤخر ،والمعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ : أى ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه ؛ لئلا يشاهده فى حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح ، وبقى طرف جبينه لاصقاً بالأرض ، و ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم . فعند ذلك تودى من الله عز وجل : ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك ، وبذلك ولدك للقربان ، كما سمحت بدنك للنيران ، وكما ذلك مبذول للضيفان ؛ لهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] أى الاختبار الظاهر البين وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أى وجعلنا فداء ذبح ولده ، ما يسره الله تعالى له من العوض عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن ، رآه مربوطاً بسمرة فى ثبير . قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : =

الأول : أن يؤمن به ، وأن يتلقاه بالقبول والتسليم والرضا وعدم الرفض والرد .

والثاني : أن يفعله ؛ ولذلك إذا جاء واحد لم يُصَلِّ ، ونقول له : أنت لم تُصَلِّ ، فهل أنت منكر للصلاة أم كسلان ؟ فإن كان منكراً ، فنقول له :

= كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً . وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وعليه عهن ، أي صوف أحمر ،وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ،وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى ، وقال عبيد بن عمير : ذبح بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن : أنه كان تيساً من الأروي ، واسمه جريز فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله ناقع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا ، قالت : أرسل رسول الله ﷺ لي عثمان بن طلحة ، وقال مرة : إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » قال سفيان : لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا [1] . وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحاق لا تعلم أنه قدمها في حال صغره ، والله أعلم .

البداية والنهاية [1/148-149] .

---

(1) أخرجه أحمد في المسند [4/68/5/380] .

كفرت . لماذا ؟ لأنه ردّ الأمر في الأول . وإن كان متكاسلاً فنقول له : يجب أن تصلي ، فأنت عاصٍ لله تعالى بترك الصلاة ويخشى عليك كذا وكذا .

والذي يتعامل بالربا ، إن قال : إن الربا حرام ، ولكنني مضطر إليه وبعدد أسباب اضطراره ، ويطلب من الله تعالى أن يعاونه على الخلاص منه فإنه قد قبل الحكم من الله سبحانه وتعالى ، ولكن نفسه ضعفت فلم ينفذه . فهذا مؤمن عاصٍ ، لكن الذي يحل الربا أو يحل بعض صوره ، يكون قد دخل في منطقة الكفر ، لماذا ؟ لأنه لم يقبل الحكم من الله ، ورده عليه سبحانه وتعالى .

○○○

- كيف رأى النبى ﷺ الأنبياء والتقى بهم ؟

هناك سؤال يمكن أن يرد إلى الذهن ، وهو كيف التقى رسول الله ﷺ بالأنبياء وهو فى عالم المشاهدة وهم فى عالم الفناء ؟

نقول : إن فى القرآن الكريم آيات ، لو وقف الإنسان عندها بإمعان ، تعطى له الأصل الذى يعتمد عليه فى إيمانه بهذا الحدث العظيم وما جرى فيه . فمثلاً : كون النبى ﷺ يلتقى بالأنبياء ويصلى بهم ، مع أنه حى بقانون الأحياء ، وهم موتى بقانون الأموات! فكيف التقى الحى بقانون الأحياء ، مع الموتى بقانون الأموات ، ويعملون عملاً واحداً ؟!

إن الإنسان ما روحه حين تتصل به ، تتصل اتصالات مختلفة ، تتصل به وهو حي ، على قسمين :

القسم الأول : تتصل به حالة اليقظة ولها قانون .

القسم الثاني : تتصل به حالة النوم ولها قانون .

واليقظة والنوم آيتان .. يتعرض لهما الأحياء ، دعنا من الأمر الغيبى الذى فى البرزخ[1] أو ما بعد البعث ، فنحن نتكلم عن المسألة الداخلة فى نطاق

(١) يقول صاحب اللسان : برزخ : البرزخ : ما بين كل شيئين ، وفى الصحاح : الحاجز بين الشيئين . والبرزخ : ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر ، من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] ، قال : البرزخ من يوم يموت إلى يوم يبعث . وفى حديث على ، رضوان الله عليه : أنه على بقوم فأسرى برزخاً [1] ؛ قال الكسائى : قوله : فأسرى برزخاً : أجعل =

(١) أخرجه ابن الأثير فى النهاية [١١٨/١] .

حياتنا ولها قانونها المعروف ، فإذا أتيت بقانون الروح مع الجسم فى حالة المنام ، فأنا لى حالتان وأنا حي :حالة اليقظة ،وحالة النوم .فالروح اتصال بالجسم فى حالة اليقظة ولها قانونها المعروف .

وللروح اتصال بالجسم فى حالة المنام ، هل هو قانون الروح مع الجسم فى حالة اليقظة ؟ لا ، ليس هو .. لماذا ؟ قيل : لأننى أرى فى المنام ، أن فلاناً يرتدى ملابس حمراء ، وآخر يرتدى ملابس خضراء . فأنا أرى الألوان وعينى معلقة ، فما الذى جعلنى أرى الألوان بغير آلة الإبصار لأن عينى مغمضة وأنا نائم ؟ إذن .. فهناك وسيلة من وسائل الإدراك غير التى عندي ، ووسائل من وسائل الإحساس بالأشياء ، غير الحواس الخاصة بي . فبمجرد خلود الجسد للنوم ، تبدأ للروح إشراقاتها ، وتجلياتها مع الجسم ، تعطى له معانى جميلة ، وبعد ذلك ، الزمن ليس له سيطرة ، المرائى ليست لها سيطرة ، ولكن لها

= وأسفط ، قال : والبرزخ ما بين كل شيئين ، ومنه قيل للميت : هو فى برزخ ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة ؛ فأراد بالبرزخ ما بين الموضع الذى أسفط ، عليٌ ، منه ذلك الحرف ، إلى الموضع الذى كان انتهى إليه من القرآن . وبرازخ الإيمان : ما بين الشك واليقين ، وقيل : هو ما بين أول الإيمان وآخره . وفى حديث عبد الله : وسئل عن الرجل يجد الوسوسة ، فقال : « تلك برازخ الإيمان »[1] ؛ يريد ما بين أوله وآخره ، وأول الإيمان الإقرار بالله عز وجل ، وآخره إماطة الأذى عن الطريق . والبرازخ جمع برزخ ، وقوله تعالى : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٠] يعنى حاجزاً من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقيل : أى حاجز خفى . وقوله تعالى : =

(١) أخرجه مسلم [١٣٣] عن عبد الله بلفظ : سئل النبى ﷺ عن الوسوسة . قال : « تلك محض الإيمان » . وذكره ابن الأثير فى النهاية [١١٨/١] وقال : يريد ما بين أوله وآخره . فأوله الإيمان بالله ورسوله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق . وقيل : أراد ما بين اليقين والشك ، والبرازخ : جمع برزخ .

قانون خاص ، ترى مثلاً أنك نائم ، ومعك إخوتك تمرحون وتضحكون وتأكلون الطعام ، وترى واحد آخر نائم معك وقد يكون فى نفس الغرفة ، أنه مع قوم يضربونه وأنت لا تشعر به ، وهو لا يشعر بك ، فأنت فى عالمك ، وهو فى عالمه . لو أتيت وطبقت هذا القانون فى ماديات اليقظة ، فلا يتحقق أبداً .

إذن .. فالحقيقة قد وضحت ، وإن اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون . وقانون الروح فى النوم أخف وأشف وأقوى من قانون الروح فى اليقظة . فإذا كان ذلك مع بقاء الحياة ، فما بالك لو أن هذه المادة كلها فنيت وانتهت ، ماذا يكون القانون الذى يأتى بعد ذلك ؟ أيكون أكثف من قانون النوم أم أشف من قانون النوم ؟ لابد أن يكون أشف من قانون النوم ، وتكون فيه المرائي ، وفيه الصور ، وفيه الالتقاءات . لكن من الذى يستطيع أن يجرّد نفسه من ماديته ، لتفوق فيه روحانيته حتى يلتقى بمثل هؤلاء ؟

قد يكون هذا مثلاً ما نعله الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ، بأن جرّده من ماديته فأصبح يرى الأشياء التى لم يكن يراها ؛ والله تعالى قادر على أن يُرى رسوله ﷺ بذلك أو غير ذلك ، ولذلك أخذ رسول الله ﷺ امرحلتين ، وكان ﷺ لايرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح[1] .

= ﴿ وَمَن يَبْتَهَا بَرْزَخًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] أى حاجزاً . قال : والبرزخ والحاجز والمهلة ، متقاربات فى المعنى ؛ وذلك أنك تقول : بينهما حاجز أن يتزاورا ، فتنوى بالحاجز المسافة البعيدة ، وتنوى الأمر المانع ، مثل اليمين والعداوة ، فصار المانع فى المسافة كالمانع من الحوادث توقع عليها البرزخ .

لسان العرب (٨/٣) .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣] ، ومسلم [٢٥٢/١٦٠] .

إذن .. إن مجرد خروج المادة من رسول الله ﷺ أنه يرى الرؤيه بصفه . فما بالك إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أحدث فى نبيه ﷺ تغييراً ، فهل يرى أم لا يرى ؟ وبقانون أشف من قانون النوم ، وإذا كان ذلك هو القانون البرزخي ، فما بالك بقانون اتصال الروح بالجسم فى الآخرة ! سيكون لها اتصال بنظام آخر الله وحده يعلمه .

إذن .. يجب أن نلاحظ أن الروح لها اتصال بالجسم فى حالة اليقظة ، وبعد ذلك لها اتصال بالجسم فى حالة النوم ، وقانونها أشف وأقوى من قانون اليقظة ، وللروح اتصال بالجسم فى حالة البرزخ ، وللروح اتصال بالجسم بعد البعث ، وذلك هو الاتصال العلوي ، الاتصال النهائي ، ولذلك فى الحياة الآخرة ستكون شيئاً آخر تماماً ،نأكل ولا تخرج منا فضلات ، ولا نشيب .

إذن .. يجب أن نلاحظ أن كل حالة فى اتصال الروح بالجسم لها قانونها ، قانونها مع اليقظة شىء ، ومع النوم شىء ، وبعد البعث شىء آخر .

هذا ما أردت أن أوضحه فى هذه المسألة وليعلم القاصى والدانى أن الله تعالى على كل شىء قدير ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء ، ولا يعجزه شىء إنما إذا أراد شيئاً أن يقول له ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، آمنا بالله تعالى وكتابه ، وصدقنا برسوله ﷺ والحمد لله رب العالمين .

○○○

مقدمة الناشر ٣
تصيلة الإسراء والمعراج لفضيلة الشيخ الشعراوى ٥
الإسراء والمعراج فى شعر البوصيرى ١٨
الإسراء والمعراج فى صحيح البخارى ٢١
الإسراء والمعراج فى صحيح مسلم ٣٥
دقائق فى الإسراء والمعراج من كتاب حدائق الأنوار ٣٧

شرح حديث الإسراء والمعراج

حدث الإسراء والمعراج وأهميته ٤٩
مجىء أهل الأرض .. وبداية الرحلة المباركة ٥٨
الإسراء فى القرآن ٦٠
المعجزة فى الإسراء والمعراج ٧٦
الفرق بين الرؤيا والإراءة ١٥٠
المرائى والصور التى رآها النبى ﷺ فى الإسراء والمعراج ١٦٢
الأنهار التى رآها النبى ﷺ ١٩٢
الصلاة .. هدية القرب للقرب ١٩٧
هى .. خمس والثواب على خمسين ٢١٤
كيف رأى النبى ﷺ الأنبياء والتقى بهم ؟ ٢٢٠